رواية

أحمد زين

فاكهة للغربان

ساحر الكتب

أحمد الزين

فاكهة للغربان

رواية

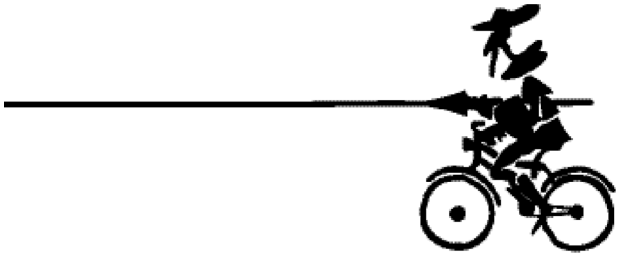

منشورات المتوسط

الحقوق

اسم الكتاب: فاكهة للغربان

المؤلف: أحمد الزين

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

النوع: رواية

سنة النشر: 2019 م

منشورات المتوسط - ميلانو - إيطاليا

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142
Milano / Italia

العراق / بغداد *شارع المتنبي* محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

البريد الإلكتروني: / www.almutawassit.org
info@almutawassit.org

جميع الحقوق محفوظة ©

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

إن المواقف والأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن وجهة نظر ورأي المؤلف ولا تلزم أية جهة أخرى.

إلى بشرى المقطري.. العيد والذبيحة

عدن، مدينة ارتكبت أحلاماً، تفوق طاقتها على التَّحمُّل.

منصور هايل "هذيان الحطب"

لن أتبنَّى صفة الإنسانيّ لأيِّ قياديٍّ في التجربة الجنوبية، لِمَا سادها من عنف وتصفيات.

فواز طرابلسي "جنوب اليمن في حُكْم اليسار"

أتى زمن النجمة الحمراء، وجعل شعار "لا صوت يعلو فوق صوت الحزب"، أذان المؤذِّنين يخفت.

فرانك مرميه "مُدُن متنازعة"

كتاب فاكهة للغربان

1

صرختُ بكل ما تدَّخره حَنْجَرَتي من قوَّة. كنتُ أسمع صوتي صاخباً، يغطِّي على ما سواه من ضوضاء، وتخيَّلتُ أناساً يتركون مشاغلهم، ويهرعون للنجدة، مفتِّشين عن امرأة تصرخ في هذا الليل. وتبيَّن لي، بعد أقلِّ من دقيقة، أن أحداً لم تبلغْه استغاثتي، أن شخصاً لن يستفزَّه منظر الهلع وهو يمزِّق وجهي، بينما كنتُ أعدو وأعدو، وأتعثَّر ثمَّ أقع. لم يكن لي صوت، كان صراخي يرتدُّ إلى أعماقي ويتلاشى هناك. وفي ثوانٍ، عاودني ذلك المنام، وتراءت لي وسط غبار أثاره ركضي في تلك الأزقَّة الملبَّدة بالظلام الأيدي الغليظة وهي تمسك بالسكاكين، تسطع شفراتها بأشعَّة مبهرة، فيما كانت الدَّابَّة تتهاوى في كيفية غريبة.

كانت للتَّوِّ هبطتْ من بار الروك هوتيل، سارت بخطوات متمهِّلة، يُثقِلها تأثير الأُغنيَّة السوداء، وذلك الالتماع في عينَي النادل الأسمر، العينَيْن اللَّتَيْن بدتا لها في تلك اللحظة، خلال ذلك الزمن البعيد، تختزلانه بصورة كاملة، ممَّا أشعرها أن شيئاً ما يروح يحملها، ويقذف بها بعيداً إلى تخوم زمن مضى، وفكَّرتْ حينئذ كم ماضٍ لها؟ واحد قبل رحيل الإنجليز وآخر بعده. وجال في بالها أن كل ذلك

الماضي، بزَمَنَيْه أو وجهَيْه، أضحى ليس الحاضر الذي تعيشه فحسب، إنما أيضاً الآتي الذي تترقَّبه. ولم تحتجْ لأن تشعر بالأسى، ولا الأسف، في مواجهة هذه النتيجة.

مثل كابوس بدأت الحادثة، حتَّى قدماي ما طاوعتاني على الفرار، كأنَّما هناك يد خفية امتدَّت، وقيَّدتْهما في مكانهما. وصمتت وعادت لتنظر في الصور. المرأة في هذه الصورة، ليست أنا. تتبسم نورا الآن بوَهْن. ويخطر لصلاح أنه بات يحبُّ الطريقة التي تنظر بها إلى صورها، معتبراً ذلك انزلاقاً في التساهل معها، هو الذي لا يزال يتوخَّى الحذر معها، حتَّى تخبره بما تريده منه. تتأمَّل كأنَّما في صورة امرأة أخرى لا تعرفها. تُحدِّق مرَّة بإعجاب، ومرَّة بعاطفة غامضة، تُموِّج صفحة وجهها.

يرى الوسادة المَحشوَّة بالريش تحت قَدَمَيْها، اللَّتَيْن تختفيان في أربطة بيضاء. يرى ذراعها تستريح على مسند بحشية ناعمة لأريكة قديمة، لكنْ، فخمة، فيما أصابعها تتلمَّس جبينها. عيناها تتجوَّلان ثانية في الصور. ثمَّ ما لبثت أن نظرت إلى لوحة معلَّقة على الجدار، إلى يمينها، ولفتت انتباهَهُ ظلالٌ غريبة، تكسو رويداً وجهها. تترك اللوحة، وتنظر صوب النافذة. يدهمها ذلك المساء في موسكو، وتتخيَّل أنها تُنصِت إلى صوت الثلج يتهشَّم تحت أقدامهم، وأنها لو نهضت وأطلَّت إلى أسفل، فستراهم بملابسهم الثقيلة وجزماتهم طويلة العنق، بقفَّازات سميكة في أيديهم، وتغطِّي رقابهم أوشحة ثخينة، يخوضون، كأنَّما لأوَّل مرَّة في حيواتهم، في طريق ثلجي موحل. وهي تنظر متفكِّرة

في هؤلاء الذين بدت هيئاتهم لوَهْلَة مألوفة لها، ستمسُّها رعدة طفيفة. وستعرف، بينما تراقبهم وهم يسيرون في خطوات قصيرة، أنهكتْها كثافة الثلوج، أنهم، لا محالة، في سبيلهم إلى البناية التي يعيشون في أحد طوابقها. لا ينفكُّ هذا المشهد يعود إليها، في أحلامها ويقظتها.

أشعلت سيجارة جديدة، وزفرت أنفاساً، وتركتْها معلَّقة في فمها، ثمَّ أخذت تشدُّ ثيابها إلى أسفل ركبَتَيْها. تفعل ذلك طوال ما يكون صلاح جالساً أمامها. وهي تميل برأسها ناحيته، تصوَّر أنها، أخيراً، ستُكمل له حكايتها، وستُريح فضوله. لكنْ، ما إن ركز في عينَيْها لبُرْهَة خاطفة، متفادياً نظرتها إليه، حتَّى عرف أنها لئن فتحت فمها مرَّة واثنَتَيْن لتحكي ما مرَّ بها من أمور، فإنه لن يكون من بينها ما يرغب في أن تُطلعه عليه، من دون أن تقطع فجأة استرسالها. وسرعان ما انشغلت بتقليب ألبوم الصور، كان في متناول يدها على طاولة صغيرة بجوارها، فيما يتخيَّل صلاح وهو يرى النهار يمضي، ما يشبه الضباب في الخارج يتَّخذ اللون الأزرق الباهت، وحيناً الرّماديّ الخفيف، وخلاله يمكن له تبيُّن بشر، أنفسهم الذين يصادفهم في طريقه إليها، لهم هيئات شبحية في طرف مقهى، يملكه ستِّينيٌّ غادر قريته في شمال اليمن فتى ولم يعد من حينها، يحتسون من كؤوس يضمُّونها برفق بين أيديهم.

تلاشى المساء سريعاً، وهبط الليل في الغرفة، وبقيا مغمورَيْن بالصمت والظلام ورائحة عطر ممزوج بأدخنة السجائر. ثمَّ تراءت له تتلمَّس طريقها، مثل كتلة رقيقة

تتماوج، إلى زرِّ النور. تفجَّر الضوء في شظايا حادَّة، شَعْره يُجرِّح عينَيْه بعد حين من العَتْمَة الخفيفة. وترقَّب عودتها إلى حيث تجلس إلَّا أنها لم تفعل، ظلَّت واقفة تستند إلى قاعدة ثخينة لخزانة من خشب وزجاج، تنتظم في أرففها وزواياها مقتنيات أنيقة، مصنوعة من كريستال وفضَّة ونحاس. ولم يخطر له أن جسداً بوجه نحيل، وتجعيدة حول الفم تجعله مثيراً، يمكن أن يُخفي مؤخِّرة بهذا النتوء الحادِّ، ملمومة فوق فخذَيْن، تخيَّلهما قويَّتَيْن.

تطيش نظراتها في صورهما معاً، جياب وهي، في صور كل منهما. تصافح في صورة مسؤولاً رفيعاً في الحزب العمَّاليِّ البولندي الموحَّد، تُقدِّم الحضور الرّسميّ لتحيَّة الفرقة الوطنية للفنون الشَّعبيَّة التي أحيت حفلات في بولندا، الأولى منها كانت في واحد من مسارح بياويستوك. في الصورة شَعْرها الأجعد الكثيف، ينسدل على خَدَّيْها، يجعل وجهها دائريَّاً مثل شمس مشرقة. لكنْ، ما جدوى كل ذلك الآن؟ يسمعها تتساءل بأسى وهي تعود إلى مقعدها، ويراقبها تنفض بظَهْر أصابعها رماد السيجارة عن ثيابها، وبيدها اليسرى ستتناول كوب ماء، وتشرب رشفة، وأخذتْ، بينما تعيده إلى الطاولة، تمرِّر لسانها فوق شَفَتَيْها. وبدأ هو يتأهَّب للرحيل، ليتركها تخلد إلى النوم، إذ اعتادت، منذ اختفاء جياب، ثمَّ حادثة قَدَمَيْها، الذهاب إلى سريرها باكراً. بيد أنها لا تمكث في السرير سوى بعض ساعة، تزيد أحياناً، لكنْ، بلا نعاس، فالألم يُطيل ليلها.

"تتحلّى بحسٍّ ثوريٍّ. لكَ مبدأ ولكَ أسلوب. مع السلامة توكَّل وافتهن. واسلا. ذا مؤتمر حزب لا غالب ولا مغلوب..." في أثناء ما كان يردِّد أُغنيَّة للعطروش، يتخلَّص صلاح من بدلة السفاري في حجرة داخلية. قبل ذلك حلَّ ببطءٍ حَذِرٍ جراباً صغيراً من الجِلْد الأسود، كالنائم يرقد فيه مسدَّس روسي من نوع توكاريف. وبقي لبُرْهَة فيما يلبس فوطة بمربَّعات صغيرة ملوَّنة، وقميصاً أسود بكُمَّيْن قصيرَيْن، يختبر شعوراً، لم يبدُ له جديداً تماماً، إذ هو الشعور نفسه الذي تملَّكه بمجرَّد أن أُعطي مسدِّساً، بصفته أمسى من حملة الأسرار، أن كل الخطوات تقريباً قطعها، ليترك مسافة هائلة بينه وبين ذلك الرِّيفيِّ، الذي ما زال يسحبه للوراء.

يعود ليترنَّم بما تبقَّى من الأُغنيَّة الثَّوريَّة، "صوت الحزب بس يعلى. للحزب غايات. والحزب ناداك". غير أن ما تحقَّق له حتَّى الآن، لم يستطع تبديد الشَّكِّ بالنقصان الذي ما برح يخالجه. في قرارة نفسه يعترف أنه لم يصل بعد إلى النقاء الإيديولوجي، فضلاً عن محاولات تفكير، تُبهظه في خاتمة ملائمة لمشوار حياة كحياته، تُخلِّد اسمه، وتحفظ تاريخه الشَّخصيَّ. وتناهت إليه أصواتهم متداخلة مع الموسيقى، وأدرك أنه أطال بعيداً عنهم، فحدَّق سريعاً خلال مرآة، تحتلُّ إحدى ضلفَتَي الدولاب، في وجهه الأسمر، في جبهته الضَّيِّقة، في الشَّعر الغزير لرأسه، وراوده إحساس فريد، راح يُعزِّز من الروح الجديدة،التي تخفق في داخله منذ فترة ليست قصيرة. وهو يُلملم أطراف

الفوطة حول ساقَيْه، ويأخذ مكانه بينهم، تمكَّن على الفور من رؤية خيوط رقيقة من العَرَق، تسيل من عنق سناء التي كانت تهوي بيدها اليمنى على وجهها، وتتفرَّق على صدرها، ممَّا جعله يُحسُّ بإثارة صغيرة سرعان ما تبدَّدت. صورة الفدائية التي تملأ مخيِّلته، تحول بينه وبين الشعور بها كأُنثى، لها رغبات، وتُثير رغبة الآخر فيها. وراقب البقية يُعرِّضون أنفسهم لاندفاع التَّيَّار الهوائي من المروحة، تقع في ركن الحجرة الواسعة، ويحتسون أشربة متنوِّعة، وخطر له أن يسأل سناء عن نضال، ثمَّ تراجع خشية أن يُكدِّر خاطرها.

إلى الآن، وبعد أعوام طويلة من رحيله، لا أعرف لماذا لفَّني ذلك الشعور بالعَتَه، أفقدَني القدرة على القراءة. سمع صلاح بقطاش يتكلَّم، يواصل ما ظنَّ أنه استمرار لنقاش، فاتتْهُ بدايته. وسألت سناء: لكنْ، لِمَ سألكَ أبوكَ أن تقرأ له سورة يوسف تحديداً، وليس سورة أخرى؟ لم أعرف، صدِّقيني، ردَّ بقطاش، وشمل الجميع بنظرة خلت من أيِّ تعبير. في وقت لاحق، خطر لي أن والدي كان يرغب في أن يدنو من الإيحاء الجنسي في السورة. أو أن يقترب من افتتان امرأة ذات جاه وجمال، بشابٍّ فقير، لكنه وسيم جاء من البدو. ولربَّما اعتراه فضول لمعرفة إلى أيِّ مدى يمكن للإخوة أن يتحوَّلوا أعداء، أحدهم يبغض الآخر، وما الذي يدفع عاطفة الأبوَّة إلى أن تغمر ابناً، فيما تطرد البقية خارجها. وأنهى كأسه بجرعة طويلة واحدة. ومدَّ له عبَّاس بحفنة مقشَّرة من فستق مملَّح، تبقَّت منه كمِّيَّات صغيرة في

أكياس، طُبع عليها اسم المحلِّ وعنوانه في المدينة العربية، التي ينتمي لها الوفد الشُّيوعيُّ الذي حلَّ ضيفاً لأيَّام في هذه الفيلَّا، قبل أن يغادر أمس. توقَّفت أضراسه عن طحن الحبيبات، ومُبقِياً على الطعم الفاخر في فمه، واصل قائلاً: ليتني استطعتُ أن أقرأها له حينها، ربَّما عرفتُ السِّرَّ وراء طلبه إيَّاها. ومرَّة أخرى تمتدُّ له يد عبَّاس، لتُناوِلَه هذه المرَّة قارورة ويسكي، تبقَّى فيها ربعها الأخير، وهو يقول مفسِّراً عدم استطاعة بقطاش قراءة سورة يوسف لوالده: لم تقدر أن تكون في وقت واحد شيوعياً ومُمسِكاً بالقرآن، تقرأ لوالدكَ سورته المفضَّلة، أليس كذلك؟

لم يردّ بقطاش مباشرة، وذهب للقول فيما يداه تُصلحان القبَّعة، التي تشبه قبَّعة جيفارا، فوق رأسه، إنه ما إن دخل المنزل يومئذ، حتَّى فاجأه أبوه وهو يحمل المصحف، ويتفوَّه بذلك الطلب الذي عقد لسانه. لم أدرِ ما التَّصرُّف الملائم ساعتها، فجمدتُ في مكاني، وكنتُ أحسُّ نظرات أبي تُطوِّقني، ولا جرؤتُ على مبادلته النظر. والتفتُّ إلى عبَّاس، وأضاف: مَنْ يدري، لعلَّ ما قلتهُ لا يجافي الصواب. وأخبرهم أن ردَّة فعل أبيه، الذي مات في سنٍّ دون الخمسين بالسِّلِّ، لم تنمّ عن خيبة، إنما قدر من التَّفهُّم، هكذا ظنَّ الأمر.

سحبت سناء سلَّة بلاستيكية صغيرة، بها فاكهة قليلة وخيار وفلفل أخضر وأغصان نعناع، لكنها اختارت ليمونة خضراء، وفركتها برفق بين راحَتَي يَدَيْها، ثمَّ كشطت رأسها الرقيق بطرف السِّكِّين، وبينما تمصُّها ببطء، يروح

الطعم الحامض ينعكس خطوطاً تتعرَّج على وجوههم، هم الذين يُركِّزون بصرهم الآن عليها، ثمَّ أنصتوا لها تقول وهي تكزُّ على أسنانها: في كل مرَّة أنجو فيها من موت فعلي، كأن تُخطئني رصاصة قنَّاص، أو أصل متأخِّرة قليلاً على تفجير حدث للتَّوّ، أو لا أكون موجودة كما حدث في مجزرة شاتيلا، كنتُ أحبُّ الحياة، كما لو أنني اكتشفتُها في تلك اللحظة، وأقول لنفسي بعدها، سأقصُّ شَعْري، وأجعله قصيراً، وسألبس ألواناً زاهية، وسأمارس هوايات بعينها، وسأذهب إلى الأماكن الفلانية، لأُمتِّع نفسي. وبمجرَّد اعتياد العيش ثانية، تتلاشى الحياة التي اكتشفتُها وأحببتُها، وبالتالي تتباعد رغباتي تلك بسبب انهماكي في أشياء أخرى، تتوالى بصورة يومية، حتَّى أخال حياتي اليوم حياة معطَّلة إلى حين، وأحياناً ينتابني شعور بالذعر، أنني لم أعشْ حياتي بعد.

من خلال ارتدائها في معظم الأوقات الملابس الخشنة للمجنَّدات تتوخَّى سناء، النأي بجسدها عن صورة الأُنثى وإغرائها. تُفتِّش عن صورة أخرى، مثلما ردَّدتْ مراراً على مسامعهم، لا تقول الفلسطينية المغتصبة، تبعاً لاغتصاب أرضها، إنما تبتكر شخصية تقاوم كل الصور حولها. أصلحتْ من جلستها، اختارت وضعية مرتاحة، وحلَّت زراراً في البلوزة الباهتة اللون، كأنَّما شعرت بالحَرِّ، فلمح الجميع اللون الرّماديّ لأطراف حمَّالة الصدر.

النجاة من الموت في أجواء الحرب، لا تعني أن الناجي حَيٌّ. قال بقطاش، ورشف من كأسه الذي يمسكه بكلتا يَدَيْه،

وكشَّر عن أسنانه، كما لو أن الشراب أقوى من أن يحتمله. فقط تطيل النجاة أمد الانتظار. كلنا شاهدْنا أحياء خرجوا من دمار الحروب، إلَّا أنهم كانوا أمواتاً، ماتت أجزاء واسعة من ذاكراتهم، انطفأت شعلة النار التي كانت تُنير حيواتهم. وطغى صوت الموسيقى، مقطوعات مرتجلة لعود، يبدو كأنَّه مجموعة آلات وترية، فاستسلموا لها. في أثناء ذلك تبادلوا النظر إلى بعضهم البعض، ثمَّ انزلقت نظراتهم تتفقَّد الفيلَّا التي يدعوهم إليها صلاح، كلَّما خلت من وفد أممي، يتوزَّع أفراده بين فندق الروك، الذي تحوَّل اسمه بعد الاستقلال إلى 26 سبتمبر، ودار الضيافة وهذه الفيلَّا، التي ينعمون فيها الآن باحتساء ما يخلِّفه الوفد وراءه من أنواع جيِّدة من الخمور، ويجرِّبون تدخين بقايا السيجار مع سجائر إمبريالية أخرى، مارلبورو، كنت، وروثمان. كل ذلك يتركه خلفهم الرفاق الأكثر كلفة، كما تقول عنهم سناء، هؤلاء الذين يزورون عدن بين آن وآخر، تارة ليشاركوا اليمنيِّيْن خبراتهم، وأحياناً لتحصيل امتياز في مجالات الاستثمار المفتوحة للرفاق والدول الصديقة، وبين هذه وتلك يأتي بعضهم باعتبارهم آباء تاريخيِّيْن في محاولة للصلح بين قيادات الحزب، عند أيِّ خلاف ينشأ لسبب أو آخر.

نهضت سناء، ودخلت المطبخ. وقام عبَّاس وراءها، لكنْ، ليُعيدَ تشغيل المسجِّل، فتدفَّقت هذه المرَّة موسيقى لأُغنيَّة عراقية، إلَّا أن أحداً لم يتفاعل معها. بدت الأُغنيَّة أشبه بالنحيب، فعاد وبدَّل الكاسيت بآخر، وسرعان ما دبَّ

الطرب في أوصال الجميع، وراحوا يتمايلون ويردِّدون مع المغنِّي: يا نجمة عونج يا داده عونج يا نجمة. متعليه وتشوفي يا داده النوب. شينيمه قلبي شينيمه. نامت قلوب الناس يابا. وبدا أن الأُغنيَّة تدفع عبَّاس دفعاً لأن ينفرد بنفسه، هو الذي يرغب في انتزاعها من كل شيء، ويبقى وحيداً. لكنه لم يقدر النأي بنفسه عن البقية. باتت ليالي سمرهم في الفيلَّا تعني له شظايا من حياة مختلفة، غير تلك التي يزاولها طوال نهاراته ولياليه. تقتلعه الفيلَّا من جوٍّ عراقي مسكون بالريبة، يعيشه في شُقَّة صغيرة، تبعد عدَّة كيلوات من هنا، رفقة عراقيِّيْن آخرين، أو في المدرسة التي يذهب إليها مشياً، ويعلّم ويختلط فيها رغماً عنه بعراقيِّيْن أيضاً زملاء له، وتردّه إلى مزاج يفصله عنه ما يزيد على سبع سنوات، خالطتْهُ أهوالٌ رهيبة، وتلوَّن بصخب الرفاق وزهوهم، وبأحلام لم تبدُ مستحيلة آنئذٍ. لذلك هو يتوق إلى هذه الليالي، وينتهز الفرصة، أحياناً، ليستأذن من صلاح، ويبقى في الفيلَّا بعض الوقت وحده، وأحياناً ينام إلى الصباح. ويعلو صوته بالأُغنيَّة، متقمِّصاً الصوت العذب لحسين نعمة: أنا بحلم لو يمر تاخذني فرحة عيد. انصب مراجح وادق للي الخلا يزيد. وما ريد جية الفجر خافن جفانة يعيد. يا نجمة ريت العشق ياخذنه لمدى بعيد. يا نجمة. ويرفع كأسه، ويومئ لصلاح، بإشارة امتنان.

يبتسم صلاح، ويهزُّ رأسه، ثمَّ يقطع ابتسامته، لينظر وراءه، كأنَّما ليرى كم هو طويل المشوار الذي قطعه،

حتَّى وصل إلى ما أضحى اليوم عليه. ها هو يسمر مع رفاقه في هذه الفيلَّا، التي استولى عليها الثُّوَّار بعد الاستقلال، مع غيرها من فلل وبنايات شيَّدها البريطانيون ومُلَّاك مصارف وشركات أجنبية، في منطقة معاشيق وخور مكسر والمعلا. يسكنه عميقاً ذلك الرِّيفيُّ الذي ظنَّ أنه هجره إلى الأبد، بمجرَّد أن بدأ التَّرقِّي درجة فأخرى في سلَّم الحزبية. إلَّا أن هذا الرِّيفيَّ يعود ويُطلُّ برأسه، فكلَّما سعى للتَّخلُّص منه يفشل، ثمَّ يحاول ويفشل ثانية، ويبقى في محاولات بلا كلل، حتَّى أضحى من الممكن تكثيف وجوده كله في هذه المحاولات.

لعلِّي أفعلها يوماً. قال بقطاش بحزن خفيف يغلِّف نبرته، فيما يدفع كأساً بها قليل من النبيذ صوب سناء، مشجِّعاً إيَّاها على قبوله. واتَّجهت الأنظار إليه. أن أعود إلى وهران وأقرأ سورة يوسف على أبي. وصدَّتْهُ سناء، رافعة قدح القهوة الذي صنعتْهُ للتَّوِ إلى أعلى، وهي تقول إذا واصل الإسلاميون اكتساحهم كل شيء، ستستطيع قراءتها. وضحكت، مفتعلة جوَّاً من المرح. انقطعت الكهرباء، وساد الظلام. تحوَّلت الفيلَّا، على الفور، إلى جحيم، فهرعوا إلى الشرفة. لدقائق كان الجوُّ مكتوماً، وما لبثت أن اخترقتْهُ هبَّات من هواء منعش. وراقت لهم الفرجة من مكانهم، على هذا الجزء من المدينة. يتفرَّج صلاح مثلهم، وتتبدَّى له البنايات الكولونيالية من هنا أوضح ما تكون، وهي تأخذ أماكنها فوق تلال، تُشرف مباشرة على البحر.

2

مذكّرات، أريدكَ أن تكتب لي. باحت أخيراً بما تريده منه. في الأثناء أخذت تراقب غراباً يمضي وقته في افتعال حركات مرحة، وراء الشباك الحديدية للنافذة، فيما بقي صلاح يجهد في فَهْم ما تفوَّهتْ به، وبدا مثل مَنْ يلج متاهة معصوب العينَيْن، وتأخذ أنفاسه تضيق. وتساءل في سرِّه، إن كان هذا ما أرادتْهُ منه، حين سعت للبحث عنه بالاسم، ثمَّ تردَّد طويلاً قبل أن يعزم أمره ويأتي إليها. كانت قد طلبت من الرجل الذي كأنَّما لم يعش بينهم، أن يرسل إليها شخصاً مقبولاً وغير ثرثار. مقبول، معناها أن تقدر على احتماله، أمَّا الصفة الأخرى، فتعني أنه لن يتحدَّث عمَّا يواجهه عندها.

لكنني أجد نفسي غير ملائم... ولم يستطع أن يُكمل. أراد أن يُفهمَها أنه يجهل تماماً هذا النوع من المهامّ، وأنه لو كان يعرف سلفاً أن جياب اقترح اسمه عليها لهذا السبب، لما تردَّد في الاعتذار رغم صعوبة ذلك، فهو إن كان قبل وذهب إليها، فلأنه عدَّ ذلك نوعاً من الوفاء لرئيسه السابق، في الدائرة التي يعمل بها. وكانت مرَّت شهور على اختفائه.

"شعبي الحبيب"، هكذا كان يبدأ خطاباته التي يرتجلها، كما لو كان زعيماً، بوجهه الوسيم وإطلالته الجميلة. يُنصت لها تتكلَّم عن جياب فيما تروح تتأمَّل صورة له، يجلس فيها فوق الأرض، قدَّامه أوراق وما يشبه تقارير، دون أدنى

اعتبار لمحاولته التَّملّص من المهمَّة التي تريد منه تولِّيها. عندما يبدأ الكلام، أضافت بصوت بارد، يكون كَمَنْ يجهد في سماع صوته، ينطلق كلامه كأنَّما من غير نقطة معيَّنة، حتَّى يقبض تدريجياً على صوته. يعشق هو صوته ويدرك كم أنه يتغلغل في صميم الجماهير، ويؤثِّر فيها. أفكِّر اليوم أنهم لم يتركوا له فُسْحَة من الوقت، ليُناور. هو حتَّى لم يرَ كيف أصبحت قَدَمَاي. تحني ظهرها الآن، وتغرز أصابع يَدَيْها بشدَّة أسفل ركبَتَيْها، وتدفعهما للانزلاق أكثر. لشدّ ما يعكِّر حياتها ويزيد في ألمها، تصوُّر أنها لن تراه ثانية.

يستنشق صلاح رائحة عطر، كان قد تبادر إلى ذهنه بعد زيارَتَيْن تقريباً، أنها تحبُّ أن تُبقي نفسها مغمورة بروائح زكية. ثمَّ يسمعها تسأله إن كان كابد بعضاً من تلك السنوات القلقة؟ ولمَّا لم يُجبْها بلا أو نعم، لأنه كان يجهل عمَّ تتكلَّم، راحت تقول إن الأعوام التي أعقبت الانتصار على الإنجليز، كانت تشبه كابوساً رهيباً بلا نهاية. كان زمناً بين حربَيْن طاحنَتَيْن، الأولى ضدَّ الاستعمار، والثانية التي لا تزال مشتعلة ضدَّ بعضهم البعض. كانت البلاد كلها تصحو وتغفو على وقع الأناشيد الثَّوريَّة التي تُمجِّد الثُّوَّار. اللحظات تمرُّ بطيئة مشحونة بالتَّوتُّر والقلق. والجميع يتعجَّل تحقُّق الوعود للعبور إلى حياة الرفاه والحُرِّيَّة. دفعُونا أيَّامها لابتكار عروض في تبجيل الثورة وقياداتها. مَنْ لم يتوضَّح انتماؤه للجبهة القومية أو جبهة التحرير، عاش منبوذاً من الطَّرَفَيْن. ثمَّ ما لبث أن هيمنت الجبهة القومية، وتفشَّت الوشاية، وانتشر كُتَّاب التقارير.

مدرسة كاسترو، مدرسة سالمين، مدرسة لينين، مدرسة بدر، مدرسة النجمة الحمراء. معهد باذيب للاشتراكية العلمية. اتِّحاد شباب اليمن الدِّيمقراطيّ. معهد النقابات العمَّاليَّة. صوت نوال تتلو التقرير الشَّهريَّ، نهار اليوم، يكتسح الآن ما تتفوَّه به نورا، يستعيده بلا سبب واضح. لم يُلزِم صلاح نفسه بتتبُّع المدارس والمعاهد مدرسة مدرسة ومعهداً معهداً، وما استجدَّ في وظائفها ومهامِّها أو كم بلغ عدد الملتحقين بها. أعطى نفسه فُسْحَة، ليتأمَّل هذا الصوت الرقيق، تخالطه بُحَّة خفيفة، وحسرة لم تتلاشَ، رغم أن حادثة الطائرة التي تفجَّرت وهي في طريقها إلى إحدى المُدُن، وقُتل كل مَنْ فيها من خبراء ودبلوماسيِّيْن، مرَّ عليها وقت طويل. ونظر مباشرة في وجهها، كَمَنْ يراه لأوَّل مرَّة، أبيض بمكياج خفيف، وشَعْرها كثيف، يشقُّه خطٌّ في المنتصف، بينما تلبس جاكيتاً زهريَّاً من قماش خفيف، على بلوزة بياقة بيضاوية، وتنُّورة تنتهي فوق الركبة تماماً. تجلس نوال، وتتَّكئ بمَرفِقها الأيمن على حافَّة المكتب، وتمسك بالأوراق، وكلَّما انتهت من ورقة، وضعتْها جانباً.

اختلس صلاح نظرات أخرى إلى وجه نوال، وبدت له، على العكس من أيِّ يوم آخر، مثالاً للأرملة التي تطوِّق نفسها بمشاعر ملتبسة. عرف باكراً أنه غير قادر على التعامل معها، بلا تلك الصفة التي التصقت بها: أرملة رجل قُتل في حادثة الطائرة التي ما يزال الغموض يلفُّها.

حين انتهت من قراءة التقرير، جمعت أوراقه، وبينما أصابعها تتحسَّس الملمس الكرتوني للملفِّ، الذي أخرجت منه الأوراق، سألتْهُ إن كان يريد أن تُسلِّمه نسخة منه أم تأخذها معها؟ بقي صامتاً، كأنَّما لم يُرد أن يخدش جلال اللحظة، التي صنعها حضور هذه المرأة، التي لا يراها كثيراً، وطالما عبَّرت في تصرُّفاتها ومواقفها، عن هدوء لا مثيل له في مواجهة ما يجري، بين حين وآخر، من صراع. أخيراً، اكتفى بمدِّ يده باتِّجاهها، فناولتْهُ التقرير، ومضت عائدة إلى مكتبها.

لم تفه نورا بكلمة واحدة زيادة على ما قالتْهُ عن تلك المهمَّة، كما لو أن أمر كتابة تلك المذكّرات حُسم، بمجرَّد ما كشفت عنه. وبقي صوتها يتردَّد في مسامعه، يتغلَّب على الموسيقى التي تسمعها، وجال في باله أنه يخصُّ امرأة، تفقد تدريجيَّاً المعنى لحياتها. يرى المنزل يغرق في إضاءة شحيحة، وأراد الرحيل، لكنْ، لم يظهر عليها أنها ستسمح له. نهضت من كرسيِّها، وأخذت تتمايل بمشقَّة إلى النافذة، وأسدلت الستارة بحركة واحدة خشنة من يدها. لم تعد تحبُّ هذه اللحظة من النهار. ترتدي ثوباً فضفاضاً بكُمَّيْن طويلَيْن، فيما ظهر شَعْرها منفوشاً بصورة مغوية. خدَّاها منتفخان قليلاً، وشفتاها كذلك، أمَّا عيناها، فعليهما آثار نوم.

وهي تعود إلى مقعدها، لفَّتْها ضوضاء تأتيها من بعيد، عابرة زمناً ما عاد ممكناً تركه وراء ظهرها، إذ يوجد في حياتها اليوم ما يضغط عليها لتتذكَّره، من مقهى كانوا

يجلسون في شرفته، التي تطلُّ على ساحل أبين، ويراقبون الشمس تغطس في بركة من اللهب الأحمر. من الشاطئ خلف بناية قولد مور، تراها تضرب بأطراف أصابعها الرمل الناعم، يلتصق بجسدها المبتلّ، الخارج لتوّه من البحر، قبل أن تجلس وتلفَّه بمنشفة وردية، لها وبر غزير، وتجفِّف شَعْرها بطرف منها، فيما تنظر إلى أجساد شبه عارية، لأوروبيات وأوروبيِّيْن، تسحب نفسها أيضاً من المياه الزرقاء المنعشة، بعد سباحة طويلة، استعداداً لسهرة عاصفة. من رصيف أمير ويلز، حيث أعمدة الإضاءة تترك أنواراً رائقة، تخفِّف قليلاً من البخار الساخن لبقايا نهار جحيمي، وحيث تسير خلال طريق أُحاديٍّ عربات مكشوفة، وتظهر فتيات بصدور وأذرع عارية، تلمع في الليل بالفتنة. يبتاعون الآيس كريم في شكل كرات ملوَّنة، ثمَّ يجلسون في مواجهة الميناء، يتلذَّذون بمذاقه ونكهاته المتنوِّعة، ويتفرَّجون على سفينة عملاقة تتوهَّج من بعيد، مثل كوكب عائم. وخلال الأضواء التي تغمرها، يلمحون سيَّاحاً، يهبطون منها، ثمَّ يصعدون قوارب صغيرة، تنقلهم إلى الرصيف، ليتيهوا في داخل المدينة وليلها.

ويدور في خَلَدها أن عدن نأت كثيراً عن البحر، أو أن البحر طوى أمواجه وسفنه العملاقة، وانكفأ على نفسه. زفرت دخان سيجارتها، وشخص بصرها إلى إحدى صور جياب، الوجه فقط مرسوم بألوان مائية. تكاد لا تتعرَّف عليه جيِّداً في هذه الصورة، تسيح فيها ملامح وجهه وتداخل تفاصيله. قبل أيَّام قليلة من آخر مرَّة رأتْهُ فيها،

ردَّد أمامها، بنبرة هي مزيج من الزهو والتَّذمُّر: كما لو إننا قدمنا من كوكب آخر. قطيع من شباب، يعانون إفراطاً في الحماسة، عبثوا بالتاج البريطاني، ولن يتوانوا في العبث بكل ما حولهم. هكذا يجول في بال مضيفينا، كلَّما ذهبنا إلى الخارج في زيارة رسمية.

تحدِّق الآن في منضدة من نحاس، في هيئة امرأة تحمل صحناً مستديراً فوق رأسها، لها رفٌّ سفليٌّ، عليه مرآة دائرية صغيرة بعصا من عاج، ودفتر منفوشة أوراقه من كثرة ما فتحتْهُ وأغلقتْهُ، وألبوم صور، وقلم حبر بلا غطاء، وآخر رصاص، وعلبتا دخان مارلبورو أبيض، بجوارهما منفضة سجائر وقدَّاحة. وكأنما تذكَّرت أنها مشت قبل قليل على قَدَمَيْها، تروح تتفقَّدهما دون أن تنظر إليهما، تترك يَدَيْها فحسب، تجوسان ركبَتَيْها، وتنزلقان ناحية أعلى الساق.

لفترة طويلة ظلَّت لا تقوى على النظر إلى قَدَمَيْها. وعندما كانت الرغبة تُساوِرها وتُلحُّ عليها، فإنها تفعل بأقصى ما تستطيع من سرعة، لكنْ، يكفيها لتشعر في البُرْهَة نفسها بشفرة سكِّين، تتلهَّى بتمزيق أنسجة في داخلها، وتخال نفسها تغيب عن الوعي. في واحدة من تلك اللحظات، كانت تحتاج ربَّما إلى قَدَر أسطوري من الجرأة، طاقة تحمل مثالية، لتستطيع أن تنظر إلى قَدَمَيْها اللَّتَيْن بقيتا، منذ ذلك الحين، تختفيان في أربطة ناعمة، وتضع أسفلهما بين يوم وآخر وسادة من الريش أو قطن ناعم.

في الدائرة التي صُمِّمت لتكون شبيهة في كل شيء، بأخرى تتبع الحزب الشّيوعيّ الرُّوسيَّ، يتصوَّر صلاح نفسه أحياناً ألكسي بيتروف، الذي أحدث فارقاً جوهرياً في علاقة بعض دوائر الحزب الشّيوعيّ الرُّوسيِّ، بأطراف أممية تنتمي إلى أصقاع مختلفة، وهو مَنْ جرؤ، وإن كان على سبيل الدعابة، أن يقول لبريجنيف، كما أُشيع، إن اكتمال جسد الإنسان يمرُّ عبر التراب، أي مآله الفناء مهما طال في العمر. استطاع صلاح أن يقترب منه عندما زار عدن، لحضور مؤتمر الحزب الأوَّل. راقت له الشعيرات الكثيفة في منخرَيْه، حتَّى لتشتبك مع شاربه الكَثِّ. الكثافة نفسها في الشَّعْر الذي سيراه يغطِّي يَدَيْه حتَّى تُخفي الشريط الجِلْدِيّ للساعة حول معصمه. لم يُخامره شكٌّ أنه هو نفسه نسخة مقلَّدة منه، كما هو الحال بالنسبة إلى الدائرة التي يعمل فيها، لكنْ، من دون شَعْر كثيف، إذ لا يمرُّ يوم من دون لقاء بخبراء ومُنشقِّين ومناضلين، روس وكوبيِّيْن ويابانيِّيْن وألمان وإيطاليِّيْن وعراقيِّيْن وفلسطينيِّيْن ولبنانيِّيْن وسوريِّيْن وسواهم.

في أزمنة أضحت بعيدة، كانت عدن تهتف باسمه، تستدرجه إليها، ليترك ريفه الشحيح في كل شيء. غير أنه ما كان يقدر على زيارتها، وإذا ما تحقَّق له ذلك لا يمكث سوى أيَّام قليلة، ثمَّ يطوي طريقه راجعاً. وبعد أن غادرها الإنجليز، لم ينتظر أن تهتف عدن باسمه، إنما أنصت إلى نداء يصرخ في داخله، ينادي كل ما كان رآه منها، كل ما لم يشبع منه، فامتثل له وجاء.

خلل ساعات الدوام يروق له، بين آنٍ وآخر، النهوض من مقعده، والسير بهدوء حول مكتبه، ثمَّ صوب الباب، كَمَنْ يروم الاقتراب أكثر، من حديث يدور بين أكثر من شخص، خلفه. لا يسمع شيئاً، يترك الباب خلف ظهره، ويمشي خطوات قليلة ناحية النافذة المستطيلة، يفتحها، فتندفع غربان، تهجع بالقرب فوق حافَّة عريضة، ثمَّ يرى البنايات نفسها بألوان شاحبة على خلفية داكنة، تتكوَّن من تلال جرداء برؤوس ناتئة نتوءاً جارحاً، وفي البعيد، يستطيع تمييز فيلَّات صغيرة كانت تحظى بلون أبيض، تحوَّل، بمرور الوقت، إلى لون كالح بلا هوية. إلى أقصى اليسار، ستتلامع مياه البحر، وسيرى الميناء مقفراً.

يعطي ظهره لكل ذلك، وينظر إلى فوق، حيث نهايات الجدار، الملاصقة للسقف، تبدو كالحة. اليوم تحديداً عاودتْهُ رغبته في خاتمة، تليق بكادر في حزب، تحكم قبضته طول البلاد وعرضها. ولم يدرِ لماذا بدت له سحيقة، كأنَّما وُلدت معه. وأوشك أن يتكدَّر خاطره، فعاد وجلس خلف مكتبه، وانحنى وفتح الدرج إلى يساره، مدفوعاً مثل كل مرَّة بشعور ملؤه الحماسة، ويروح يمدُّ يده حتَّى اصطدمت بالنهاية الخشبية، وأخرج عدداً قديماً من صحيفة الإزفيستيا. يتصفَّحه قليلاً، يطالع العناوين العريضة. كانت الصحيفة الرُّوسيَّة نشرت صورة للقاء، يجمع مبتعثين يمنيِّيْن برئيس معهد لينين، وكان هو ضمنهم، لم ينطقْ بكلمة يومئذٍ، يتذكَّر المشاعر الغامضة التي لازمتْهُ طوال اللقاء مع الرفيق الكبير، الذي كان يتكلَّم إليهم، وكأنَّما هم

ليسوا مجرَّد حفنة من الطّلَبة درسوا هناك مدَّة أشهر قليلة، إنما أبطال تاريخيون لن يلبثوا أن يعودوا ويُغيّروا خرائط البلاد بالكامل، فبقي محتفظاً بالعدد.

أعاد الصحيفة إلى الدرج، ولن تخرج يده خالية، إذ ستحمل كتاباً صغيراً، عبارة عن منتخبات، صنعها لنفسه من كُتُب لا غنى عنها لأيِّ حزبيٍّ، يتوق إلى تشرُّب إيديولوجيا الثورة والحزب. يقرأ قليلاً في صفحة تتحدَّث عن النضال ضدَّ الطَّبقيَّة، ويقفز ليقرأ عن النقاء في العقيدة الاشتراكية، عن طاعة القائد. يترك كل ذلك، ويُخرِج من درج آخر أوراقاً تخصُّ مؤتمرات الحزب، يقلِّب فيها، وجعل يقرأ بصوت خفيض: إن الأساس النظري للحزب هو نظرية الاشتراكية العلمية، التي تجسِّد المعارف الطَّليعيَّة في ميادين الفلسفة والاقتصاد والاجتماع والسياسة. وتُشكِّل مرشداً للعمل، يغتني دائماً بمنجزات العلم، وبتجارب نضال الكادحين في بلادنا، وفي العالم أجمع". يسرح قليلاً، ويرفع بصره عالياً، كَمَنْ يتدبَّر معاني ما قرأ. تصطدم نظراته بآثار قَدَم، وما يشبه الوسخ في الأطراف من سقف الحجرة. ثمَّ يخفض بصره، ويُعاوِد القراءة: إن وحدة الحزب الفكرية والسِّياسيَّة والتَّنظيميَّة هي أساس قوَّته ومصدر قدرته الكفاحية والضمانة الأكيدة لنجاحه في قيادة الطبقة العاملة وحلفائها. وتتنافى النزعات التَّكتُّليَّة والشّلليَّة والقبليَّة والإقليميَّة مع مفهوم الحزب الطَّليعيِّ... وبهدي من هذه المنطلقات يخوض الحزب نضالاً حازماً، ضدَّ كافَّة

النَّظريَّات المعادية للاشتراكية العلمية وضدَّ كل الانحرافات اليمينية واليسارية.

أكثر ما تكون حاجة صلاح مُلحَّة لمطالعة مختاراته، من كُتُب الشّيوعيّيْن البارزين، عندما يكون مَدعوَّاً للاجتماع في دائرته. حينها لا ينصرف فكره سوى إلى نزول سُلَّم لولبيٍّ، محاط بجدران ذات طلاء قديم، يتعرَّج إلى أن يشعر بأنفاسه تتثاقل، وبقَدَمَيْه منهَكَتَيْن، ثمَّ يسلِّم نفسه لممرَّات ضيِّقة، رطبة وتفوح برائحة عفن خفيف، وصولاً إلى قاعة مستطيلة تطلُّ على باحة مسيَّجة بأسوار عالية، من خلال نوافذ طويلة تشبه أبواباً. طوال الاجتماع يشغل نفسه بالتفكير، في صعود السُّلَّم ثانية. يخطر له دوماً أن هذا المكان ليس سوى سرداب، ويمكن أن يتحوَّل في لحظة إلى مكان للاختباء أو للإخفاء. عقب كل جولة من القراءة سيُنحِّي الأوراق جانباً، ويطبِق غلافَي الكتاب، ويضمّه إلى صدره، كواحد من أكثر الأشياء قداسة في حياته، ويعيده إلى الدرج بكل ما يستطيعه من وقار.

يرمق صلاح نورا بنظرة فارغة، وشعر بتورُّطه في مسألة، لم تخطر له في بال، ما عساه أن يفعل أمام إصرارها أن يكتب هو مذكّراتها؟ هو لا يريد خسرانها. زياراته المسائية المتكرِّرة لها بدأت رويداً تُحدِث تغييراً في حياته. البارحة حلم بها، بجسدها وبقَدَمَيْها سليمَتَيْن. كانت ممدَّدة على الشاطئ، مغمورة برغاوي بيضاء، كان يمشي جهتها وئيداً. وركاها متلاصقان أحدهما فوق الآخر، وساقاها منفرجتان عند أطرافهما، فيما جذعها يفترش

الرمل، وكانت تنام على خدِّها الأيسر، وشَعْرها ينتشر حول وجهها في خصل كبيرة، كَمَنْ بوغت بضربة غادرة.

وتكلَّم لدقائق، لكنْ، ليس عن المذكّرات، إنما عن جياب، إذ كانت ترجَّتْهُ أن يتحرَّى، قدر الإمكان، الحقيقة وراء اختفائه. وقال إن لا أحد يريد التَّورُّط في السؤال عنه، حتَّى بعد مرور كل هذه الفترة. رأى حركة، أو هكذا تصوَّر، تندُّ عن رأسها بينما كان يتكلَّم، ثمَّ لمح أصابعها وهي تمرِّرها فوق ذقنها، ولم يسمعها تنطق بكلمة.

3

وهو يُنصِت لنورا لا يشعر صلاح أنها توشك على الكشف عن فصل من حياتها، يكتنفه الأسرار، وأن عليه الحيطة منذ الآن. فهو قد تأكَّد له قبل ذلك أن مجرَّد دخول جسمه فقط متراً واحداً بيتها، معناه أنه أضحى متورِّطاً بالكامل، وساعتها لا يعود يُجدي أيُّ حذر. ويبقى يستدرجها بصمته، وسيرى لاحقاً، إن كان يمكنه العثور على صيغة كتابة ملائمة، لينتظم فيها كل ما تحكيه له.

تلفُّ نفسها برداء واسع، خفيف وله لون زهري باهت. تمسك أصابعها بأطرافه، وجعلت تصنع منها عقداً صغيرة، ثمَّ تحلُّها وتعود إلى عقدها، ثمَّ حلّها ثانية، بينما تقول لصلاح، من دون أن تلتفت إليه إنها عانت شعوراً غريباً، كَمَنْ هو على شفير هاوية ارتكاب شيء فظيع، أو ارتكبه فعلاً، عندما وجدت نفسها مدار حديث بين زميلاتها

وزملائها في الفرقة، وتجاوز الأمر هذه الدائرة المغلقة التي تعرف حدودها جيّداً، إلى دائرة أوسع، تجهل أين ينتهي محيطها.

زيارة مع جياب إلى فنان أوركسترالي، تحوَّل لاحقاً، كما تردَّد، إلى موظَّف في شركة روسية مهمَّة، ولنفوذها مدى غير معروف، جعلتْها شخصاً يمكن الارتياب منه. المهمّ أن الأمر له علاقة باستيراد جهاز دقيق، بمساعدته يمكن تزوير جوازات السفر، تزويراً لا يثير أوهى الشكوك. كان ذلك في بداية شهر ديسمبر من تلك السنة، تتذكَّر جيّداً، فهي أوَّل زيارة لها لموسكو، وكانت المرَّة الأولى التي ترى فيها الثلج يحيطها من كل صوب.

حوَّلتْها تلك الزيارة للفور إلى مجرَّد عميلة لرجل بعينه في الحزب. أو على أقلِّ تقدير، شخص يعهد إليه بمهامّ ذات طبيعة حسَّاسة. مع أنها لم تُكلِّف نفسها عناء معرفة ما دار حينها في تلك الزيارة، فلقد انخرطت في الفرجة على خرائط غريبة الشكل، يمتلئ بها المكان الذي التقوا فيه، ورسمت بأكثر من لون على أنواع من الورق والجِلْد وحتَّى الخشب والزجاج، وبعضها في إطارات فخمة، معلَّقة على الجدران أو تنهض على حامل ثلاثي صغير، أو مسنودة داخل أرفف زجاجية. وكانت بين الحين والآخر ترمق، غير مصدّقة، من نافذة عالية، ندف الثلج تهبط بكثافة، وتشعر بالبهجة تغمرها وتُدفِئ عظامها. تعجَّبت لحظتئذٍ من هذا الولع بالخرائط، حَدَّ تحويلها إلى ما يشبه أشياء فريدة، تلفت النظر. وكانت ستسأل: خرائط ماذا هذه؟

بيد أن لا أحد كان في مَرمَى بصرها، إلَّا أنها لم تتصوَّرها لبلدان تعرفها أو سمعت بها.

يُنصِت لها صلاح ويفكِّر أنها تزجُّ به سريعاً في أشواكها، هو الذي لا يزال يعيش حالة من التَّشتُّت، منذ اللحظة التي كشفت فيها عن رغبتها. لكنه قرَّر الإصغاء لها بكل جوارحه، سواء كان سيستطيع كتابة مذكّراتها أم سيصعب عليه الأمر. في ذلك الحين سألت نفسها: كيف لم يحدث أنني لم ألعب ذلك الدور، الذي يظنُّونني قمتُ به؟ وَقَرَ في خاطرها أنها بمجرَّد تواجدها في لقاء له تلك السِّرِّيَّة الفائقة، هذا يعني أنها انخرطت في اللعبة. أحبَّت حينها أن تتورَّط في أمر كهذا. لكنْ، لماذا كانت مضطربة، لم تكن على منوال حياتها اليومية؟ لعلَّها تخشى تبعات الأمر، عندما سيبدو حقيقيَّاً.

زاره نضال اليوم، وقال إنه لا يرغب في التَّأخُّر عنده. وهو يتفادى النظر في وجهه مباشرة، فَهِمَ صلاح المغزى الذي تنطوي عليه كلماته. كان يجلس ويضع حافَّة جزمته، من جِلْد لونه بُنِّيّ محروق، فوق طرف الطاولة قدَّام مكتبه. يلمحه صلاح بطرف عينه يعيد إشعال سيجار، ويمجّ أنفاساً في المساحة الصغيرة بينهما. هو لا يقوم بزيارته أوَّلاً، يذهب مباشرة إلى مكتب رئيس الدائرة، ثمَّ سيمرُّ بعدد من المكاتب لتحية أصحابها، ومهما تأخَّر، فإنه يتعيَّن عليه المرور به. فيما مضى تمكَّن من القول لنضال أن لا داعي لمجيئه، وإنه يمكنه أن يرسل الرفيقة سناء، لتُتابع الطلبات، طبعاً لم يتمكَّن من قول ذلك من أوَّل وَهْلَة، احتاج وقتاً لأن

يمتلك الشجاعة، وينطقها أمامه. وفيما بعد تمنَّى لو أنه لم يقمْ بذلك، إذ راح نضال يعاقب سناء على اختياره لها، مع أنه لم يكفّ عن زيارتهم.

ببطء تتوالى رؤية نضال في صورة تهديد، لهذا السبب يسعى صلاح إلى تحاشيه، قدر الإمكان. بقيت علاقتهما تحافظ على مستوى معيَّن من الهشاشة، لا ينخفض درجة فيتلاشى ما بينهما من ودٍّ مصطنع، يفرضه الواجب الإلزامي للحزب الذي ينتمي إليه، اتِّجاه حركات التَّحرُّر الوطنية، ولا يتطوَّر إلى علاقة فعلية، يُغلِّفها الصِّدْق.

أخذ نضال نَفَساً طويلاً من سيجاره، ونفثه، وتكاثفت الأدخنة قدَّام وجهه، وعبق الجوُّ برائحة جذَّابة، وتثير الخشية في آنٍ. وقال بنبرة جافَّة:"هذه المرَّة، لدينا مهمَّة عاجلة". وكان ما يراه صلاح من ملامحه ينمُّ عن قسوة، كَمَنْ يقول له لا تنتظر أن أضيف أكثر من ذلك. ورآه يحدِّق في السقف، وشعور بالاشمئزاز يغضن تدرُّجيَّاً وجهه. يدرك نضال جيِّداً أنه لا ينبغي عليه الإفصاح عن مهامِّه، بيد أنه يعثر على متعة، من نوع فريد، في الإصرار على تمرير بعض الأسرار الصغيرة، خلال زياراته. وهو يروح يمسح بنظراته أنحاء المكتب، ككل مرَّة يأتي فيها، ولمَّا لم يلحظ شيئاً يسترعي انتباهه، بقي يحدِّق أمامه، متفكِّراً في أشياء كثيرة. كأن يعود إلى أماكن عاش فيها، تفوح بالرطوبة، ولها طعم العفن. في خضمِّ الحصار يرى الفدائيِّيْن يتعاركون بشراسة، بسبب إيديولوجيات وانتماءات سياسية. كان ينتظر بصبر فارغ

أمر الانتشار حتَّى يسبقهم، وأحياناً يستبق الأمر، ويمضي تحت القصف وغيوم الغبار. يفتِّش عن ناجين، ليسعفهم. يبحث عن مازوت للمولِّدات. عن أرغفة طازجة يُطعمها الجوعى. يوزِّع النشرات على المقاتلين. يساعد في بناء المتاريس. رأى رفقة النضال من أجل هدف مشترك، وغاية واحدة، تبدأ تدريجيَّاً بالتلاشي لمصلحة انتماء ضيِّق. في تلك الأثناء عاشر فدائيِّيْن من كل الفصائل، كان معظمهم، بالنسبة إليه، مجرَّد عبيد للشعارات والحضور الشَّخصيِّ للقائد، والعنف الطليق. اشترك في عملية خطف أجانب ومعارضين سوريِّيْن في لبنان لصالح النظام السوري، لكنْ، هذا شأن آخر، لا علاقة له بما سيؤول إليه. ربَّما احتاج وقتاً طويلاً، لينضج التَّحوُّل، ثمَّ ينفجر مثل الإعصار، ويأخذ في اكتساح كل شيء، حتَّى هو نفسه.

مالت نورا برأسها ناحية صلاح، وأخبرتْهُ، أنها لا تُصدِّق حتَّى هذه اللحظة، الشأو الذي بلغتْهُ علاقتهما معاً، جياب وهي. وأومأت برأسها مرَّات مع شعور بالزهو، كَمَنْ تمكَّن من تحقيق معجزة. أخذت تبوح أنها لم تعتقد أن تمضي العلاقة بينهما، إلى أبعد ممَّا تصوَّرته مجرَّد إطراء، يُحتِّمه بروتوكول المناسبات الرَّسميَّة. وتأخذ في تذكُّر لحظة جثت على ركبَتَيْها قدَّامه. كان جياب يجلس على مقعد بمسند واحد، ويضع رِجْلاً فوق أخرى. ثمَّ أنزل رِجْلاً، وباعد بين ركبَتَيْه، وتركها تتقدَّم إليه حتَّى كانت في متناوله، أمسكت يَدَيْه بوجهها، فتولَّتْهُ رهبة جرَّاء بياض الوجه، وذلك الغموض الذي تعكسه عيناها، مع ترفُّع لم يستطع أن

يجعلها تتنازل عنه، حتَّى وهي تجثو بين قَدَمَيْه. كان ذلك ربَّما ثاني لقاء يختلي فيه بها، فعرف ليلتئذٍ أن لا عودة من الطريق إليها. في المقابل، لم تكن تجهل هي هذا الشخص الذي احتضن يدها، حين نزلت الفرقة تُحيِّي كبار المسؤولين، في ختام مناسبة الذكرى الثانية لتأسيس الحزب، حضرها المغنِّي السّوفيتيّ رشيد بيبوتوف. ليلتها تاهت يدها الصغيرة في كفِّه الناعمة والدافئة، وشمَّت رائحة مدوخة لسيجار تدفَّقت من بين شَفَتَيْه ومن ملابسه. كانت تعرفه منذ ما قبل هذه اللحظة، لمَّا رأت وجه والدها يتحوَّل غيوماً سوداء، ويفتِّش عن أصدقاء الأمس، فلا يعثر على أحد يمدُّه بالعون، ليُبقوا له شيئاً من أملاكه التي تبدَّدت مع التأميم.

يعرف صلاح أن نضال لا يجهل رغبته في هتك سرِّه، لذلك يمضي هذا الأخير متغطرساً بأسرار مهمَّاته، التي هو يعرف، مع ذلك، أنها لم تعد سرَّاً، وأن بعضها شاع ولم يعد يجهله أحد، هو الذي يتنقَّل بين الفندق وفيلَّا في خور مكسر محاطاً بالشبهات، منذ أن اعتاد العيش فيها أشخاص من فنزويلا وألمانيا الشَّرقيَّة، وعناصر تنتمي إلى الجيش الأحمر. لا أحد يعرف شيئاً محدَّداً عن المهامِّ، التي يتردَّد أنه ينفِّذها تحت شعار "وراء العدوِّ في كل مكان"، الشعار الشهير للمناضل الذي أحبَّ الشوكولاته، وتسبَّبت في مقتله، حين نجح عملاء الموساد في دسِّ السُّمِّ له فيها. التقط نضال الشِّعار غير أنه وسَّع في مفهومه، فلم يعد هذا العدوّ، عدوّ الفلسطينيِّيْن، إنما يمكن لأيِّ امرئ يريد

الخلاص من عدوٍ شخصي، يلجأ إليه ويدفع الثمن. ألحَّ كثيراً أن يكون ضمن المسؤولين عن العمليات الخارجية، لكنه كان يصطدم بإصرار قادته على أن يبقى في عدن. في مرَّات يصدف أن يوجد مَنْ يتكلَّم، عن حادثة اغتيال، كانت لها تداعيات واسعة، لأن لا أحد عرف كيف حدثت. تفصيل من هنا وتفصيل من هناك، كَمَنْ يبني بناءً، ولأن البناء أحياناً يشوبه انحراف ما في زاوية، أو لا يتطابق مع تصوُّر صاحبه، هنا يتدخَّل نضال بقدر من المراوغة، فيدلي بتفاصيل تخصُّ الحادثة نفسها، وكأنها مجرَّد تخمين شخصي ليس أكثر. وفي أثناء الكلام، يروح يتلفَّت لا خشية من انكشاف أمره، إنما كَمَنْ يتلذَّذ بإعطاء مثل هذه التفاصيل، التي من المؤكَّد أن هناك مَنْ يجهلها. سيقول، على سبيل المثال: على الأرجح، انتحلوا هوية نزيل في فندق فينسيا ببيروت، الذي يقطن فيه الهدف، أو عرفوا سلفاً بوجوده في الغرفة رَقْم 107، مثلاً، فيتدبَّرون أمر المفتاح بالتواطؤ مع الروم سيرفيس، أو انتحال صفتهم، وسيدخلون الغرفة، بينما يكون الهدف في الخارج، ويبقون هناك، أو يقرعون عليه الباب في حال ما إذا كان في الداخل. وما إن يظهر حتَّى ينقضُّوا عليه، ويمكن أن يُنجزوا الأمر برصاصة واحدة قاتلة من كاتم الصوت، أو بسكِّين حادَّة تنحره من الوريد إلى الوريد. في حالات أخرى، قد يضطرُّون إلى استئجار غرفة ملاصقة، يعرفون سلفاً أن باباً يصل الحجرَتَيْن واحدتهما بالأخرى، ثمَّ بطريقة ما سينجحون في فتح الباب المغلق الذي يطلُّ على

غرفة الهدف، وبالطريقة نفسها ينتهي كل شيء. سيتشرَّب السرير دمه ببطء، وقبل أن يتنبه موظَّفو الفندق، ستكون جثَّته بردت، وتيبَّس الدم من حوله. وسينهي تخمينه بتحديقة واسعة، يركِّزها في وجوه الجلوس، مستمتعاً بما أثاره من بلبلة في نفوسهم، جرَّاء ما أدلى به. وانتبه له صلاح وهو يتملَّى في ساعة الأوميغا حول معصمه، أحمر بعظام بارزة وشرايين خضراء تتلوَّى. في جانب من الساعة، عند الحافَّة الدَّائريَّة، يوجد شطب يشبه الشعرة، ينتشر حوله ما يشبه نقطة بخار متجمِّدة، تخفي ما أسفلها، فلا تعود الرؤية الكاملة ممكنة. ويراه ينهمك، بلا فائدة، في إزالة الشطب بإبهامه، كأنَّما اكتشفه الآن.

سأنتظره. وعندما يعود سنسافر، لن نبقى هنا. لا يلتفت صلاح ناحيتها، يبقى يُنصِت لصوتها، يفتِّش فيه عمَّا هو مقدِم عليه من أمور، لم تكن في حسبانه. سنختار مدينة جديدة لنكتشفَها، مثلما كنَّا نفعل في غالبية البلدان التي زرناها. كان هو، بمجرَّد الانتهاء من الزيارات المجدولة، يختلق الأعذار، ويمضي بعيداً عن البقية، ووراءه بأيَّام سأجد الفرصة للتَّخلُّص من الفرقة، التي غالباً ما تشارك في الجولات الرَّسميَّة بعروض فلكلورية، وأنضمُّ إليه. من دون أن نكون تركنا خلفنا ما يثير الشكوك حول العلاقة التي تربط أحدنا بالآخر.

في المدينة التي نختار لا نترك مكاناً جميلاً إلَّا ونمرُّ وبه، سنركب القطارات، ونتريَّث طويلاً في محطَّات سكك الحديد، للفرجة على الرسوم فوق الجدران، لنسمع عزف

أو أغاني الشَّحَّاذين، نمتطي الباصات ذات الطابقَيْن، ونحتسي القهوة، ونأكل الدونات، ونحن نطوي الأرصفة، أو نحن نتسلَّق جسراً أو ننزل نفقاً للمشاة، سنتوقَّف طويلاً أمام فاترينات المحالِّ الشهيرة، لن نتطلَّع في ما يعرض خلف الزجاج، نبقى نحدِّق في وجهَيْنا، في وجه أحدنا الآخر، كالأطفال. وفي الليل فيما نُنصت لهسيس النار في المدفأة، ونشمّ الرائحة الدافئة للحطب، يكون هو قد كشف لي طوراً جديداً في صعوده من عامل صغير في مرفأ عدن، إلى شخص يرتدي بدلة سوداء بربطة عنق حمراء، ويلتقي، رفقة آخرين، زعماء المعسكر الاشتراكي، حاثَّاً إيَّاهم على دعم التجربة الوليدة، بكل السُّبُل.

سيأتي، لن يطول غيابه عنِّي. يعرف أنه لا طاقة لي على العيش بدونه. وسيكون سفراً لا غاية له سوى أن نكون معاً، واحدنا للآخر. ربَّما بسبب عدم السماح لي بالسفر، لازمني في الفترة الأخيرة حنين للمطارات ومحطَّات القطار ونداءاتها للمسافرين، لوَهْلَة ظننتُ أنني أُوشك على إدمان رائحة المسافرين، الضوضاء التي يُحدثونها عند لحظة المغادرة أو الوصول، التوهان الذي يتلبَّسنا حال وصول مطار، لم نطأه من قبل، أو حين ننزل محطَّة جديدة. ويراها صلاح تنخرط في مواجهة مع الصمت، فيما هي تحاول إخفاء شحوب يَدَيْها.ويخامره الظَّنُّ، في كل مرَّة تتطرَّق فيها إلى جياب، أنه لم يعرف تماماً هذا الرجل.

في كل مرَّة يزوره فيها نضال، يروح يُدقِّق في اللباس الأنيق الذي يرتديه: جاكيت من الجِلْد الأسود، في الياقة الكبيرة المكواة جيِّداً لقميص أزرق فاتح، بزرارين محلولين تكشف عن صدر نظيف وفسيح، وتظهر الإكسسوارات الفضِيَّة لطَرَفَي اليَدَيْن أسفل كُمَّي جاكيت الجِلْد، ولا يستطيع إلَّا أن يسأله: هل تشتري ثيابكَ من صامد؟ ويعني تلك المحالّ التي تتبع منظَّمة فتح، ويمكن العثور عليها في الشوارع التِّجاريَّة بعدن، وتبيع فيها فلسطينيات وفلسطينيون ملابس عصرية، بنطالونات جينز وقمصاناً على الموضة وجِزَماً إيطالية وألمانية. وبنظرة عمد نضال إلى شحنها بقَدْر من الاستخفاف، لا يمكن إلَّا ملاحظة كم أن هذا القَدْر مؤذٍ في نحو حادٍّ، تطلَّع في صلاح لبُرْهَة، ثمَّ حوَّل بصره عنه، ولم يُجبْهُ. من المؤكَّد، خطر لصلاح وهو يلعن في سرِّه كومة الغطرسة التي تجلس قدَّامه، أنه لا بدَّ يجلب هذه الملابس من الخارج، هو الذي ما إن تلوح له فرصة لترك عدن، حتَّى ينقضَّ عليها كالفارِّ من جائحة.

أضحى صلاح يعرف أن الأهمِّيَّة القصوى لوجود نضال، ليس سببها ذلك المعسكر في أطراف عدن. ونظر إلى السقف، وفكَّر في الديكور الكئيب لهذا المكتب، لا يزال يحتفظ بالطابع الهندي القديم، كما لم يتغيَّر الأثاث رغم مرور قرابة العقدَيْن على اندحار المستعمر. وأراد أن يُخبره وهو يمعن النظر في تفصيل أقرب ما يكون إلى إله، من تلك الآلهة المنتشرة في الهند، أمسى بلا ملامح تتكدَّس

الأوساخ فوقه، أن ما طلبه سيتأخَّر هذه المرَّة، وأن لا أحد يعرف متى سينتهي العمل عليه. بيد أنه تراجع عن ذلك في لمح البصر، عندما تذكَّر فوضوية نضال، وسمع نفسه يقول له، "ككل مرَّة، بلا تأخير".

4

كيف آلَ الأمر إلى أن أكونَ وحيدة؟

يُنصِت صلاح فيما يشيح بوجهه بعيداً، فترتطم نظراته بصورها الكثيرة. صورة لها وهي مثل طائر، فوق رأسها شال أبيض موشَّى بالأحمر، يُخفق وراءها، فيما يداها مثل جناحَيْن مفرودَيْن حولها، وقد أخذت ملامح وجهها، المائل قليلاً، هيئة مترفِّعة. كان عليه أن ينتظر بعض الوقت، قبل أن يُدركَ أن السَّيِّدة التي رشَّحه لها رئيسه السابق جياب، كانت تعمل في الفرقة الوطنية للفنون الشَّعبيَّة. ومرَّ زمن لم يجرؤ خلاله أن يسألها عن تلك الأوقات، التي كانت ترقص فيها ضمن الفرقة، مدّثّرة بالعلم الوطني، على مسارح وقاعات في مُدُن بعيدة من العالم، أمام زعماء ورؤساء وفود في احتفالات وطنية وأممية. ما إن يلج شقَّتها التي تقع في مجمع سكني، كان يقطنه كبار ضبَّاط الجيش البريطاني قبل أن يؤول إلى بعض قيادات الحزب، حتَّى يتلعثم ولا يعود يعرف ما يقول، مبهوراً يبقى بتلك المرأة التي أضحت هاجعة في مكانها، غير قادرة على الحركة.

جعلت نورا تراقب، خلال الستائر، غراباً على حافَّة النافذة، له ريش متَّسخ. بدوره أخذ يبادلها التحديق بينما يميل بمنقاره، ناحية أسلاك تتلوَّى في أشكال بلا غاية جمالية، وتفكِّر أنه لأوَّل مرَّة، على كثرة الغربان في عدن، تجد نفسها في مواجهة مباشرة مع واحد منها. كم مرَّة رأت هذه الغربان، التي جلبها الإنجليز، كما تناهى إلى مسامعها مرَّة، لهدف واحد هو الفتك بالزواحف وتنظيف المكان، وهي تتعارك وتتشقلب وتنقضُّ على فرائس صغيرة. كل ذلك كانت تراه من مسافة بعيدة. وهي تتملَّى في عينَي الغراب القلقَتَيْن، وتتوقَّف عند ساقَيْه النحيلَتَيْن، ومنقاره الذي بدا ثخيناً وطويلاً قليلاً، وتفكِّر في احتمال أن يكون مؤذياً، طاشت لا شعورياً يدها المُمسِكَة بمروحة، تأخذ شكل نصف دائرة، وبها رسوم ملوَّنة، واصطدمت بكوب فيه بقايا ليمون وورقة نعناع، فسقط. همَّ صلاح إلى كوب الليمون ليرفعه إلَّا أنه تراجع، كانت ستمنعه لا محالة. لا تريد أن تبدو في نظر أحد امرأة عاجزة، لا تستطيع تقديم العون لنفسها، فيهبّ الآخرون لمساعدتها ساعة اللزوم.

نظر في السائل المراق، فيما رائحة خليط الليمون والنعناع تنتشر خفيفاً، ثمَّ رفع بصره ناحيتها، فرآها مستكينة، وفكَّر أنها انطوت باكراً على نفسها. وفعلاً كانت هي قد بادرت ببتر الوشائج قبل أن يتدافعوا، هم أو هنّ، إلى قَطْعها لسبب أو آخر. ولاحقاً ولجت دائرة الأشخاص، الذين لم يعد أحد يرغب في تنشيط علاقته بهم، ذهاباً في تناسيها. إمكان أن تؤول إلى الزوال أبعد ما كانت تفكِّر فيه، بل لم يكن ليخطر

على بالها. قد تكون تهجس منذ مدَّة بهذا المصير، وإلَّا ماذا وراء رغبتها في أن تكون لها مذكّرات؟

تلتفت لصلاح وهي تحرّك المروحة قُرب وجهها، ترى نظراته تسمَّرت عند منحوتة من البرونز، لراقصة بساقَيْن رفيعَتَيْن، تأبَّدا فيما يشبه رقصة في الهواء، ما جعلها تقول على الفور، وقد غيَّرت الموضوع وبدا صوتها منفعلاً: مايا بليستسكايا. بدلاً من أن يسألها مَنْ تكون مايا هذه؟ حدَّق في داخله، وغرق في مشاعر متناقضة، يحتاج إلى مَنْ يؤكِّد له أنه غير مُحقٍّ، في موقفه من هذه العلاقة التي تربط بين نورا، تربية الإنجليز وسليلة سلاطين، وجياب الماركسي الذي يأخذ اسمه الحركي من المناضل الفيتنامي فون نغوين جياب، العدوّ الشريف الذي هزم الغرب الإمبريالي. ويعود ليراها تسرح كالمأخوذة بمشاهد، لا يراها أحد سواها، تجمعهما معاً، جياب وهي. يدور في خَلَده أنها لو فقدت ذاكرتها ستموت، ولن تعود صالحة لأيِّ شيء، حتَّى لزيارة مثل هذه من شخص مثله، عهدت إليه بكتابة مذكّراتها، هي المرأة التي عرفت من الرفاق، ما يجعله فوق شفير الهاوية، إذ يبقى، طوال ما تكون تتكلَّم، فاغراً فاه من الدهشة. ويتفحَّص وجهها، ويكاد أن لا يجد شبهاً بينه وبين الوجه في الصور، على الجدار ويمين الباب، في مَرمَى نظراته مباشرة، التي تُخلِّد لحظات مختلفة لها.

وتمضي لحظة قبل أن تُعاوِدَ الكلام عن جياب، وقد أرخت رأسها قليلاً، قائلة إن روحه كانت تفيض على الحزب، وتأخذه إلى نفوذ، لم يختبرْهُ أحد من قبل. وشخصت في

صورة تُظهِره شابَّاً بشارب خفيف وعينَيْن حالمَتَيْن. وتضيف: لم يستأنس يوماً بالبورجوازية الصغيرة وقيادتها لحركة التَّحرُّر. مخاوف غير يسيره تخالج صلاح بسبب ما تحكيه، عن رئيس دائرته المختفي، وهي تدخِّن سيجارة مارلبورو أبيض. كما لو أنه يتمدَّد بجوارها، تروح تخاطبه من خلال صورة أخرى، لم يعد شابَّاً فيها، كبُر كثيراً، وأصبح شاربه كثيفاً: تنوس بين الحركة الشّيوعيّة العالمية والعربية، وبين جبهة الصمود والمقاومة، بين موسكو وبكين وبراغ وكوبا وسايغون وبين الجزائر وسوريا وليبيا. كنتُ موزَّعاً بالتساوي بين هؤلاء، لم تفرط ولو لبُرْهَة صغيرة في الانحياز لهما.

تصمت لبُرْهَة، ثمَّ سيسمعها تقول: مرَّة قال لي: لا أدري لماذا يعتريني شعور أن أحلامنا تواضعت، بعد أن كنَّا حالمين كباراً. وأتذكَّر أن وجهه تحوَّل يومها إلى علامة استفهام هائلة. قبل أن يواصل قائلاً: في تلك الأوقات، بعد رحيل آخر جندي بريطاني، لم نكن نمشي فوق الأرض، نبتت لنا أجنحة، وطرْنا، ابتعدْنا عن الأرض، وصرْنا نُحلِّق عالياً. حلمْنا بثورة مستمرَّة لتحرير الجوار كله، ورأيْنا بعين خيالنا بلداناً جديدة، تنهض على أنقاض بلاد، عَرفت طويلاً الذُّلَّ وعبادة الطاغية. صنعت لنا مخيِّلاتنا جنات، الجميع فيها متساوٍ. فجأة، وكأنَّما أجنحتنا كانت من شمع، إذا بها تذوب في حرارة عدن وجوِّها الجحيمي، فتساقطْنا مرتطمين بالأرض التي لم نَخَلْها صلبةً فقط، بل كانت أكثر صلابة حتَّى من صخور ردفان.

وخالج صلاح إحساس غريب أن نورا لا تتلذّذ فقط بالحَكْي على لسان جياب، إنَّما أيضاً بإظهاره أحياناً في صورة مَنْ ساورتْهُ الوساوس حول جدوى ثورتهم، وأين وصلوا بها. ولم يدرِ بماذا يفسِّر ذلك. البارحة ما إن ولج شقَّته حتَّى أخذ يعدُّ ما جلبه معه من عشاء، فاصوليا بيضاء وجبنة وزيتون أسود، ثمَّ صنع له كوب شاي، ووضع فيه الكثير من السُّكَّر وحبَّة قرنفل، وبينما يأكل أخذ يتذكَّر ما حكتْهُ له، وراح يكتب بصورة سريعة، كَمَنْ يخشى النسيان، دون اعتبار للمُهِمّ أو الأهمّ أو عديم الأهمِّيَّة. وفي لحظة رمق جدران منزله بنظرة طويلة، وأزعجه منظر طلائها القديم، كما أنها مُلطَّخة في نواحٍ منها بما لا يمكن إزالته من براز البعوض. وشعر بالشبع حتَّى قبل أن يُنهيَ نصف طعامه. وفكَّر في المذكّرات، وغشتْهُ لحظتها مشاعر قاتمة، فهو لم يدرك بعد إلى ما سيؤول إليه الأمر، غير ناسٍ ما خطر على باله مرَّة، أنها تتعمَّد ذِكْر الإخفاقات واللحظات التي تطلَّبت حسماً، وتعذَّر على بقيَّة الرفاق تفهم ذلك حينها.

في وسعه الآن أن يستنشق رائحة جسد نظيف، تندفع من فتحة جاكيت الكتَّان الذي ترتديه، له لون بُنِّيٌّ غامقٌ، وبلوزة بيج بفتحة مثلَّثة. يراقبها وهي تبدو له كومة من الأسرار. ترفع يدها وبإصبعَيْن تزيح، بحركة رشيقة، خصلات من شَعْر دهنيٍّ كثيف، تتدلَّى فوق عينها اليمنى. لاحظ، متأخِّراً، أنها في كل مرَّة يزورها يعثر على تغيُّر في درجة مزاجها، في مقدار رائحة العطر الذي تضعه. ورغم أن التَّغيُّر يبقى طفيفاً إلَّا أنه مع ذلك، لا ينجو من

الشعور أنه بإزاء امرأة أخرى، عليه من جديد التأقلم مع ترفُّعها.

طوال مكوثه في منزلها لا يَنِي يستدعي كل ما قرأه في كرَّاسات الحزب عن البرجوازية. لم تتوفَّر له من قبل مناسبة، ليختبرَ المشاعر الطَّبقيَّة لبروليتاري، كما يزعم عن نفسه، في مواجهة مع نقيضه. في بيتها، استيقظت كل المقولات التي وضع تحتها خطوطاً حُمر، فلا ينساها، ويقوم بإسقاطها على علاقته بنورا. ظلَّ الأمر مؤجَّلاً حتَّى عرفها، وصار يقابلها شبه يومي. شعر في أوقات برغبة عارمة في أن يحقد عليها كبرجوازية متغطرسة، تعيش في ترف، وتحيا وسط أثاثها الفيكتوري، ولا تعترف سوى بالزمن الإنجليزي. لكنْ، يا لخيبته، ما يحدث هو العكس، إذ تُبهره بكل سلوك يندُّ عنها، فيسقط في الإعجاب بها. ويخطر له أحياناً أن يُبدي سلوكاً فظَّاً، كردِّ فعل على ما تتفوَّه به في حقِّهم، إلَّا أنه لا يستطيع سوى الصمت، بل والانكماش أحياناً. ثمَّ لن يعترف بالإعجاب، ولا يروق له انكماشه أمامها. يبقى في حال مقاومة، ثمَّ يستسلم، ليعود إلى وضع المقاوِم ثانية.

وفجأة انشغل في التفكير كيف يقول لها، إنه لن يستطيع أن يمكث طويلاً، ثمَّ فجأة نهض واستأذنها، متمنِّياً لها ليلة سعيدة. وحاول أن يُرهِف السَّمْعَ فيما يتَّجه صوب الباب، إن كانت من ناحيتها تمنَّت له شيئاً طيِّباً، غير أنها لم تفهْ بكلمة واحدة.

ارتياح كبير غمر صلاح أن سناء لم تكن برفقتهم، وهو يرى نضال من بعيد، كان سيمارس ضراوته عليها، وستختفي زمناً حتَّى يروها ثانية. بقي يراه وهو يتبادل كلاماً مع مدير النادي، كانت ترافقه فتاتان أجنبيَّتان. وتمنَّى لو يُدرك السبب الذي يجعل نضال متوتِّراً وهو يتكلَّم مع المدير، الذي اعتاد رؤيته لابساً قمصاناً زرقاء بنصف كُمٍّ، وبناطيل كحلية، وتُميِّزه كرش صغيرة، وصلعة طفيفة في منتصف الرأس، وفي يده ساعة ماركة رادوا. هل كان الكلام حول عوائد النادي، وتقاسمها بين إدارة المعسكر والقادة السِّياسيِّيْن؟ كان قد سمع عن خلافات مثل هذه تنشأ بين الفدائيِّيْن، خصوصاً أن المشاريع التي يديرها الفلسطينيون في عدن عديدة، وهو ما يثير، كما يتناهى إليه بين آنٍ وآخر، حسد أحزاب شيوعية تشقى في تحصيل عقود أكثر، للاستثمار في تدشين أندية ليلية وأماكن ترفيه، بيد أن الحزب حسم المسألة بتوزيع عادل للفرص. يظهر نضال عصبيَّاً، يخطو خطوات إلى جهة بعينها، ثمَّ ينكص، ويمكث هادئاً، لكنْ، ما يلبث أن يُعاوِد مشيه هنا وهناك.

تلفَّت صلاح فرأى ليبيِّيْن، يعرف أنهما موظَّفان في سفارة بلادهما، يبدآن في إثارة الصخب. ثمَّ رفيقاً إريتريَّاً لهما يخوض محاولة يائسة، في جعلهما يلتزمان الهدوء، على الأقلِّ في أوَّل الليل. يفارقه نضال ورائحته، فيطلب بيرة أخرى مثلَّجة، ويُحاوِل أن يُصغِي لعبَّاس يحكي عن مفقودين، تاهوا في الصحراء وهم يحاولون الفرار، وعن أشخاص يتنقَّلون عبر مُدُن، ثمَّ يختفون. لم تكن عدن محطَّة

عبَّاس الأولى، كما بالنسبة إلى آخرين، الذين ما إن وصلوا عدن حتَّى غادروها إلى قرى بعيدة، للعمل فيها معلِّمين ومهندسين وخبراء.

قبل أربعة أعوام بينما يأخذه ممثِّل الحزب الشّيوعيّ العراقي، فور وصوله، إلى الشُّقَّة التي سيعيش فيها، لم يفكِّر حينها أنها له وحده، لكنْ، لم يتخيَّل أنه سيكون الشخص رَقْم 7 الذي يسكنها بسبب أزمة السَّكَن. كانت المساكن الجيِّدة ذهبت للمجموعات التي وصلت باكراً. لكنْ، مع مرور الوقت لم يتبقَّ سواه واثنَيْن آخرين، في الشُّقَّة، بعد أن غادر البقية للعمل في قرى وجبال نائية. ومع ذلك، فهو في الشُّقَّة لا يقدر أن ينطوي على نفسه في هدوء. ضوضاء شريكَيْه تصله. هو لا يجلس معهم كثيراً. إمَّا في الخارج أو يقرأ طوال ما يكون في البيت، وحيناً يستمع للراديو. خطر له مرَّة أن يصنع ساتراً من القماش، يعزله عن شريكَيْه، وهمَّ فعلاً بالتنفيذ إلَّا أنه سيكتشف كم أنها فكرة سخيفة. في الأيَّام الأولى له هنا قال له ممثِّل الحزب الشّيوعيّ، إن مدرسة تحتاج خدماته. ومن يومها وهو يعلِّم صفوفاً في مدرسة بإحدى حارات كريتر، قريباً من الميدان، وغير بعيدة من سينما مستر حمود. لا يُدرِّس مادَّة بعينها، إنما مرَّة يعطي درساً في العلوم، وأخرى في اللغة العربية، وأحياناً يصطحب التلاميذ إلى مكتبة صغيرة للمطالعة الحُرَّة. في الاستراحات بين الحصص، طاب له الجلوس في غرفة المدرِّسين، لشُرب الشاي أو لتناوُل وجبة إفطار خفيفة. لم تمضِ فترة قصيرة حتَّى تكاثر عدد

المعلِّمين من بلده، فعثر على نفسه كالمحشور بينهم، خصوصاً حين يخوضون في مواضيع لا تستهويه، وتجعل مزاجه كدراً. رويداً راح يتجنَّب تلك الغرفة، من دون أن يُبدي سبباً محدَّداً. وأخذ يقضي فُسْحَتَهُ في فناء المدرسة، أو مع بعض التلاميذ الأكبر سنَّاً. وعندما لا يوجد ما يشغله يذهب إلى معهد باذيب للاشتراكية العلمية، يستمع لمفكِّرين عرب بارزين، يحاضرون في التَّيَّارات الفكرية والمذاهب الفلسفية. هناك التقى لأوَّل مرَّة صلاح، وأيضاً بقطاش، ثمَّ تعرَّف بواسطتهم على سناء. خارج المدرسة تتزايد شكوكه كلَّما أطلَّ عراقي جديد، أن هناك من يتعقَّبه. لكن الوافد الجديد سرعان ما سيتكشف عن شخص لا يختلف عن البقية، لم يجد سوى هذه المدينة تهبه، مثل سائر الشّيوعيِّيْن والفارِّين من بلدانهم، طعاماً ومسكناً وأيضاً عملاً.

مرَّة يصغي صلاح إلى عبَّاس، وحيناً يجيل ببصره في زبائن النادي ونُدُلِهِ، شابَّيْن وسمراء التحقت ببرنامج الحزب لإعادة التأهيل، غير أنها لم تمكث طويلاً. يراها ممتلئة مع شَعْر أجعد منفوش، وصدر جعلتْهُ فتحة البلوزة الدَّائريَّة فسيحاً، تتدلَّى فوقه قلادة، فيها صورة للرفيق عبد الفتَّاح إسماعيل. من الواضح أن هذه القلادة لا تُباع، على الأرجح هي صنعتْها بنفسها، كأن التقطت صورة ملوَّنة للرفيق من صحيفة أو مجلَّة، وشرعت في قَصِّها بعناية دقيقة، ثمَّ حشرتْها في مربَّع القلادة، بواجهته الزُّجاجيَّة. هزّ عبَّاس رأسه قليلاً، ورفع زجاجة البيرة باتِّجاه صلاح، وأنهى ما تبقَّى فيها بجرعة واحدة. وتناهى إليهم صوت

أحد العراقيّيْن، من طاولة مجاورة، وهو يقول إن الحزب الشّيوعيّ العراقي مَطيَّة للأكراد، وإن الشّيوعيّيْن التفُّوا حول شخص رجعي. وكَمَنْ يسرد حلماً مشوَّشاً رآه مؤخَّراً، تكلَّم عبَّاس عن قطار عبر به محطَّات على طول براغ، كانت نظراته تسرح بعيداً، أبعد من نهايات المنظر أمامه، فيما كان يفكِّر في عدن فقط، في بقية الرفاق الذين سبقوه.

بأكثر من الواجب الأخلاقي، أكبر من نداء الرفاق، جئتُ مندفعاً إلى هنا. قال وهو يحدِّق في الوجوه خلال الأدخنة الباهتة للسجائر الرخيصة. وسمعوا الشخص نفسه الذي تكلَّم عن الشّيوعيّيْن العراقيّيْن، يغنِّي الآن بصوت مبحوح، مبهماً بعض الكلمات: يا ريل، طلعوا دَغَش والعشق جذابي... تتوالف ويه الدرب وترابك.. ترابي.

يسترعي انتباه صلاح وقوف نضال مع ممرِّضة بلغارية، كان التقاها مرَّتَيْن قبل حوالي شهر في مشفى نقاهة في خور مكسر. ولم يشكّ للحظة آنئذٍ أن الأمن جنَّدها، ومع ذلك خامره شعور أنها عَصيَّة على النسيان. لها وجه وسيم وعينان طافحتان بالحيوية. وحين سألها يومها عن الحالة الصِّحِّيَّة للكادر الحزبي قاسم مصلح، الذي يشرف شخصيَّاً على قِطَع الأراضي التي تُمنَح لمنظَّمات عربية وأممية، لتُقيم عليها معسكراً أو مزارع تزرع خضاراً وفواكه، يذهب عائدها إليهم وحدهم، طمأنتْهُ وأَرَتْهُ أوراقاً عبارة عن تقارير طبِّيَّة ومواعيد للعلاج.

أكمل بيرته بجرعة واحدة، ونهض بهدوء، كَمَنْ يُحاذِرُ الوقوع. كان عليه طبعاً أن ينتظر حتَّى يغادر نضال، فمما ظهر له أنهما التقيا مصادفة، وقد بان عليهما أنهما يعرفان أحدهما الآخر جيداً، إذ سرعان ما انهمكا في حديث ودِّيٍّ. تخلَّل الطاولات حتَّى اقترب منها. لم يشأ أن يواجهها، وبقي خلفها لوَهْلَة. كانت هي تتكلَّم الآن، بعد انصراف نضال، مع شاب خمَّن أنه روسي، وسيِّدة تضع مكياجاً، ساح بعضه على وجهها، بسبب الحَرِّ والرطوبة، بيد أن ذلك لم يبدِّد نظرة شهوانية، راحت ترمق بها بعض السكارى، كانوا يقفون عند الكراسي التي تصطفُّ مباشرة، حول الطاولة نصف الدَّائريَّة في مقدّمة البار.

لم ينتظر كثيراً، فهرع إلى تحيتها، بدت لوَهْلَة أنها لم تعرفْهُ، وفسَّر هو ذلك على أنه تظاهر منها ليس أكثر، تظاهر يُبديه عناصر الأمن عادة لدواعٍ احترازية. فهما في آخر لقاء تحدَّثا مطوَّلاً حول صحَّة الكادر الحزبي، وإحاطة وجوده في المشفى بالسِّرِّيَّة اللَّازمة. وأمام الصرامة التي كست ملامحه، على الرغم من الابتسامة الخفيفة التي رسمها على شَفَتَيْه، أخذ وجهها يعبِّر عن اندهاش خفيف لرؤيته. اقترح عليهم شراباً، فتبادلت مع الشَّابِّ والسَّيِّدة نظرات، ثمَّ اعتذرت بلطف عن الشراب، وأصرُّوا على الذهاب، وقالت إنهم على موعد مع آخرين في القولد مور. وحاول ولم يدرِ لماذا، ربَّما بسبب انتشائه، أن ينفرد بها هذه المرَّة متخلِّياً عن صرامته، ومُظهِراً ودَّاً كبيراً لها. ولم تجد هي مفرَّاً من مبادلته الودّ نفسه، حتَّى إنها رفعت يدها

ولمست كتفه، بالطريقة الرشيقة التي يمكن لشخص أن يُبعد شَعْرة أو ما شابه، عالقة على كتف شخص آخر، تربطه به علاقة حميمة. وكاد يسألها إن كانت تعرف نضال من فترة طويلة، غير أنه أقلع عن ذلك. وخُيِّل له أنها كانت ستبقى في ما لو كانت وحدها.

لم يعد مباشرة إلى طاولته، وبقي يراقبهم، وهم يغادرون المكان، شاعراً بشَفَتَيْه جافَّتَيْن.

5

تعبر بنا السَّيَّارة طريقاً وسط خور مكسر، على جانبَيْه فِلَلٌ عديدة، يرخي زجاج السَّيَّارة، ويمدُّ ذراعه إلى فيلَّا، يفتح بابها إلى الشرق، ويحيطها سور خفيض، يكشف عن شجرة رفيعة، أسفلها كرسيَّان من الخوص، وطاولة مستطيلة، لها لون أبيض، ويفشي لي بعض أسرارهم قائلاً: في هذه الفيلَّا استجوب وديع حدَّاد كارلوس، كان على الأخير، وفقاً لأوامر الأوَّل، أن يقتل وزيرَي النفط السّعوديّ والإيراني، عقب اختطافهما في فيينا قبل أعوام، إلَّا أنه لم يصبْهما بأذى. وستأخذ السَّيَّارة يساراً مع أوَّل منعطف، ويشير بإصبعه إلى فيلَّا أخرى، لها شرفة واسعة، لكنْ، بدت مُهمَلَة وبطلاء مقشّر. وسيسكت جياب لبُرْهَة كَمَنْ يتأكَّد من دقَّة المعلومة، قبل أن يقول: هنا عاش مناضلون يابانيون أعضاء في منظَّمة الجيش الأحمر. جاؤوا إلينا، فارِّين من التطهير.

ستمضي السَّيَّارة في طُرُقات، حاولت نورا، وفشلت، في أن تتذكَّرها كما كانت، أنيقة ونظيفة، قبل أن يدهمَها التَّغيُّر. إلى يمينها ستلمح ذلك البارّ، تعرَّفتْ عليه بذاكرتها حين كانت نخبة عدن من الإنجليز والعرب يرتادونه. يُدخِّنون السيجار الفاخر، ويحتسون أشربَتَهم، وحين لا ينخرطون في نقاش حول توسُّع الحُلم الأميركي، وانتهاء العَدِّ التَّنازليِّ لبدء انطفاء الأنوار عن الإمبراطورية التي كانت لا تغرب عنها الشمس، سيُنصتون إلى يونانية في الأربعين من عمرها، لها عينان حادَّتان، وشَعْر أثيث حالك السواد، تعزف موسيقى رائقة على آلة وترية، تشبه الهارب. تقارير الإنجليز في ذلك الزمن، ذكرت أن الثائرين الذين ألقيا قنبلة على أحد كبار جنرالات الجيش الإنجليزي، في أثناء ما كان يقوم بجولة على سلاح الجوِّ البريطاني، ونجا منها، لكنها أودت بحياة مرافقين له، توقَّفا في هذا البار قبل أن يُقدِما على فعلتهما، وأمضيا وقتاً في احتساء مشروب. التقرير ذكر أن أحد الثائرين فضَّل شرابه بارداً، فيما أصرَّ الآخر على تناوُله دافئاً. ولم يتجاهل التقرير ملاحظة أحد النُّدُل، أن الثائرين كانت لهما أيدي عمَّال مياومة: أصابع خشنة وأكفّ متشقِّقة. بدلاً من البار الذي تحوَّل بعد الاستقلال إلى أحد مكاتب لجان الدفاع عن الثورة، وُجِد أكثر من اثنَيْن، إنَّما بعيداً نسبيَّاً من هنا.

وتتوقَّف نورا عن الكلام، تاركة الصمت يتسلَّل إلى الحجرة الغارقة في أثاثها الفيكتوري، أهداه لها أبوها حفيد أحد السلاطين وتاجر المواشي، كان يجلبها من أفريقيا لتغذية

عساكر الإنجليز. طاولات، مقاعد، أرفف، خزائن، أرائك وكنب، تحف وإكسسوارات وسجَّاد وورق ملوَّن للجدران. تتذكَّر هي تلك الفِلَل القريبة من الشاطئ، التي كان يقطنها أوروبيون. تتذكَّر الأندية والحدائق وحتَّى الثكنات العسكرية للجيش البريطاني. تُطلق تنهيدة، وتنظر أمامها. تتماوج المشاهد قدَّامها، يغبشها ضباب خفيف. تستدعي حفلات الشاي وأعياد الميلاد التي كانت تجمعها بفتيات وشبَّان في عمرها، يزورونها في منزلهم في التواهي، أو تذهب إليهم في إحدى هذه الفيلَّات، ثمَّ يُكملون لهوهم في أندية تقيم حفلات موسيقية لفِرَق تأتي من الخارج، أو في سينما تعرض أفلاماً أجنبية جديدة.

ضربات البيانو في موسيقى رحمانوف تتدفَّق نقية، فتُنير وجهها، غير أنه ينطفئ ما إن تتعالى نقرات الطبل، مُنهية إحدى الحركات. ورمقت صلاح بنظرة باردة، وهي تقول: عاصمة للشّيوعيّيْن العرب تحوَّلت عدن، بمجرَّد ما دخلها مقاتلو الجبهة القومية، قادمين من الأرياف ومناطق القبائل. نجمة حمراء تسطع في الظلام وفي عزِّ الظهيرة، لتهدي المقهورين والتائهين. كيف يعرف صلاح أنها لا تهزأ منهم؟ نصف تائهة يتصوَّرها وهي تأخذ طريقها خلال الذاكرة، إلى أمكنة، ما عادت لها الصورة التي خبرتْها، كأن أزمنة ثقيلة مرَّت عليها، فجرفت روحها، وخربت رونقها. أرخت رأسها، وشرعت تُنصِت لحشرات الليل، تبدأ في صرير يتناهى إليها حادَّاً ومديداً، يحفر في حواسِّها، فتنسحب من ضوضائه قبل أن ترى، خلال

الستائر، العتمة تندفع مثل سحب سوداء، وتتخلّل البنايات. تخاطر أفكارها، متّبعة دروباً ضيّقة، لا تفضي إلى شيء، تتأمَّل مدينة متحوّلة، تُقشِّر نفسها، تنزع طبقة فأخرى، كيما تُلائِم بُرْهَة جديدة، لا تزال تتوالى بلا ملامح.

تتناول ألبوم الصور من أحد أرفف الطاولة الملاصقة لها، وتُقلِّب صفحاته. ثمَّ تتوقَّف عند صورة لوالدها، وهو يرتدي إحدى تلك البذل التي يرسل لشرائها من إم جي رووود في بومباي أو من مخازن لندن، جالساً في مقعد بمبنى المجلس التَّشريعيِّ، حين انتُخب لأوَّل مرَّة عضواً فيه، بتوصية من المندوب السَّاميّ. وتتذكَّره حين كان يصغي إلى موسيقى القُرب، التي تُمزِّق أحشاءَهُ بمسحتها الحزينة، وكأنها أُلِّفَت خصِّيصاً له، وليس من أجل حفنة من جنود الملكة، غادروا أوطانهم، ليرعوا مجدها، ويوسِّعوا ممالكها، يصرخ في وجهها: "أنا أيضاً جندي الملكة؟".

هذا الوالد ما عاد يقدر على ثَنْيها عن أمر، هي تريده، كعلاقتها بجياب، مثلاً. ذلك كان ميثاقه معها. تتذكَّره دوماً وهو يُذكِّرها بيوم، أنعمت عليه الملكة إليزابيث بوسام في الخمسينيات، عندما زارت عدن، وقضت فيها أيَّاماً. يومها جثا على إحدى ركبَتَيْه فوق مقعد أمامه، وقلَّدتْهُ الملكة الشَّابَّة الوسام، مقابل خدماته للتاج البريطاني، في أُبَّهة كولونيالية، هي كل ما تبقَّى له من نعيم.

يُوقِظ هذا البيت في صلاح كل أنواع الحذر، ويجعله ينظر حوله متعجِّباً من وجوده فيه. كيف يضمن أن لا أحد سيشي

به لأيِّ سبب؟ هل لن يعرف أحد أنه يزورها؟ دوماً الوشاية هي ما يتفاداه، واشياً أو موضوعاً للوشاية. يُرهِف السَّمْع إلى قَدَمَيْها تحكَّان إحداهما الأخرى. بلا قَدَمَيْن تصلحان للرقص، تحوَّلت هذه المرأة إلى ما يشبه أفعى مُسنَّة، تزحف بلا طائل، لم تعد من أهمِّيَّة لها سوى الحضور في سيرك.

كم أرنو إلى أن يهبوني فرصة السفر من دون مراوغة.

تعود للكلام. ما لم تتكلَّم، يُخيَّل لصلاح أنها ستموت، ستندثر حياتها، وتُطوى أيَّامها مع جياب. ها أنا أستعدُّ منذ لم أعد أتذكَّر. قالوا إنه يمكنني السفر، وعادوا، شأنهم دوماً، ونكثوا بوعدهم. لكنْ، حتَّى لو تناسوا قليلاً ضغائنَهم، وسمحوا بالسفر، هل يمكن لي أن أفعل ذلك، فيما أنا لا أعرف شيئاً عنه؟ ليس خليقاً بي أن أغادر، في الوقت الذي يقبع هو في مكان مجهول. كان سيحلو له، رغم كل ما قد يمرُّ به من أشياء رهيبة، أن أترك هذه البلاد، وأذهب للعلاج، لعلَّها أُمنيَّته الآن أن أفرَّ. ولهذا السبب، ربَّما، لن تُطاوِعَهم أنفسهم السماح لي.

ليس لدى صلاح أدنى فكرة، عمَّا يمكن أن تفعله بنفسها، في حال طالت مماطلتهم، ولم يجعلوها تسافر. في مثل وضعيتها الصِّحِّيَّة وما آلت إليه معنوياتها، ليس في وسعها التفكير في خيارات كثيرة للخلاص النِّهائيِّ. ويراها وهي تتناول علبة السجائر، وتُشعِل واحدة، وجعلت تحكُّ أنفها بإبهام يدها المُمسِكَة بالسيجارة، بينما كان خيط دخان يتسلَّل

إلى مقدّمة شَعْر رأسها، فأمكنه رؤية شَعْرات بيضاء، تندسُّ في خصلات كثيفة. وأغمضت عينَيْها بشدَّة، وظنَّ أنها تُحاوِل تذكُّر تفصيل فاتَها، أو أن دخان السيجارة آذاها، سوى أن الإغماضة طالت، ثمَّ خُيِّل له أنه يرى جفنَيْها مُخضَّلَيْن بالدمع، ولم يفهم ما يجري، وأخيراً تنبَّه ليَدَيْها تتشبَّثان، كأنَّما تأبَّدتا، بركبَتَيْها. وهبطت نظراته إلى قَدَمَيْها، كانتا ترتعشان بقوَّة، داخل الأربطة البيضاء. ظنَّ أن ذلك سيستمرُّ المساء كله، غير أن شعوراً بالارتياح يأخذ تدريجيَّاً في الانعكاس على مزاجها. كأنَّما الألم الذي يُجهدها، يأخذ في سَحْب نفسه رويداً من جسدها كله.

واستطاعت أخيراً أن تتكلَّم، فقالت إن أُمنيَّتها كانت أن تؤدِّي دور بلقيس في ملحمة سبأ. تدرَّبْنا طويلاً، تعب معي مُصمِّم الرقص. لم أعد أتذكَّر عدد البروفات التي أجريْناها، ولا جوّ النقاشات التي سادت بيننا. كانوا يريدون أن تعرض في مناسبة زيارة يوري أندروبوف، إنما قبل أن يخلف بريجنيف في السلطة. لكن الوقت مضى، ولم يزرْ أندروبوف عدن، ثمَّ دخل الحزب في مواجهة جديدة مع نفسه، فأوقف العرض. ستسكت لثوانٍ، ولمعت عيناها بألقٍ غريب. وعادت لتتكلَّم عن جياب، مشيرة إلى أن معاناته معهم قد بدأت حينها، وأنهم أخذوا يبتكرون طُرُقاً، ليُعرقلوا تحوُّل أفكاره إلى مشاريع حقيقية للنهوض.

كان قد أخذ هو أيضاً يُجابههم بشراسة، غير أنهم كانوا كُثُراً فيما هو فرد. إلَّا أنه، من ناحية، لم يُبجِّل أحداً بقَدْر

نفسه. يتحدَّث عنهم، وماذا فعلوا، وبماذا يحلمون، بيد أنه في داخله لا يؤمن سوى بقدراته هو.

يخالها صلاح تثأر من كل الرفاق، ويتمُّ لها ذلك من خلال ما تنسبه لجياب نفسه، وما تزعم أنه فَهْم خاصٌّ منه لهم. ولم يملك سوى أن يسايرها مكتفياً بالإنصات. وما لبث وجهه أن نمَّ عن ضيق، فنهض وهو يستأذن للانصراف. لكنها أمرتْهُ بإشارة من يدها أن يمكث قليلاً إلى جوارها.

ما إن انضمَّ لعبَّاس وبقطاش وآخرين، حتَّى سادت بُرْهَة من الصمت، عقب نقاش حادّ حول موقف الشّيوعيّيْن العراقيّيْن من تطوُّرات الحرب مع إيران. في النقاش شكَّك عبَّاس في جدوى الحرب، وشكَّك أكثر في أيِّ انتصار، يمكن لطرف أن يُحرزه ضدَّ الطرف الآخر، وبدا متشائماً. البارحة قاسى عبَّاس لحظات صعبة في منام غريب، أخذت وجوه رفاق له من الأنصار، تتوالى كما في شريط أبيض وأسود. قضى أحدهم برصاص جنود أنزلتْهم الطائرات، وفيهم مَنْ سقط من ارتفاع شاهق لجبل عنيد، ليتلقَّفه وادٍ سحيق، أو جرفه نهر فغرق، وهناك مَنْ لدغته أفعى أو قرصتْهُ عقرب سامَّة. منام كثَّف معاناة رفاقه مع الموت، في لحظاتهم الأخيرة. وجوههم فقط، رأى، وهي تعكس الحدود القصوى للألم الرهيب، أو ذاهبة في غيبوبة أخيرة، فاستيقظ مرعوباً يتلفَّت، ظانّاً أنه تائه بين ممرَّات جبلية مقفرة، أو في بطن وادٍ موحِش. وحين اتَّضح له أنه لم يفارقْ سريره، تنفَّس بعمق، وشعر بفمه جافّاً. وبدل أن ينهض ويذهب إلى المطبخ ليشرب، بقيِ في سريره يُنصِت

إلى أنفاسه وهي تتدافع، مع هاجس يتملّكه أن جسده تحوَّل لوحاً من خشب.

لم يخطر له أنه سيحمل بندقية في يوم ما، ويصوِّب على هدف متحرِّك. تخيَّل نفسه، قبل ذلك، كاتباً يُنتج أفكاراً، وربَّما كاتباً لمسرحيات طليعية، تُحرِّض الجماهير، وتقودهم إلى أحلامهم. مع الحزب عرف البيوت السِّرِّيَّة، وتعرَّف على شوارع وميادين، جمعتْهُ برفاق آخرين، ثمَّ راحوا يتنقَّلون في المحافظات الأخرى، يصلون الحلقات الشّيوعيّة بعضها في بعض. التحق بدورات تثقيفية في إعداد الكادر وتعليم المبادرات. فتنتْهُ مقولة المناضل فهد "الشّيوعيّة أقوى من الموت، وأطول من أعناق المشانق"، فهد الذي أوَّل مَنْ كتب بياناً يحمل شعار المطرقة والمنجل، قبل أن يُعدَم في 14 فبراير 1949، ويتحوَّل تاريخ إعدامه إلى يوم الشهيد العراقي. يتفكَّر في كل ذلك، ويشعر بالزهو، لكنه عندما يتذكَّر خطيبته ندى يؤنِّبه ضميره، فهي رفضت أن تنفرط علاقتها به، وأصرَّت أن يبقى مصيرهما مترابطَيْن إلى ما لا نهاية. يتمزَّق قلبه، ويأكله الهلع، إذا ما تخيَّل أن أذاهم يطالها.

طلبوا بيرة جديدة، وواصلوا الشرب والكلام في مواضيع مختلفة، مُحدِثين صخباً خفيفاً. يأتي بعض الرفاق ممَّنْ يديرون هذا المكان، ويُحيُّون عبَّاس، ويبادلهم التَّحيَّة، لكنْ، باقتضاب، وسرعان ما سيسمعه صلاح يتوسَّل إليه الذهاب إلى مكان آخر، إلَّا أنه أخذ يُقنعه أن لا يخشى من رفاقه هؤلاء، وأن يكفَّ عن التَّوجُّس.

الرطوبة كثيفة، ومراوح السقف لا تنجح دائماً في طردها. وهو يدفع بأصابعه زجاجة بيرته برفق، كَمَنْ يلهو مع نفسه، حتَّى اصطدمت بالزجاجات الأخرى فوق الطاولة، تحدَّث بقطاش عن انتشار قصص الكرامات التي تُروى على ألسنة المجاهدين الأفغان، الذين يقاتلون السوفيت. وقال إمَّا أن أميركا وراء اختلاقها وترويجها، لتسهيل استدراج متطوِّعين آخرين، أو أن الحشيش الأفغاني، المعروف بتأثيره وفوائده الطِّبِّيَّة العديدة، جعل المجاهدين ذوي خيال واسع، يستطيعون معه رؤية ملائكة تقاتل إلى جانبهم. وضحك ساخراً وهو ينهض متَّجهاً إلى حائط به صور كثيرة، قريباً من شبَّاك عريض، يطلُّ على البحر. ورأوه وهو يقف قدَّام أحد النُّدُل، ويُخرِج صورة من جيبه، وفهموا أنه يريد منه تعليقها بجوار الصور الأخرى، فهو يمدُّهم، بين حين وحين، بصور فريدة، يلتقطها من صحف ومجلَّات لشخصيات بارزة زارت عدن. على الحائط نفسه صور لرفاق مرُّوا من هنا، وصور أخرى لرفاق آخرين، التُقطت في أماكن مختلفة في عدن. فوساكو شيجنونو رئيسة الجيش الأحمر الياباني، إلى جوار مناضلين إريتريِّيْن، وآخرين من نيكارغوا والسلفادور. في الصورة يحتسون البيرة، ويأكلون سمكاً مشويَّاً. في صورة أخرى، مناضلون ألمان من فصيل الجيش الأحمر ورفقتهم دنماركي وإيطالي، في خلفية الصورة صهاريج عدن الشهيرة.

داخل ضلفَتَي دولابه في معهد باذيب، يحتفظ هناك بصور لها طابع تاريخي، تثير الحنين إلى الزمن الذي تنمُّ عنه الصور، كالصورة التي انتزعها من مجلَّة أجنبية، لإحدى المناضلات الظَّفاريَّات، بشَعْر أجعد، وبنطلون كاكي قصير، وجعلها في مساحة بارزة، من دولابه. وعلى الرغم من شيوعيته الصلبة، إلَّا أن بقطاش لا يتوانى في لحظة غير مفهومة، لا لنفسه كما بالنسبة إلى مَنْ يعرفونه، في التَّأفُّف من الوجبات البسيطة التي تُقدَّم لهم في المعهد، وقوامها طيف من البقوليات، يُقدَّم لهم في الصباح والمساء، ثمَّ يقرِّر أن يُنفق نصف دنانير المكافأة التي يصرفها له المعهد، على وجبة واحدة في مطعم القولد مور، لكنها توفِّر له فرصة التدقيق في النادلة الأثيوبية، وفي تضاريس جسدها، التي تُقحمه في موجة من استيهامات جنسية محتدمة، يشعر بها تفجُّر شراييِنه.

وما كاد يقعد حتَّى بادره عبَّاس قائلاً، أنتَ مولع بصور المناضلين، أكثر من المناضلين أنفسهم. أرخى بقطاش رأسه قليلاً، وجال ببصره في الوجوه حول الطاولات، ثمَّ التقط زجاجته، تبقَّت فيها رشفة لا أكثر، ومع ذلك، أتى عليها، قبل أن يتساءل إن كان هذا موقفاً من المناضلين أم من صورهم؟ وكَمَنْ خطرت له فكرة جديرة بأن لا يسكت عن قولها، أضاف أن الصور تطارد أصحابها، إذا ما غيَّروا من أنفسهم أو تنكَّروا للحظة من حيواتهم. بدا مرتاحاً لهذه النتيجة، كما لو كانت تمنحه سبباً قويَّاً للتَّشبُّث بالصور. وسأله صلاح عن الوظائف الجديدة التي بات

يتولّاها في "أشيد"، منذ أن اختير، ليكون مساعد مسؤول الدعاية والصلات الخارجية في اتِّحاد الشباب اليمني الدّيموقراطيّ، الذي لا يقبل في عضويته، أسوة بالفروع العالمية الأخرى، غير اليساريِّيْن والتَّقدميِّيْن. فأخبره بقطاش أن مسؤوليته الجديدة لا تجعله يمكث طويلاً في عدن، فهو مرغَم على السفر كثيراً، لحضور المؤتمرات المناهضة للإمبريالية، والدعوة لتعميق الثورات في وجدان الشباب.

لم تكن الشّيوعيّة خياراً عند بقطاش، إنما ورثها من خاله الذي انخرط في الحزب الشّيوعيّ الجزائري، وناضل ضدَّ الاستعمار. لكنه مات قبل استقلال الجزائر، وحتَّى اليوم لايزال مقتله غامضاً. فهناك مَنْ يقول إن الفرنسيِّيْن هم مَنْ قتلوه في المواجهات. في حين يُصرُّ آخرون أنه قضى، مثل آخرين، على يد جبهة التحرير. يغيب طويلاً عن بلده الجزائر، منغمساً بالكامل في الحياة المتلاطمة هنا، أبسط الممارسات في عدن، حتَّى أكثرها تفاهة، تأخذ بالنسبة إليه كنهاً آخر. يتملَّكه شعور فائض بالحُرِّيَّة، لم يألفه في أيِّ مكان آخر، شعور يُغذِّيه باستمرار ضجيج الاحتفالات الحزبية والأممية، الحفلات الغنائية لمطربين ملتزمين باليسار، جوّ المدينة التي تحوَّلت أرضاً للميعاد، بالنسبة إلى الكثير من المناضلين والمطرودين من بلدانهم.

لا ينتمي بقطاش إلى أيِّ تنظيم في الجزائر، شيوعي على طريقته. كان في ألمانيا الشَّرقيَّة يدرس الطِّبَّ، غير أنه ترك كل شيء، وفضَّل اختصار الطريق، وجاء إلى عدنِ،

ليدرس في معهد باذيب للاشتراكية العلمية، حيث يتعلّم الطَّلَبَة العرب مجَّاناً إضافة للطعام والسَّكَن، مبادئ الاشتراكية وعلم الجمال الماركسي والنزعات المادِّيَّة في الإسلام، ويُعلِّم فيه أساتذة ومناضلون عرب كبار. يبدو بقطاش الأصغر بين رفاقه، له وجه يزداد احمراراً في حَرِّ عدن.

مَنْ منكم يرى هذه المدينة وهي تتغيَّر وتُغيِّر؟ يتساءل بقطاش وهو يرمق الوجوه التي تنتمي إلى بلدان عديدة، ولا يفتِّش عن إجابة لدى أحد من رفاقه على طاولة الشرب، الخالية سوى من زجاجات البيرة. وقال وهو يتلمَّس قبَّعة جيفارا فوق رأسه، لم يتوانَ كل هؤلاء لحظة في المجيء بمجرَّد ما هتفت لهم عدن، راحت تستدرجهم بوعودها، وتستقبل بلا كلل الحالمين والثُّوَّار. شرب من زجاجة البيرة، ومسح فمه بظاهر كفِّه، وأضاف أن عدن لا تتعدَّد بتعدُّد مَنْ يهبطون إليها، فراراً من جحيم أو توقاً إلى أرض تنمو فيها الأحلام. ولا تتكاثر في صور مختلفة، في صورة واحدة تبقى. تتوضَّح له عدن مدينة جديدة، أرضاً بكْراً، تؤثِّث ذاكرتها بأفعال مَنْ فيها، بحكايات الهروب والالتجاء وقصص الأرواح التي شوَّهتْها السجون، فحطَّت هنا، كي تتداوى وتُداوي. لا تُرهِب صلاح التلال الجرداء المحيطة، لا يشعر بالقيظ الجنوني وما يثيره من ضجر في النفوس، ولا تُنغِّص عيشه الحياة القاحلة وخلوّها من المباهج. يُمضِّي سحابة نهاره بين جدران معهد الاشتراكية

العلمية، وساعات الليل رفقة عراقيّيْن وفلسطينيّيْن وسودانيّيْن وعرب آخرين، مأخوذاً بوعود عدن وأحلامها.

يجيل ببصره الآنفي أرجاء المكان، ويصغي للضوضاء التي يُحدثها السكارى، وبعد بُرْهَة من الصمت، سمعاه يردِّد بحماسة وهو يهزُّ قبضته أمام وجهه، أُغنيَّة لفرقة الطريق: "أشيديون. أشيديون في المصنع. أشيديون. أشيديون في الحقل. أشيديون. أشيديون في الثكنات وخلف حرارة الآلات".

6

حلمتُ به ظهيرة اليوم. كان حلماً غريباً. لم أكن حتَّى في قيلولتي. هوت بي عيناي، فغبتُ لبُرْهَة. لم أرَ وجهه، ولا ميَّزتُ بوضوح ملامح المكان الذي ضمَّنا. لاح لي مثل طيف. دفعَني إلى ركن به أريكة، وأَجلسَني على حافَّتها، وقدَّم لي مشروباً بارداً. راودتْني حاجة مُلحَّة في أن أراه، كما يرى أيُّ شخص شخصاً آخر، يقف قُبالته، إلَّا أنه كان يتفاداني. لم يتفوَّه بكلمة. كنَّا إلى جوار شبَّاك عريض مفتوح. وانخرطْنا معاً في الإنصات إلى حفيف أشجار، بجوار سياج، لما يبدو أنه مبنى مُتداعٍ ومظلم، يقطعه صوت أمواج في مَدٍّ وجَزْر. في نهاية الحلم تفوَّه قائلاً:"قَدَمَيْكِ". ميَّزت هذه المرَّة فقط اضطراباً خفيفاً في نبرة صوته، غامضاً شيئاً ما. ولوَّح لي بخمول، ثمَّ تلاشى.

عندما صمتت نورا حدَّق صلاح في كُمِّ سترته السّفاريّ، كحلية اللون، وتحسَّس مكان مسدَّسه، وبلا مناسبة، شَعَرَ بالزهو. وتذكَّر أنه جلب معه كتاباً، ومن فوره نهض وأعطاه لها وهو يقول إنه رواية أمريكية، نشرتها دار الهمداني. ثمَّ أضاف وهو يتراجع خطوات إلى الخلف، ناحية مقعده بينما يراها تتلمَّس بأصابعها غلاف الكتاب، ثمَّ تنصرف بنظرها عنه: تخيَّلي جيلاً بكامله راح يصرخ: كلنا هولدن كولفيلد. وهو بطل الرواية التي تُصوِّر أمريكا غارقة في الزيف وفقدان الانتماء.وخالجتْهُ رغبة في أن يتجاذب معها حديثاً مختلفاً، طرفاه امرأة تخطَّت الأربعين بقليل، وخبرت رفاقاً كثيرين، وطافت العالَم، تلفُّ جسدها بعَلَم بلدها جمهورية اليمن الدِّيموقراطيَّة الشَّعبيَّة، وهي تؤدِّي بلا هوادة ضمن الفرقة الوطنية لوحات راقصة، فلكورية إنما بها الكثير من شَغَفها بالحياة وتوقها للتَّحرُّر، وشابّ يروم دوراً يُذكِّره به التاريخ، حتَّى لو كان في صورة خاتمة مأساوية، أو في أقلِّ تقدير كاتب مذكّرات لها.

وقالت بعد أن حشرت الرواية ضمن أشياء يغصُّ بها أسفل الطاولة، وفي شبه تفسير للحلم إنه ما ظهر لها في المنام، إلَّا لأنه رغب في الاطمئنان على قَدَمَيْها، أو ما عاد في وسعه تحمُّل عدم رؤيتها ترقص قدَّامه. لكنْ، هل تراه عرف بما جرى لي؟ تساءلت وهي تجيل بصرها حولها. ومرَّ وقت قصير قبل أن تروح توضح كم أنها تشتاق إلى الجماهير وانفعالاتهم، إلى التصفيق، إلى الأضواء عندما

تسطع في وجوه عناصر الفرقة، في وجهها هي. ما حياتي وقد أمست تخلو من كل ذلك؟! يُنصِت صلاح وهو يشيح ببصره عنها، وقد أذاه منظرها وهي تتخلَّص من الكتاب، هديته لها. تنتابه مشاعر مختلفة في كل مرَّة يزورها فيها، كأنَّما عثر على نفسه عندها من دون أيِّ ترتيب مُسبَّق.

ورأى جسمها يهتزُّ، وعرف أنها تبكي، رغم أن ما تبقَّى لها من كبرياء لا يسمح لها أن تجهر بانفعالاتها. وسمعها تحاول تنقية صوتها من البكاء، وستعود إلى سيرة جياب، فتقول: يقيناً، هو يدرك أنهم لا يحسدونه، لأنهم هم مَنْ جعله في مَرمَى الحسد، دفعوا الجماهير إلى محبَّته والتَّولُّه به، إلى حَدِّ تحمُّل عناء الوقوف طويلاً عند سماع خطاباته. وفَّروا له كل شيء، ليكون سقوطه مُدوِّياً.

في خضمِّ انهماكها في الكلام، رمقت صلاح بنظرة بلا معنى، ثمَّ سرعان ما عادت لتُحدِّق فيه، وأطالت هذه المرَّة، كأنَّما تراه للمرَّة الأولى، أو أنها عثرت على نفسها تبوح له بتفاصيل، كأنَّما كان ينبغي مرور وقت حتَّى تأمنه أوَّلاً، قبل أن تروح تقول كل شيء بلا تحفُّظ. في المقابل، لم يتمالك صلاح نفسه، وهو يرى وجهها يُنكره، وساورتْهُ الرغبة في الانصراف بشكل فظٍّ. بيد أنه تخطَّى الموقف، وأحال ذلك إلى حالتها التي تسوء تدريجيَّاً. ثمَّ إنها أخذت تستأنف ما بدأتْهُ من كلام عمَّا ما أَسمتْهُ السنوات الصعبة.

لا أنا ولا سواي في الفرقة الوطنية أدرك ما المطلوب منَّا، وإن تسنَّى لنا ذلك، فإنه كان من العسير علينا معرفة كيف

نفعله. وبقينا نقدِّم عروضاً فلكلورية، لم يداخلْنا الرضا الكامل عنها. كنَّا كَمَنْ يسير في أثناء النوم، أو كَمَنْ يتخلَّل ضباباً، أيدينا ممدودة أمامنا مخافة التَّعثُّر والوقوع. في تلك السنوات، لم نرقص بأرواحنا كما تعلَّمْنا. مع تأسيس الحزب الاشتراكي في أواخر السَّبعينيَّات تدريجيَّاً كانت الحياة تأخذ في التَّغيُّر. في خضمِّ كل ذلك، وقبله أيضاً، كانت صورة جياب ورفاقه قد استحوذت علينا وخدَّرتْنا، مثيرة فينا تشويشاً عميقاً، يقذف بنا من ضفَّة إلى أخرى، نقيضها، لهذا السبب رحْنا نُذعن لتلك القبضة الحديدية، كَمَنْ يتلذَّذ بالقسوة المفرِطة.

يُنصِت إليها صلاح، ويُقاوِم في الوقت نفسه، أدنى رغبة في الاصطفاف معها حول ما قالتْهُ. وسكت عن البوح، لم يقل إنه أيضاً خبر بعضاً من ذلك، في ضوء الحماسة التي كانت البلاد كلها محمولة على أجنحتها. أغمض عينَيْه، وراح يُومِئ برأسه مرَّات زهواً، وربَّما غير مُصدِّق، وهو يستعيد حين طلب منه تقديم حلقة تثقيف في الثورة على الإقطاع ومقاومة الاستبداد لأساتذة جامعة، درسوا الإيديولوجيا الماركسية في معاهد موسكو وجامعات ألمانيا الشَّرقيَّة، ثمَّ علَّموها تالياً لطَلَبَة معهد الاشتراكية العلمية في عدن. تردَّد يومها خوفاً من الفشل، فهو عديم الخبرة فيما يُراد منه تثقيف الآخرين حوله، غير أنه، يا لوقاحته، استطاع القيام بالأمر. لن يفشي لها كيف كانت نظراتهم له، أولئك الأكاديميون، خليطاً من الاستنكار والاستخفاف والشفقة أيضاً. تلا عليهم يومها بينما يُبصر جباه بعضهم

تتصبَّب عَرَقَاً، دروساً نسخَها من كرَّاسات، يُصدرها الحزب، تحوي تبسيطاً لمفاهيم معقَّدة.لن يذكر لها أنه ماكان قادراً على رفض القيام بالمهمَّة، ولا هم كانوا يجرؤون على الاحتجاج أن يُثقِّفهم شخص جاهل فيما أفنوا أعواماً في التَّعمُّق فيه. ولن يصارحها بأن أكثر أيَّام النحس، التي يُقدّر لها أن تلازِم شخصاً ما في ذلك العهد، يستحيل أن تجلب لهذا الشخص ما يتحتَّم عليه مواجهته، في ما لو عُثر عليه يُكلِّم غريباً، عربياً كان أو أجنبيَّاً، فعل كهذا سيقذف، لامحالة، بصاحبه في ظلام قاحل، وسيمضي وقت لا حصر له حتَّى تتعرَّف عيناه الضوء ثانية. ومحال أن يحكي لها عن الحفلات الغنائية في السينما الشَّعبيَّة، وكيف كان هو وقطيع من الرِّيفيِّيْن والكادحين يأخذون مقاعدهم أمام الفنَّانين، حتَّى إذا لم يغنُّوا للثُّوَّار تكتسح الحفلة فوضى عارمة، بداية بأصواتهم التي تعلو تدريجياً، ثمَّ بافتعال شجار، لا ينجو منه أحد. لكنْ، هل هذا كل شيء؟ سيتذكَّر بلا خجل في ذلك الريف فقيهَيْن، حلقوا لهما لحيَتَيْهما، ووُضعت في أقدامهما الأغلال، لأنهما لم يمتثلا للتعليمات حول تقنين الشعائر الدِّينيَّة. ولن ينسى شيخ قبيلة طالما رسخ في دواخلهم كم هم عاجزون وبلا حيلة، حين كان يتجوَّل متباهياً فوق فَرَس ضخمة، كيف جرَّدوه من عمامته، ومرَّغوها بأرجلهم في التراب. ورغب بشدَّة أن يُخبرها، كيف انضمَّ لمظاهرات الأيَّام المجيدة التي اكتسحت عدن، قادمة من الأرياف والقرى في بدايات السَّبعينيَّات، عندما كان يهتف مع أشباهه من الرِّيفيِّيْن

الشباب، "سالمين نحن أشبالك. وأفكارك لنا مصباح"، مطالبين بتخفيض الرواتب وتحرير المرأة وحرق الحجاب.

لكنْ، لِمَ عساه يتذكَّر كل ذلك؟ فما جرى كان هدفه التَّخلُّص من المنافقين والدراويش وأعداء الثورة.ورفع رأسه ناحيتها، وهَمَّ أن يقول لها، إن هواهم كان صينياً في تلك الأيَّام، حيث الثورة الثَّقافيَّة على الطريقة اليمنية، لكنه لم يرَها. يتخيَّل ضباباً أو أدخنة تتقلَّب في ألوان كابية تحجبه عن نورا. وأخيراً أبصرها تُمسك بركبَتَيْها وبأعلى ساقَيْها، كأنَّما تحاول القبض على الألم، عند هذه النقطة، قبل أن ينتشر في أنحاء جسمها. وسمع صوتها مُجهَداً يتذمَّر: يوماً بعد يوم أرى جسدي، كما يرى المرء عدوَّاً له. وستسعى، تدريجيَّاً، للتَّغلُّب على نوبة الألم، كما في كل مرَّة تُداهمها.

وجال في خاطره أن يدفعها إلى الكلام دفعاً عمَّنْ فعل ذلك بقَدَمَيْها، وبعد تفكير لبُرْهَة تقاعس عن ذلك، وأراد الرحيل حين قدَّر أن الساعة تخطَّت السابعة.

بغتة أصبح في وسع الجميع الإصغاء لأُغنيَّة وطنية، بإيقاع راقص وصاخب معاً، تروح تقتحمهم مقبلة من بعيد حتَّى اقتربت منهم، فإذا هي من مسجِّلة سيَّارة بيجو قديمة. لكنْ، ما لبث بقطاش أن عاود الكلام، وهو يرتشف من كوب شاي أمامه، قائلاً:"يملؤني الزهو في أحايين كثيرة بما كنَّا نتبنَّاه، وما زلنا متمسِّكين به، إلَّا أن الحياة تُثبت لنا أن الانسلاخ من الجِلْد، ممَّا نحن عليه، أمر ممكن، ممَّا يجعلنا في مهبِّ شكٍّ كبير". وبدا أن شيئاً لا يزال يشغله،

وسرعان ما أضاف بعد أن حدَّق قليلاً في سناء، في ما يشبه الاستدراك، "لعلَّ الفلسطيني دوافعه إلى ذلك الانسلاخ مختلفة". وتذكَّر فجأة علاقة لم تطلْ ربطتْهُ بها، إلَّا أنهما بقيا رفيقَيْن، تشدُّهما أواصر، يظنَّان أنها متينة بما يكفي، بل أقوى من عاطفة الحُبِّ. ورغم هذا التباعد العاطفي، فإن نضال لا يزال يكنُّ بغضاً لبقطاش، كما لم يسامح سناء على ما اعتبره سلوكاً طائشاً منها.

ما إن نظر بقطاش إلى سناء التي تحتسي قهوة سوداء من دون سُكِّر، حتَّى فرَّت بنظراتها متعقِّبة أضواء حمراء لسيَّارات في طريقها إلى شارع مدرم. لم ترقْ إيماءاته لنضال، المنسلخ من جِلْده وممَّا كانه، لأي من الجالسين. يعتقد عبَّاس أن لا شيء يمكن أن يبرِّر لامرئ تنكُّره لنفسه، فكيف الحال بنضال تحديداً، الذي لا يكفُّ عن اقتراف أفعال شائنة بحقِّ سناء، أو آخرين يتعاملون معه على مدار اليوم؟! وهو يرمق الوجوه حوله بنظرة فاترة، أضاف أن نضال ضحية وجلَّاد في آنٍ، ضحية لجلَّاد آخر، لا يمتُّ له بصلة، في حين يُجسِّد جلَّاداً لضحية أخرى، تشدُّها إليه أكثر من آصرة. ووضَّح صلاح أنه ليس لديه أيُّ رغبة، ولو ضئيلة، في تبديد الوقت، دفاعاً عن السلوك المتعجرف لنضال.

وكأنما لم تشأ سناء الخوض في موضوع كهذا، أخذت تقول إنها لم يغمض لها جفن من يومَيْن. وأخذت تقصُّ عليهم حكاية جدَّتها التي، بين آنٍ وآخر، تتخيَّل أنها أضاعت المفتاح، فتروح تُفتِّش عنه في كل زوايا البيت

وفي الأدراج الصغيرة والأرفف والحقائب الكبيرة المركونة فوق خزانة الملابس. قالت إن جدَّتها تنفعل، ويعلو تذمُّرها حين ترى أنها واقفة تتفرَّج عليها، من دون أن تُبادر في مساعدتها بالبحث عن المفتاح. تظنُّ جدَّتها أنها لن تُقَدَّر لها العودة من دون المفتاح إلى ديارها ثانية. وأكَّدت سناء أن جدَّتها لا يمكن أن تُضيِّع هذه القطعة من الحديد، وأنها قد تعثر عليه ضمن طيَّات ثياب جديدة، تتفقَّدها بين يوم وآخر حين تشعر بدُنُوِّ الرحيل. وأرادت القول إنه لو استمرَّت جدَّتها في حالها هذه، فقد لا تعرف النوم لليالٍ مقبلة.وابتلعت ما تبقَّى في فنجان القهوة، وشربت ماءً، وقالت إن المفتاح يتحوَّل شيئاً فشيئاً إلى شكل للتعبير عن تمسُّكنا بحقِّ العودة، من دون أن يعني أننا فعلاً نملك بيوتاً، ولنا أهل هناك. ووضَّحت أن جدَّتها في لحظات كثيرة تعرف أنها لن تستطيع أن تعود، وتبقى، مع ذلك، تتشبَّث بالمفتاح، كنتُ أراه بين أصابعها وهي تتأمَّله وتتحدَّث معه أحياناً. وكنتُ أقعد بجوارها، وتمرُّ ثوانٍ ودقائق وهي غير دارية بوجودي قُربها، وحين تعرف تبدأ تصف لي أيَّ الطُّرُق ستقطع، فيما لو أُتيحت لها العودة إلى كفل حارس، قريتنا التي تنتشر فيها أشجار الزيتون والتين واللوز، وما الأزقَّة التي ستختصر لها الوصول إلى بيتنا. وفي لحظة ستصمت جدَّتي، وستعرف أنني أعرف أنها لن تعود، فتدفعُني دفعاً إلى الانصراف، طالبة أن أصنع لها شاياً بالميرامية. وحدَّقت سناء في وجوه أصحابها، وهزَّت

رأسها مرَّات، وكأنها تعتذر لهم، على إقحامها لهم في حكايتها مع جدَّتها.

لا يلبث عبَّاس أن ينتزع نفسه من جوِّ المقهى، شحيح الإضاءة، ويطلُّ عليه مبنى المؤتمر العمَّاليّ، ويستسلم لهواجسه. التقط صحيفة الثَّوريّ، جريدة الحزب، وفتحها على صفحة المقالات، وانغمس قليلاً في القراءة، ثمَّ توقف، وأخذت نظراته تتأمَّل صور بعض المسؤولين الأممين، الذين يزورون عدن حاليَّاً، ثمَّ يُغلق الصحيفة، ويتركها قُرب يده. في كل مرَّة تتوالى الهواجس في رأسه، لتصنع حقيقة حول ما يحدث في بلاده، سرعان ما تتحوَّل هذه الحقيقة تحت ضربات الواقع المتتالية إلى هشاشة، يسهل دحضها. ها هو يصغي، رغماً عنه هو الذي فكَّر أحياناً أنه أصبح خارج كل المخاوف، في نأيٍ تامٍّ عن أياديهم، لأحدهم يقول إن النظام هناك لا يزال يتعقَّب، في كل مكان، مَنْ يسمِّيهم الخونة. "ماذا يتعيّن عليَّ أن أدفع وأسير ثانية في وعورة جبال كردستان؟". ولمَّا لم يُعلِّق أحد، كأنَّما باغتَهم ما تفوَّه به، واصل عبَّاس، ولا يدري لأيِّ سبب يأخذ في حكي ما يحكيه الآن، كلامه عن معركة صغيرة اندلعت في زمن الكفاح المسلَّح رفقة البيشمركة، وكيف أنه نسي كل شيء، وانطلق يتخلَّل زخَّات الرصاص، ليُنقذ رفيقاً، كان للتَّوِ باح له أنه أخيراً عثر على فتاة تُحبُّه، فأخذ متأثِّراً يكتب أشعاراً، ويرسم لها وجوهاً مختلفة، كلها تشبه أقماراً في اكتمالها. "حرام مثل هذا يموت. خلِّيه يعيش أوقاتاً جميلة مع حبيبته. ولا مفرَّ

من الموت". برَّر آنذاك لرفاقه من أنصار الحزب الشّيوعيّ مخاطرته، ليس بروحه فقط، إنما بأرواحهم جميعاً. سقط مرَّة مع آخرين في كمين، وقُتل بعض رفاقه. نجح ومعه اثنان في الفرار، وعاش بعدها متخفِّياً، حتَّى عثر على رفقة تخطِّط للهرب خارج البلاد، فالتحق بهم.

صلاح ينظر ناحية الطريق، ويرى السَّيَّارات تشحُّ، وفوق الرصيف تتلاشى تدريجيَّاً زحمة العابرين. يستحيل أن تتداعى إلى ذاكرته طواعية الصورة التي كانت لهذا الشارع واندثرت بعد الاستقلال، إنما تطفر بقوَّة، تندفع من عتمة ماضيه رغماً عنه، كأنَّما لتجعله شاهداً على مواجهة بين زمَنَيْن أو هيئَتَيْن لمكان واحد، يترك كل منهما في داخله شعوراً مختلفاً، له حصَّة من المرارة تارة والنشوة العارمة، تارة أخرى. في تلك الصورة يشبه الشارع نهراً تُموِّجه عربات فارهة، يمتطيها إنجليز وبعض من علية عدن، وتنيرليلاً ضفَّتَيْه أضواء محالِّ الماركات العالمية الشهيرة، تتزاحم خلل واجهاتها الزُّجاجيَّة التعبيرات المندهشة، لوجوه السّيّاح، من أصقاع متباعدة. حين يُقدّر له زيارة عدن في تلك الأزمنة، ويمرُّ بهذا الطريق، يكون غير مرئيٍّ بالمرَّة، وحيناً في شكل لطخة شائهة تُعكِّر رونق المنظر. رفع كوب الشاي، ورمق المتبقَّي في القعر، تأمَّل بصمات أصابعه، بدت منفّرة على الزجاج الصقيل، وبدلاً من الإتيان عليه بجرعة واحدة، اكتفى بأن ابتلع ريقه، وحوَّل نظره إلى شارع المعلَّا ثانية، كان قد تحوَّل من الماين رووود، في ذلك الطور من أطوار عدن، إلى

مجرَّد شارع في هذه الأيَّام، يحمل اسم الشهيد مدرم.ويحاول صلاح، دون نجاح، أن يستنهض شعوراً بالزهو، أن الشارع ودَّع، بلا رجعة، وجهه الإمبريالي، وأضحى يزدان بأحد أبطال الثورة.

وعلى نحو مباغت، أخذ يدندن بكلمات الأُغنيَّة الوطنية التي اقتحمتْهم قبل قليل من سيَّارة بيجو، تتكلَّم عن باص الحزب الذي لا يجدر التَّخلُّف عن ركوبه، لينزل الجميع معاً في محطَّة الرفاه المنشود.

سينتزعه عبَّاس ممَّا هو فيه، ويسمعه يقول إن العراقيّيْن يتساقطون في شوارع غريبة، في مُدُن بعيدة، وأن لا أحد يعرف سبب سقوطهم، سوى بعد أن يروا الدم قد شكَّل بقعة داكنة أسفلهم. وإنهم لا يتذكَّرون سماع طلق ناري، وإن كاتم الصوت هو السَّيِّد الذي يُخلِّف دماء طريَّة وساخنة، بلا أدنى جلبة. تميّز عبَّاس، الذي يستغرق الآن في قراءة أحد مواضيع مجلَّة النهج التي جلبها معه، قامة طويلة وبُنِّيَّة رياضية. يلبس على الدوام بنطلوناً وجاكيتاً من الجينز. وفجأة خفض رأسه، واعتراه شعور بالمهانة، حين تذكَّر عنفاً جسديَّاً مشيناً، ارتُكب في رفيق، لم تربطه به علاقة مباشرة. التقاه عبَّاس مرَّة في اجتماع سرِّيٍّ، ولم يستطع نسيانه. هادئ، يجهد في تذكُّره، إلَّا أن تقاطيع وجهه تنمُّ عن جدِّيَّة مفرطة، لم يكن يُبدِّدها في غلوّ شعاراتيٍّ مملٍّ، فكانت تعليقاته قصيرة، لكنْ، حادَّة. تُردِّد أنهم ساوموه، ولم يرضخ لهم، فهتكوا عرضه. الغريب أنه بقي متماسكاً. لم يشعروا، عندما رأوه أكثر من مرَّة بِعد أن ذاع خبر

الحادثة، أنه مُهان ويعيش في الخزي، إلّا أنه اختفى فجأة، ولم يعد أحد يراه.

تحت ما يشبه ضغطاً لشعور رهيب، لا شعوريَّاً نهض عبَّاس واقفاً، حَدَّ أن الطاولة اهتزَّت وارتطمت كؤوس الشاي وأقداح القهوة ببعضها البعض، مسح المكان بنظرة واسعة، من دون أن يُركِّز في أحد بعينه، وذكر أن بعضهم ظنَّ أن ذلك الرفيق كان يتباهى بصنيع أولئك الجلَّادين، وأنه حوَّله إلى نقطة قوَّة، فلجؤوا إلى التَّخلُّص منه لإنقاذ ما تبقَّى من صورتهم. غطَّى الوجوم وجوه البقية، بينما ينتظرون متى سيجلس ثانية. وكانت الرطوبة تجعل هواء الليل ثقيلاً ولزجاً.

7

إيذائي؟

نطقت مستفسرة، ومسَّ القلقُ نبرةَ صوتها. ومضت لحظة، خلالها راحت بلطف تنفض بظاهر يدها البنطلون الواسع من الكتَّان، برتقالي وطويل بما يكفي، ليُخفي قَدَمَيْها، تُخلِّصه ممَّا علق به من أشياء لا يراها صلاح، الذي همَّ بالتوضيح أن سؤالاً كهذا لم يساوره أبداً من قبل، وأنه يستبعد نهائيَّاً أن يكون خصوم جياب، كان في نيَّتهم كسره، من طريق إيقاع الأذى بها. لكنها كانت قد استأنفت الكلام عن جنرال ألحَّ في لقائها.

قالت إنها تمنَّعت مرَّات، ثمَّ وافقت وذهبت إليه في مقرِّ عمله، وفق طلبه. ووضَّحت أن ذلك الجنرال تأخَّر كثيراً يومئذ في المكتب، ولم تدرِ إذا ما كان تأخُّره لا يخرج عن

الروتين المعتاد لطبيعة عمله، أم أن أمراً ما جعل منه استثناء في ذلك اليوم؟ كانوا يجتمعون في الداخل، وكان يمكن لها لو أرخت سمعها قليلاً، أن تصغي إلى نقاش يحتدم. كان أحد الرفاق، قصيراً بشَعْر أغبر خفيف في مقدّمة رأسه، وبملامح شبه متجلِّدة رغم محاولته، هكذا لاحظت، أن يبدو غير ذلك، قد طلب أن تنتظر في هذه الحجرة تحديداً، التي تصادف، وربَّما لا وجود للمصادفة هنا، أنها قريبة من مكان اجتماعهم. إلَّا أنها كانت في الحين نفسه تشعر بصمت كثيف يحيطها. تحسُّ بجدران المكتب التي لها لون أبيض، تقترب منها كأنَّما توشك أن تهصر ضلوعها. واهتدت فجأة إلى النافذة، ورغم أن غالبية النوافذ باستطالات عالية، إلَّا أن غرابة داخلتْها بسبب حجم هذه الذي بدا لها غير مألوف، فتحتْها وشهقت في الحال للمنظر الذي وقعت عيناها عليه في الأسفل. لم تتخيَّل المبنى شاهقاً إلى هذا الحَدِّ، كان المبنى يقع على سلسلة من التلال. تحتها، كان المشهد يجمع بين طرف من البحر، تنعكس عليها أشعَّة ساطعة، وجزء من تلك المباني التي خلَّفها الإنجليز جديدة، وسكنها ضبَّاط، ثمَّ أُسر من الأرياف. على الفور بدَّد المنظر الوحشة التي راحت تقضم قلبها رويداً، بينما تنتظره يخرج من الاجتماع. وفكَّرت في سبب وجودها، فكَّرت كم تُحبُّ هذه المدينة، وكم تشعر بالرعب منها في أحايين، من دون أن تدري لماذا.

كان الجنرال قد التقاها أوَّل مرَّة، في نادي الدّبلوماسيِّيْن بعد حفلة استقبال لوفد أممي من ألمانيا الشَّرقيَّة، جاء لتطوير

أجهزة الأمن. وسمعت إطراء لم تعتد سماعه من أيِّ أحد، سوى جياب نفسه. كلماته قليلة لا تدري كيف مزجها بالشَّغَف بالوطن. جعل منها على الفور شخصية أخرى، للتَّوِّ انتهت من مهمَّة على قدر عالٍ من السِّرِّيَّة.

قالت إن تفضيله أن يراها في المكتب جعله في نظرها شخصاً مختلفاً، إلَّا أن ذلك ضاعف مخاوفها.

يعود صلاح ليقرَّ أنه تحت ضغط أفكار وهواجس، ما عاد قادراً على كتمها، لم يستطع إلَّا أن يطرح عليها ذلك السؤال، وكأنما مَنْ سألها عنهم ليسوا رفاقه أيضاً، ويجدر به معرفتهم أكثر منها، وظهر لنفسه أنه كَمَنْ ينأى عنهم، أو ما قدر يوماً أن يفهمهم ويكون واحداً منهم. ولا يجد مفرَّاً من مواصلة الإنصات، شاعراً أنه في طريقه لولوج متاهة.

ذكرت نورا أنها تردَّدت قليلاً قبل أن تُغلق النافذة تفادياً لأيِّ انزعاج، قد تسبِّبه لأولئك الذين يواصلون اجتماعهم، وعادت إلى مقعدها. مسحت ثانية بنظراتها سطح المكتب، ملفَّات وطرود بريدية مفتوحة، وأخرى لم تُفتَح، ومجلَّدان سميكان فوق بعضهما، كل ذلك من دون ترتيب. لم يعترِها الفضول لمعرفة ما بداخل كل هذه الأوراق. كانت فقط تنتظر أن يخرج ويقول لها السبب الذي طلبها من أجله. وسمعت جلبة، ثمَّ باباً يُفتَح ويُغلَق، ثمَّ يُفتَح ثانية. وتسلَّل إليها نقاشهما واضحاً مع صدى باهت يتردَّد في المكان. وراحت تُنصت لصوت، لم تحتج إلى مشقَّة لتتعرَّفه، كان

صوته هو، يقول "لا مفرَّ من محاكمته". من الواضح أنه يتكلَّم عن شخص لا حضور له بينهم. انتهى الاجتماع، ثمَّ ظهر مُرهَقاً قليلاً، واندفعا إلى الخارج.

وهو يأخذها في جولة بسيَّارة بيضاء من نوع لادا، طالت أكثر بقليل ممَّا تصوَّرت، خطر لها، فيما ترى الانعكاس الفاتر للشمس على صفحة البحر، على قمم التلال الجرداء، على الواجهات الزُّجاجيَّة لمحالّ بسيطة تنتشر طوال الطريق، وتتلمَّسه يسقط في داخلها، فيُشيع جوَّاً من النفور، أن تسأله عن الشخص الذي لا مفرَّ من محاكمته، لكنها عوضاً عن ذلك سألتْهُ إن كانت عدن تعني له شيئاً مختلفاً في كل فصل؟ كان فصلاً متجهِّماً، كأنَّ كل الفصول تتواطأ على المدينة والبشر. وشعرت بالارتياح لاندفاعه في الكلام، حين قال: "أقرب ما تكون إلى هافانا أو صوفيا. ليس تماماً، ولكنها في كل فصل تظهر لي وجهاً لمدينة اشتراكية". كان كَمَنْ انتظر طويلاً ليسأله شخص ما عن عدن. في ما يخصُّها بدا لها كلامه بلا معنى، وداخلها الضجر على الفور.

"يُعجبُني رقصكِ"، قال فجأة. وأضاف أنها عندما ترقص لا يعود هو يرى بقية أفراد الفرقة. فقط هي، مجرَّد متفرِّج وراقصة. ها هو أيضاً يدفعها إلى منطقة من التفكير لم تتعوَّدها. لم تعد عضواً في فرقة، تحوَّلت شخصية غريبة عنها، بقدر ما أحبَّتْها وكأنَّها كانت تنتظر إطلالتها من أين لا تعلم؟ بقدر ما راحت آنئذٍ في كرهها.

يشعر صلاح بلسانه مثل قطعة خشب جافَّة، وحاول مراراً مقاومة العطش، وفي النهاية لم يستطع، فنهض من مقعده، واتَّجه ناحية زجاجة ماء، تستقرُّ فوق طاولة، تقع بين الباب وممرٍّ يفضي إلى المطبخ، وهَمَّ بملء كوب، ليشرب، لكن نورا منعتْهُ. وسمعها تطلب منه التَّوجُّه للمطبخ، وجَلْب دورق ليمون من الثلاجة. تبع ممرَّاً مريحاً، لكنْ، تكتنفه ظلال خفيفة. على جانبَيْه صور عديدة، واحدة لها بقلم رصاص، تُمسك فيها بزهرة بدت له غريبة، وتضعها أمام أنفها. في المطبخ تغرق الأشياء في الإهمال. درج مفتوح، يرى أدوات حادَّة صغيرة، تطفو فوق حافَّته الحديدية. الأرفف العلوية نصف مغلقة. فوق الطاولة، في منتصف المطبخ، تكتظُّ علب معدنية وبرطمانات خالية، وبعضها نصف ممتلئة بأشياء، لم يُميِّزها. تقدَّم ناحية الثَّلَّاجة، وفتحها، وما إن رأى دورق الليمون حتَّى خطفه، ثمَّ بحث عن أكواب نظيفة، وحمل اثنَيْن، وخرج مسرعاً. عبَّأ الكوبَيْن حتَّى حافَّتهما، ناولها كوباً، وأخذ الآخر، وعاد إلى مقعده. ورغم ظمئه إلَّا أنه تمهَّل أكثر من اللَّازم، قبل أن يأخذ جرعات كبيرة من المشروب البارد، بنكهة تُشبه طعم الريحان.

رفعت نورا رأسها، وجعلت تتملَّى في الصور، وساورها خاطر أنها كانت أكثر من شخصية واحدة، أكثر من نورا. نورا التي عاشت في كنف أسرة إنجليزية، تركها والدها عندها، عندما كان يذهب، ويطيل الغياب، إلى أفريقيا لإبرام صفقات المواشي لتوريدها للجيش البريطاني،

غيرها التي عرفت الأضواء في مسارح وطنية، تمتدُّ من الجزائر وبودابست إلى هافانا وموسكو وغيرها من البلدان. وبالتأكيد الاثنتان تختلفان عن نورا، التي تعيش اليوم عذاباً يقهرها بسبب قَدَمَيْها المعطوبَتَيْن، واختفاء جياب. إلَّا أنها لم تقدر على فَهْم الآصرة التي قيَّدتها إلى شخص، نال من والدها ومن لقبه العائلي، وسرَّح أخاها من الجيش، خلال حملة تحزيب الجيش وإضعافه، ببناء ميليشيات شعبية، يشرف عليها الكوبيون. ثمَّ ستخفض عينَيْها إلى أسفل، وتُومِئ برأسها، كَمَنْ يتحدَّث بأسى مع نفسه، وما لبثت أن قالت وهي تحدِّق في إحدى صور جياب: مرَّات أحلم به يحمل لي أزهاراً وشوكولاته. في أحلامي به لا أرى وجهه كثيراً، غالباً يَدَيْه فقط، صدره، بطنه الضامر. أحياناً أشعر به هنا إلى جواري، أستطيع أن ألمسه، وأن أستسلم لذراعَيْه، وأن تواتيني الجرأة أحياناً، وأُمزِّق قميصه، وأُعرِّيه من لباسه الدَّاخليّ، وألعق جسمه، وأداعب شَعْر صدره، وأتنشَّق إبطَيْه. كم مرَّة قلتُ له هيَّا لنخرج ولا يتلكَّأ. خطوات قليلة ونكون معاً خارج المنزل. يحاول هو أن يُخبِّئ وجهه عن الآخرين، كنَّا نقتحم شوارع معتمة، في طريقنا إلى مطعم، لا يرتاده عادة مَنْ يعرفوننا، أو نادٍ يكون مَنْ نخشى وجودهم قد غادروه أو لن يأتوا، نكون نعرف أين يسهرون الليلة، ولا يعدم هو السُّبُل إلى كشف ذلك.

يتناهى إلى صلاح صوت نورا، وتخطر له علاقته بها، وماذا صنعت به مشاويره إلى منزلها. وهو يمضي إلى

بيتها كل مساء تقريباً، راكباً إحدى تلك الحافلات التي جلبتْها الحكومة من أوروبا الشَّرقيَّة، وخلال النوافذ المفتوحة يُبصر في كل مرَّة روساً يزيدون حيناً وينقصون حيناً آخر، في مقهى إلى اليسار بعد نهاية ساحة العروض، وهم يحتسون مشاريبهم، ويقهقهون بلا صوت، يتصوَّر أنهم لا يقطعون مسافة طويلة مشياً على أرجلهم لبلوغ المقهى، فغالبية الروس يقطنون في تلك المنطقة التي تُميِّزها النظافة، وبها جميع الخدمات الممكن توفُّرها في مدينة قاحلة، بالنسبة إليهم كعدن، ويخطف لمرَّة جديدة اسم مطعم يُذكِّر بالليالي العربية، وسيرى الغربان في صورة لطخ سوداء وهي تطير من نافذة إلى أخرى، في مبنى لأحد مكاتب لجان الدفاع عن الثورة، وسيقرأ ثانية وثالثة ورابعة الشعار فوق الجدران وعلى طول بنايات شاهقة، "لا صوت يعلو فوق صوت الحزب"، وسيتملَّكه مثل كل مرَّة زهو بلا حدود، ثمَّ ينكفئ ببصره إلى داخل الحافلة، ليجد نفسه محشوراً بين ركَّاب، تتمايل أجسادهم بينما يفكِّرون في رطوبة لزجة، تخنق أنفاسهم، نساء ورجال وأطفال وجنود وضابطان برتبَتَيْن عاليَتَيْن، أحدهما أخذ بالقبَّعة يمسح العَرَق عن صلعته، ثمَّ يُهيِّئ نفسه ما إن يلج منزلها، ويأخذ مقعده، تفصله عنها بضعة أمتار، ليكون شخصاً مختلفاً، يستولي عليه الحرص على زرع الثقة من ناحيته في نفسها. غير أنها لا ترى سوى نفسها، ولا تتحدَّث إلَّا عنه، ذلك الغائب.

لكنْ، هل حدث لكِ مكروه يومئذ، أقصد...؟

ظنَّ صلاح أنها لن تُكمل ما بدأتْهُ عن الجنرال، أو أنها سهت عنه، ففكَّر أنه لا بدَّ من تذكيرها، لكنها سرعان ما عادت تتكلَّم، حتَّى قبل أن يُنهي استفساره، قائلة إن رغبة تملَّكتْها، بينما كانا في السَّيَّارة، أن تشمل وجه ذلك القيادي بنظرة واحدة، وأنها حاولت أن تفعل، لكنها فشلت. لم تمسّ شفتاها الكوب، بقيت ممسكة به بكلتا يَدَيْها، فيما هي تستأنف الحكي. في الواقع لم أقدر على رؤية وجهه بكامل تفاصيله، في أثناء ما كان مشغولاً بقيادة السَّيَّارة، وبالكلام معي في وقت واحد. وداهمني غثيان، شعرتُهُ يهدِّد كياني بلحظات لزجة. بيد أن ما رأيتُهُ من ذلك الوجه، من مكاني بجواره، بدا لي رطباً ويرتجف، ارتجافات خفيفة وعصبية، مع عجرفة سافرة، عدا أن فكَّه السُّفليَّ يأخذ في الحركة، كَمَنْ يمضغ شيئاً بتمهُّل، كما لو يريد الانفصال عن بقية الوجه. وشعرتُ بالرطوبة تضغط على أنفاسي، فمددتُ أصابعي إلى اليد الصغيرة في الباب لصقي، لأُحرِّكها من أجل أن ينزلق الزجاج إلى الأسفل، طلباً للهواء، لكنني لم أفطن إلى عدم وجود زجاج أصلاً، وكان الضجيج يدور حولي بصلافة. طلبه أن أزوره، ثمَّ ما سمعتُهُ من تهديد، وتلك الجولة التي لم أعرف لحظتها أين ستنتهي، كل تلك الأمور عمَّت كل حواسِّي، فبقيتُ جالسة بلا إدراك لما يحيط بي.

لم يكن عليها أن تسأل نفسها، لحظة كانا يتجوَّلان في الشّقّ الكولونيالي من عدن، إن كان يعرف بعلاقتهما، جياب وهي، أم لا؟ إذ كانت لم تتخلَّص بعد من الشعور المقبض

الذي انتابها في مكتبه. وانعطفت السَّيَّارة، لتأخذ شارعاً ضيِّقاً وطويلاً، بدا مقفراً، ثمَّ عبرت ميداناً فشارعاً ضيِّقاً آخر، ثمَّ لاح لها عند نهايته طابور من ناس ضجرين، يشترون خضاراً رخيصة. وفكَّرتُ أنه الحَرُّ. وفجأة لفَّني شعور بالفزع، حين انتبهتُ له وهو يُحدِّق في قَدَمي، ولم أدرِ كم من الوقت مضى وهو يفعل ذلك، ولم أمنع نفسي من التَّعجُّب أنه لم يتسبَّب في حادثة بالسَّيَّارة. ثمَّ سمعتْهُ وهو يقول لي: حافظي على رجليش. تنبَّهتُ للخشونة في صوته. وكان ينظر في وجهي هذه المرَّة، ومرَّة أخرى لم أفطن إلى ذلك سوى عندما هبَّت أنفاسه، فغمرتْني رائحة زنخة، شعرتُ بها تخنقني، وتبدَّت لي ملامح وجهه بلهاء وهو ينطق عبارته تلك. حينها أحسستُ بحاجة شديدة لأنفض رأسي بشدَّة، لأتخلَّص من كل ذلك.

ورآها صلاح تنظر الآن في كُتُب تحيط بها من كل صوب. وقدر صلاح أن يرى كُتُباً لكارل ماركس ولينين وأنجلز ولماو تسي تونغ وغيفارا وجورج بوليتزر وأخرى عن الفيتناميِّيْن هوشي منه وجياب، الذي استعار منه اسمه الحركي. بعض هذه الكُتُب من منشورات دار الهمداني، وبعضها الآخر تدعمها الحكومة، فتبيعها المكتبات بنصف سِعْرها، ويقدِّم بعضها تبسيطاً للأفكار الاشتراكية. ترك مقعده، وخطا خطوَتَيْن ناحية أقرب الكُتُب إليه. منحنياً شرع يقلِّب صفحات الكتاب سريعاً، ويعيده، ثمَّ يتناول كتاباً آخر، ويعثر فيه على ملاحظات بخطٍّ دقيق، وحين نجح في فَهْم بعضها هزَّ رأسه بزهو، إشارة إلى أنه يوافق على

فحواها. يترك الكُتُب، ويعود إلى مقعده. يراقبها تتوقّف بنظراتها عند تلك اللوحة، ورأى وجهها موشَّى بالظلال الغريبة نفسها، وحدَّث نفسه هذه المرَّة أن اللوحة لا بدَّ توحي لها بشيء، وإلَّا لماذا ترتبك كلَّما حانت منها التفاتة إليها. تنطوي اللوحة على تصوير سوريالي، لرجل يرفع زوجته عالياً، تاركاً إيَّاها تطفو بفستانها الوردي في الجزء العلوي من اللوحة، على مقربة من سماء، تحتها بيوت وحقول. كلاهما، الرجل والمرأة، أنيق ووسيم، يبتسمان لمَنْ يشاهدهما.

يعود تدريجيَّاً إلى نورا ذلك المساء في موسكو. بعيد انصرافهم، أولئك الرفاق، اقترب منها جياب، وكانت لا تزال تنظر إلى أسفل، وتفكِّر إن كانت ستتمكَّن من تعليق اللوحة التي اشترتْها للتَّوِ، ومال برأسه، ورآهم تحته، بينما يتلمَّس بأصابع إحدى يَدَيْه أصابعها، وستشعر هي ببرودة يده، وباضطرابها أيضاً. بدوا، من أعلى، وهم يسيرون، أثقل كثيراً ممَّا كانوا عليه حين دخولهم المنزل، على العكس ممَّا تصوَّر أنهم سيغادرون وهم يطيرون من النشوة، لإحرازهم نجاحاً استثنائيَّاً عندما انتزعوا موافقته. يرى الثلوج الكثيفة تمتصُّ أقدامهم، وهم ينتشلون أنفسهم منها، فيما أيديهم تُمسك بملابسهم الشِّتائيَّة الثقيلة. يتوقَّف أحدهم ليحكَّ أنفه بأصابع تجلَّدت داخل قفَّازات من الجِلْد، ظهر له يجد مشقَّة في تلمُّس أنفه أو كأنَّه يتفقَّده، بعده موجود أم تكسَّر؟ خطواتهم بطيئة، تتقدَّم في الطريق الضَّيِّق، تخطّوا الميدان الفضِّيّ، وقفزوا إلى رصيف

الشارع، ولمح خيالاتهم، يعكسها زجاج صقيل لبار ومحلّ للحلاقة، قبل أن ينعطفوا وتُخفيهم بناية شاهقة.

رغم الأوساخ وما يشبه الوحل تغطِّي نواحي من الثلج، شعر الرجل الذي تفتقده في كل دقيقة، بعينيه تتجرَّحان وتضربهما موجة صقيع، لها وقع ملمس مسامير حادَّة. لوى رأسه إلى داخل المنزل، كانت نورا لا تزال قريبة منه، فاحتضنها، وقبَّلها على خدِّها، ورفعت عينَيْن حائرَتَيْن إلى وجهه، ولمحتْ في حَدَقَتَيْه خشية ورسماً لمجهول. تخيَّلا الظلام الدامس يتدفَّق عمَّا قليل، وسستنبثق الكآبة من العيون الكثيرة لِلَّيل الرُّوسيِّ، وتدثُّر أرواحهم مثل كفن ثقيل. وبينما يُحدِّقان في اللهب وهو يخبو في المدفأة، خطر لهما معاً أنه حان الوقت للتَّخفُّف من هذه الكآبة، التي لا مفرَّ لهما من الإقرار أنها تبدو لهما مُحبَّبة، في بعض الأحيان، ثمَّ ركنا إلى الصمت طوال ذلك الليل.

مرَّة أخرى تصوَّر صلاح، أنها تجاهلت إكمال ما بدأتْهُ عن ذلك الجنرال، شأنها دائماً مع مواضيع مشابهة عديدة، إلَّا أنها بدت وهي في صمتها كما لو أن مسألة معقَّدة تشغلها. وسمع صوته يتردَّد مرتبِكاً: لكنْ، إلى ماذا انتهى مشواركِ مع ذلك الجنرال؟ وتوقَّع أن لا تردّ غير أنها وبعد لحظة قالت إنها انتظرت آنئذٍ، أن يبوحَ لها بما يريد منها، إلَّا أنه لم يقلْ شيئاً. غير أنني وهو يُكلِّمني عن نفسي انتابني شعور، أن ذهنه مشغول بجياب، الذي كان مسافراً في ذلك الحين.

نعم، لذلك قال أكثر من شيء واحد. إنما ليس لكَ.

تفوَّه صلاح وهو ينظر في صورة لجياب، التُقطت له في مقيل قات ربَّما، يلبس فيها الفوطة، ويعصب رأسه بشال ملوَّن، في أطرافه كرات صغيرة من صوف، وتجلس عن يمينه وشماله شخصيات عربية. وبقيت نورا صامتة، إلَّا أنها كانت تترقَّب ما سيضيفه صلاح. كانت كَمَنْ يختبر بداهته.

رام الجنرال من وراء هذا اللقاء القول لجياب، ولو من بعيد، إنهم أصبحوا أقرب إليه من نفسه هو. نطق صلاح موضِّحاً، وخطر له أنه لم يعد كما كان قبل دخوله بيت هذه المرأة المحطَّمة اليوم. شيئاً فشيئاً يتخلَّى فعليَّاً عن الرِّيفيِّ في داخله، يهجره.

التفتت نورا إليه، وهزَّت رأسها مؤمِّنة على ما قاله، وأخذت تشرب من كوب الليمون. وأبقت العصير قليلاً في فمها قبل أن تبتلعه، وذكرت أن بعضهم يسلك دروباً وعرة معها، غير أنها كانت أحياناً تتغلَّب عليهم بالحيلة. لكنْ، يتأكَّد لي اليوم أنني كنتُ واهمة في مسألة التَّغلُّب عليهم. وانتظر صلاح أن يهلَّ صوتها ثانية، لكن الصمت طال أكثر من طاقته على الاحتمال، واستطاع في الوقت نفسه أن يرى قَدَمَيْها ترتجفان.

8

"فايف أكلُك تي".

قالت، وأومأت له برأسها لأن يتناول قدحه. لم يكن في مستطاع صلاح حتَّى هذه اللحظة، أن يتفهَّم كيف للرفيق جياب أن تكون له علاقة بامرأة، ملوَّثة بالعادات الإمبريالية. يخال نفسه أحياناً شخصاً ليس بوسعه فَهْم ما يدور في رأسها. ويتفاجأ الآن أنه منذ أن بدأ يزورها، لم يبادرها بالحديث سوى مرَّتَيْن أو ثلاث كحَدٍّ أقصى.

يراها تشيح ببصرها بعيداً، ويسمعها تقول، وكأنما حدست ما يشغله: أنا أيضاً اشتراكية، اشتراكية صميم، لكنْ، على طريقتي. وبدا وجهها جادَّاً فيما تروح توضِّح: كانوا نجوماً مطلع سنوات الاستقلال، يشبهون أولئك الفرسان دائمي الظهور في الأفلام الهندية، التي كنَّا نشاهدها في قاعات السينما المكيَّفة، وهم يحاربون الإقطاعيِّيْن والإنجليز من ورائهم، ويتغلَّبون عليهم. لم أكن وحدي مَنْ تولَّهتُ بهم، أو بجياب وحده، تحت تأثير الهالة التي كنَّا نراها ترافقهم أينما ذهبوا.

وبعد لحظة، سترفع رأسها وتحدِّق في الصور حولها، ويسمعها تضيف: لكنني أكتشف اليوم أنني كنتُ مؤمنة به أكثر من الثورة والحزب، فيما كان شديد الإيمان بأحلامه، وكافراً برفاقه، عدداً منهم شبه أُمِّيٍّ، ومُتديِّن بصورة تدعو للرثاء. قالت أيضاً إنها أُغرمت بالإطلالات التِّلفزيونيَّة للرئيس سالمين، أمَّا عبد الفتَّاح إسماعيل، فبدا لهنَّ في تلك الأوقات أشبه بنجمة عالية، يتهيَّبنَ الاقتراب منها.

نهض صلاح، وتناول شايه ومعه قطعة كيك. دسَّ القطعة كاملة في فمه، وبقي ممسكاً بكوب الشاي بكلتا يَدَيْه، من دون أن يتناول منه رشفة واحدة. ويعثر على نفسه يفكِّر لمرَّة أخرى، في هذه العلاقة التي لم يقدر حتَّى هذه اللحظة أن يفهم كنهها، بين نورا ابنة شيخ قبيلة وتاجر وعميل إمبريالي وأخيها ضابط كبير، علَّمه جيش الاستعمار ودرَّبه، وبين جياب الثائر والماركسي، ومَنْ كان في طليعة مَنْ سلبوا شيوخ القبائل وأحفاد السلاطين ألقابهم، وهو مَنْ صفَّى، مع آخرين، كبار الضُّبَّاط في الجيش، واستبدل بهم الرِّيفيِّيْن والفدائيِّيْن، قصد تأمينه من القوى الرَّجعيَّة.

يراها ترنح الآن رأسها ببطء، مغمضة عينَيْها، وأنفها يرتفع قليلاً، كَمَنْ يبذل جهداً شاقّاً، ليتعرَّف رائحة ما تشغله. ثمَّ لن تطيلَ حتَّى تقول: شذى كوهيبا طالما خدَّرني، ذلك السيجار الكوبي الذي كان يرسله له الرئيس العراقي، ضمن مجموعة من كبار كوادر الحزب. لوَهْلَة، ظنَّ الرائحة تأتي من خيالاتها، لكنْ، سرعان ما أحنى رأسه، وأخذ يتشمَّم ملابسه. خرج اليوم باكراً من الدائرة، وذهب مباشرة إلى الفيلَّا، التي شغلها في ما مضى من أيَّام وفد عربي من إحدى دول الصمود، ثمَّ ما لبث أن غادرها ليلة البارحة. تناول هناك غداء خفيفاً، وأخذ غفوة حوالي الساعة. كان جوُّ الفيلَّا يعبق بالأدخنة السميكة والفاخرة نفسها، التي يُخلِّفها وراءهم الوفود الأممية.

ولكن جياب، واصلت الكلام، كفَّ منذ زمن عن تدخين ذلك السيجار الفاخر، الذي يُلفُّ يدويّاً كما يُشاع. يسرح صلاح

قليلاً، هو لا يستعيد الرائحة فقط، إنما المشاعر المرتبكة التي تتملَّكه، حين يعثر على تلك الأشياء في الفيلَّا، وإن كان لا يُنكر أنهم، هو وبقية أصدقائه، يقضون أوقاتاً استثنائية بفضلها. وذكرت أيضاً أن جياب دخَّن بعده سيجاراً يجيئه من كاسترو شخصيَّاً. يرسل له ولمسؤولين آخرين. وستحكي بينما تتلذَّذ بطَعْم الشاي وقطعة الكيك، أن كاسترو أُعجب به عندما ضمَّهم لقاءٌ على غداء. كان جياب أحد أعضاء الوفد الذي ذهب يطلب مزيداً من الدَّعْم، كزيادة في عدد الأطبَّاء، ومواصلة الإشراف على الميليشيات الشَّعبيَّة، وإقناع روسيا بتخفيض قيمة الفواتير المترتِّبة على عدن. يومها وفي قاعة ملحقة بالقصر تُطلُّ على حديقة، ويمكن رؤية الموظَّفين يروحون ويجيئون خلال الأشجار، قال كاسترو: خذوا من الروس ما استطعتُم، ولا تُرهِقوا أنفسكم بالتفكير في كيفية الوفاء بالديون. يومها وجد جياب فرصة ليسأل الرفيق فيديل: لماذا تُصرُّ على أن تكون المنتصر حتَّى في مجرَّد لعبة؟ لمس كاسترو بهدوء خصلات من لحيته، ولم يجبْهُ بكلمة، لكن وجهه شعَّ بابتسامة سيصفها جياب لاحقاً باللطيفة. لا، بأكثر الابتسامات تعبيراً. أكثر، حتَّى من ابتسامة بريجنيف الذي حين سمع منه "أنتَ بين رفاقكَ" بالرُّوسيَّة، بدا يصغي لكلمات تطلع من عمق سحيق، ولمح طيفاً باهتاً لابتسامة سرعان ما تبدَّدت في كتل اللحم، التي تغطِّي ذلك الوجه الذي عاش أكثر من اللزوم. كان على جياب السفر، ضمن وفد رسمي، إلى موسكو، في أواخر 1978، للقاء

بريجنيف، ليطلب منه التَّدخُّل في فكِّ العزلة، التي دُفِعَت إليها البلاد دَفْعاً من محيطها العربي، عقب أحداث يونيه في العام نفسه، التي خلالها الرفاق الرئيس سالمين، رفيقهم في النضال.

رمق انعكاس صورتها في شاشة التلفزيون المُطفأ، وخُيِّل له أنه يتأهَّب للولوج في مأزق خطر. فالمواقف التي تحكيها بصفتها تخصُّ جياب، بدا له أنها تعني رفاقاً آخرين. وهمَّ بمقاطعتها، خلال استطرادها في الكلام، والقول لها إن الرفيق منصر، لا جياب، هو مَنْ التقى الزعيم الكوبي في ذلك الحين، وليس في قاعة بباحة القصر، إنما في متحف وسط العاصمة هافانا، يضمُّ، كما قالوا، رفات أحد أبطال حرب السنوات العشر ضدَّ إسبانيا، لكنه بدلاً من ذلك فضَّل السكوت. يهجس أحياناً أن عطب قَدَمَيْها واختفاء جياب أَفقدَها التركيز، فأمست حياتها مبعثرة، تتكلَّم من دون تحرِّي الدِّقَّة عن أمور عديدة في وقت واحد.

يتحوَّل صوتها تدريجيَّاً في أُذنه إلى نقر خشن. دقَّات نحيلة لمطرقة في جدار صلب. ويعثر صلاح على نفسه بعيداً عنها، تغمره أصوات أخرى، دائماً يصغي إليها من أفواه كثيرة، تلتفُّ حول عبَّاس في كل مرَّة يلتقيه. تتداخل الأصوات في رأسه، ترسم صوراً لمُدُن وشوارع ومقاهٍ، تعود روائحها إلى عبَّاس، تقطع رحلة شاقَّة وطويلة، وتستقرُّ في أنفه، تتغلغل في مسامِّ جسده، تتحوَّل دماً في شرايينه. ينظر عبَّاس، فلا يرى سوى عراقِيِّيْن في ساحة

العروض، أو الشَّابَّات، كما يُطلق عليها في عدن، وهي جمع دكَّان بالإنجليزي، طالب أحد كوادر الحزب مرَّة بطلائها باللون الأحمر، لتشبه الساحة الحمراء في موسكو. مَن استطاع الهرب أو الاختفاء فليفعل. يعاود عبَّاس ذلك النداء، ويفكِّر في مَنْ هرب من رفاقه، ويحاول تذكُّر الذي بقي. يتلفَّت حوله في الساحة التي تُميِّزها المحالّ ومساحات للتَّنزُّه، وتقام فيها بعض العروض. يعرف أن هؤلاء العراقيِّيْن فيهم معلِّمون ومهندسو ريٍّ ومعماريون وأساتذة جامعة وصحافيون وشعراء، لكنْ، أليس فيهم مخبر؟ موظَّف في السفارة يقدِّم نفسه كمُدرِّس مثلاً، ليندسَّ في وسطهم. يغيب بعضهم أيَّاماً، يذهبون إلى قرى في جهات بعيدة من هذه البلاد. خلالها يبقى يأكله الشَّكُّ، وتفتك بأعصابه الهواجس. وما إن يرى ذلك الوجه ثانية، حتَّى يُداخله الاطمئنان، ويُصغي إليه وهو يتكلَّم عن صيد السمك، وكيف أن الروس لا يتقيَّدون باتِّفاقيَّة صيد الأسماك، يتكلَّم عن زراعة الفواكه، أو كيفية تهيئة جوٍّ ملائم، لتحيا أنواع جديدة من السمك.

ربَّما فعلوا ذلك مرَّات في ما مضى، يقول عبَّاس، وهو ينظر إلى الصفحة الأولى من عدد قديم لصحيفة 14 أكتوبر، سبب ما دفعه إلى أن يطلب من رفيق له يعمل في الصحيفة أن يوفِّر له نسخة منه، لم يحتجْ لِذِكْر رَقْم العدد أو تاريخه، اكتفى بالإشارة إلى محاكمة موظَّفي السفارة في قضية قتل الأكاديمي العراقي، الذي أحبَّه طُلَّابه وجميع مَنْ عرفه. فالجميع يعرف هذه القصَّة التي حدثت قبل وصول

عبَّاس بسنة، أي في منتصف 1979. قرأ تفاصيل المحاكمة مرَّات. لم يتوقَّع أحد أن يفعلوها بشخص كهذا.

"لن أتعشَّى فاصوليا الليلة، سئمتُها وبقية أخواتها من عائلة البقوليات. أشتهي اللحم"، قال بقطاش وهو يرى وزراء ومسؤولين كباراً يأتون ليتناولوا مشروباً، أو يشتروا حوائجهم بأنفسهم، ثمَّ يمضوا. يلتقون بعضهم وبآخرين بلا حراسة. يراقبهم وسط رطوبة خفيفة تتبدَّد تدريجيَّاً مع طلائع خريف يتقدَّم بطيئاً، وهم ينأون، ثمَّ ينكصون عائدين. يفكِّر أنهم يدركون أن العيون عليهم، ويتملَّى في الناس وهم يحملون حاجيات بسيطة للبيت، لا يفصلهم عنهم أكثر من متر، وحيناً تتلامس أجسامهم، ويخالجه أن الناس العاديِّيْن ما عرفوهم وإلَّا تعيَّن عليهم الاحتفاظ بمسافة لازمة. من حيث يجلس يمكنه أيضاً رؤية بوسترات لأفلام ستُعرض قريباً، أو قد تمَّ عرضها، وإعلانات لمسرحية رأس المملوك جابر، وحفلة لمطرب يمني كبير.

ثمَّ سيسمع عبَّاس يُخبر صلاح أنه لم يعد يحتمل البقاء مدرِّساً. وأخذ يُوضِّح لهما أنه يشتبك يوميَّاً مع عراقيِّيْن، يعملون في المدرسة نفسها، في نقاشات، لا طائل منها، وأنه لهذا السبب يفكِّر في ترك هذه الوظيفة. في كل صباح يستيقظ ويأخذ أنفاساً عميقة، يقف قدَّام المرآة للحلاقة أو لغَسْل وجهه، فلا يرى وجهه، وجوه تلاميذه فقط تتموَّج قدَّام عينَيْه، بتعابير مشوّشة مرَّة، ومتَّقدة مرَّات. وهكذا كان يستمتع في صباحاته بما يفعل، ومضت فترة من الزمن على هذا المنوال، حتَّى نغَّص عليه ذلك زملاؤه العراقيون.

قبل يومَيْن شرعت إدارة المدرسة في اختيار تلاميذ طلائع للحزب، ومضى الاختيار سلساً، إلى أن خطر لتلميذ، وقع عليه الاختيار، أن يرفض الانضمام إلى الطلائع. هو لم يرفض، لكنه لم يُبدِ موافقة في الوقت نفسه. أحد المعلِّمين، وكان عراقيَّاً، رأى في هذا السلوك جحوداً واستخفافاً بالحزب، وبدا متشدِّداً أكثر من أيِّ معلِّم آخر، فأصرَّ على إنزال العقاب بالتلميذ، الذي قد لا يُدرك أيَّ مأزق أوقع نفسه فيه، بأن دفعه بقوَّة من مقعده، وجعله يقف بجوار اللوح، بقَدَم واحدة، ورافعاً في الوقت نفسه كلتا يَدَيْه إلى أعلى. لم يحتمل عبَّاس أن يرى أحد تلاميذه يُعاقَب بمثل هذه الطريقة الفظَّة، فما كان منه سوى أن أمر التليمذ بالعودة إلى مقعده. تغاضت إدارة المدرسة عمَّا بدر من الولد الصغير، لكنها لم تُسامح عبَّاس على تدخُّله.

نهضوا وانتقلوا إلى مخبازة قريبة، وهناك طلب بقطاش لحماً مع المرق وخبزاً، ولم يُعلِّق على تذمُّر عبَّاس من زملاء المدرسة، لكنه خطف الصحيفة من يده، وحدَّق في صورة القتيل. وهو يعيد الجريدة ثانية قال بقطاش إن عدن لم تقامر بسمعتها، وهدَّدت بدَكِّ السفارة العراقية ما لم يخرج الجناة. أخذ عبَّاس يتلمَّس بأصابعه صورة القتيل، وسأل نفسه، كم خطوة خطاها ذلك الأكاديمي، قبل أن يخرَّ صريعاً؟ تخيَّل الأكاديمي يسقط في البقعة نفسها، التي تقع عليها نظراته دوماً، أسفل النافذة التي يجلس بجوارها كل مساء، بينما يمسك بالجريدة أو بكتاب في الفلسفة، ويصبُّ لنفسه كوباً بارداً من إبريق الليمون أمامه، ويروح يشربه

على مهل. المصير الذي كان الجميع ينتظرون أن يحلَّ بالجناة، تبخَّر مع تسليم القَتَلَة إلى الحكومة العراقية، لكن العلاقة قُطعَت بين البَلَدَيْن، كما تقول الصحيفة.

مال صلاح برأسه قليلاً، وأخذ يصغي وهو يتناول عشاءه، لاحتدام النقاش حول الطاولات المجاورة، بين عراقيِّيْن وأردنيِّيْن وليبيِّيْن. وودَّ لو أنهم ذهبوا للفيلَّا، حيث سيكون هو ورفاقه على سجيتهم، يتكلَّمون في المواضيع كلها على هواهم، فضلاً عن بقايا المشاريب المتنوِّعة التي يعثرون عليها وتلطّف سهرتهم، وسيرى أولئك الرِّيفيِّيْن، ممَّنْ ينتمون إلى معسكر النجمة الحمراء لتأهيل البدو وأبناء الريف، يتجوَّلون في الساحات كالغرباء. في عيونهم بقيت عدن أشبه بالمعجزة. بعضهم أُلحقوا في الميليشيات الشَّعبيَّة والجيش، وعدد منهم جهد بقوَّة أن يصير شخصاً، يناسب عدن في لحظتها الثَّوريَّة، إلَّا أن غالبيتهم بقوا على هامش المدينة.

ويتلفَّت حوله كَمَنْ يريد أن يطئمنَّ، أن لا أحد غريب سيسمعه، ويقول إنه لم يزعم يوماً أنه عرف عدن جيِّداً قبل الاستقلال. وذكر أنه زارها مرَّتَيْن أو ثلاثاً، بجواز سفر تابع لواحدة من تلك السلطنات، قبل أن تتلاشى على يد الثُّوَّار. وقف حينها، شأن آخرين كُثُر، على بوَّابة عدن، واستسلم للحُرَّاس الهنود وهم يرشونه ببودرة بيضاء، خشية أن يكون مصاباً بمرض مُعدٍ، قبل أن يسمحوا له بالدخول. بعد رحيل الاستعمار وتسلُّم الجبهة القومية

الحكم، امتثل لنداء داخلي، وجاء، ليمكثَ فيها مثل كل الفدائيّيْن الآخرين.

وأخذ يحكي للبقية عن صراع اليساريّيْن مع الجيش، ثمَّ كيف تغلَّبوا على العسكر، وعن تأسُّس الحزب الاشتراكي، وحين عثر على نفسه يتنقَّل بين أجنحته، من جناح متشدِّد في عقيدته، لا يقبل أن يكون للاتِّحاد السّوفيتيّ شريك، إلى جناح لا يمانع أن ينفتح على الغرب الإمبريالي ودول البترودولار. وتعود لتخطر له تلك الأزمنة التي طغى فيها الكفاح المسلَّح، كانوا كأنَّما خُلقوا لإزهاق أرواح الخَوَنَة، والمشتبه فيهم على السواء، كما لو أن هؤلاء محض قطط متوحِّشة، أو جوارح، ينبغي قنصها الواحد تلو الآخر.

أنهوا عشاءهم، وأخذوا في السير، من دون أن يحدِّدوا مكاناً لإكمال سهرتهم فيه. وكان هدير الباصات المجرية، وهي تُنزِل رُكَّاباً، وتأخذ آخرين، يقطع كلامهم بين حين وآخر، بينما يتجوَّلون بنظراتهم في زبائن، يلتهمون طعامهم البسيط في مطاعم صغيرة. ثمَّ سيعلو صوت بقطاش وهو يترنَّم بأُغنيَّة لجعفر حسن "لا تسألني عن عنواني، لي كلّ العالم عنوان". ويأتي شخص ويُحيِّيه وحده، فيردّ عليه من دون أن يرفع بصره ناحيته. ويقول صلاح لنفسه إنه بات يخمِّن مدى أهمِّيَّة أيِّ شخص بالنسبة إلى بقطاش من طريقته في ردِّ التَّحيَّة. ويراه وهو يلكز عبَّاس، ليردِّد معه الأُغنيَّة، بيد أن عبَّاس كانت نظراته تتيه في جماعات عراقية، يُبصر وجوههم لأوَّل مرَّة. وسمع مَنْ يقول إنهم موظَّفون في شركة، فازت بمناقصة لتطوير

ميناء عدن، وإن تَلاسُناً وأحياناً مشاجرات وقعت بينهم وبين شيوعيّيْن عراقيّيْن. "لا تسألني أبداً أبداً، أنا بيتي في كلّ مكان"، يواصل بقطاش الغناء.

9

شبه عارٍ بصدر عريض، يكسوه شَعْر خفيف، وراءه مدى أزرق، زرقة داكنة، كأنَّما الوقت قبيل شروق الشمس. يبدو طوله فارعاً هنا، وله نظرة قاسية، ولا بدَّ أن أيَّ شخص يقف أمامه سينتابه شعور بالضآلة. يراقبها وهي تُحدِّق طويلاً في الصورة التي تُظهِر جياب شابَّاً، فيما وجهها يختلج، ويعكس انفعالات دقيقة. وسيتناهى إليه صوتها شبه ممزَّق، وهي تقول: قبل تلك الليلة التي انقضُّوا فيها على قَدَمَيَّ، خالجني إحساس مبهَم، وشعرتُ بالذعر، حال استيقظتُ من منام رهيب. وأضافتْ أنها لم تقوَ على أن تبوح به لأحد.

أوَّل ما ستراه في ذلك المنام، الذي ذكرتْ أنه راودها لمرَّة واحدة فقط، ثمَّ اختفى، أيدٍ غليظة، تُمسك بسلاح أبيض، وتهوي به على قوائم دابَّة مسكينة، فتروح تسقط غير دارية، على أيِّ جهة يمكن لجسدها أن يهوي. قالت أيضاً إن نظرات الذعر التائهة، الموزَّعة في الأنحاء كلها، بينما جسد الدَّابَّة يتهاوى، في كيفية غريبة، هو كل ما يعود إليها حين تستعيد تدريجيَّاً ما حصل لقَدَمَيْها.

تسحب نفسها رويداً من ذكرياتها القاتمة، ومالتْ ببطء شديد إلى الأمام، ومدَّتْ ذراعاً إلى جهاز الفيديو، وحشرتْ فيه شريطاً، ثمَّ شغَّلتْ التلفزيون. وأبصر صلاح صبية بجسد ريَّان، ووجه تنيره نظرة اندهاش، في باليه يُصوِّر كيف خرجت المرأة اليمنية على القبيلة، وكيف محت أُمِّيَّتها عندما انخرطت في التعليم المهني، وفي المعامل، وفي التَّعاونيَّات وبرامج إعادة التأهيل. عرض الباليه، الذي صُمِّم بمساعدة مخرجة مسرحية زوجة أحد الخبراء الروس، وكانت تنقصه تفاصيل كثيرة، ليصبح فنَّاً، في العيد العالمي للمرأة. وسمعها تذكر أن جياب أشرف على كل تفصيل في الحفلة.

ورمقت صلاح بنظرة فاترة، وهي تقول له مُغيِّرة الموضوع، إنها ستعهد إليه بدفاتر ورسائل وصور، الكثير من الصور، وأيضاً أشرطة. كل ذلك، أريدكَ أن تصنع منه مذكّراتي. أضافت بمزاج نَكِد. كان قد لاحظ مؤخَّراً أنه لم تنشأ بينهما، حتَّى الآن، علاقة تُميِّزها الألفة أو حميمية ما، كالتي يمكن أن تنمو بين شخصَيْن مماثلَيْن، أيّ شخص لديه ما يرويه، وشخص آخر يتلقَّف مروياته، لتحويلها مذكّرات. تأخذ نَفَساً عميقاً، وتزفره، ثمَّ تقول بينما تعيد التحديق في صورة جياب التي يبدو فيها شبه عَارٍ: لا يمكن أن يكون أمس ثوريَّاً، واليوم عميلاً إمبرياليَّاً. كان قد خطر له ضرورة مراجعة بعض السياسات، التي أقرَّها الحزب في مراحله المبكِّرة، هذا كلَّما هنالك، وكان سبباً لأن يتَّهموه بالتَّخلِّي عن المبادئ الأساسية.

يتفرَّس في إصبع يدها وهو يتخلّص من رماد السيجارة. ثمَّ وهي تحكُّ مرَّات طرف السيجارة على حافَّة المنفضة، كأنَّما وجدت تسلية في ذلك. وبغتة ندت عنها أنّة حادَّة، قطعتْها فوراً، لم تتركْها تطول. ونظر في وجهها الذي أخذ يمزِّقه الألم، فيما أخذت ببطء تدفع المنضدة عن قَدَمَيْها، ولاحظ أن إحدى قوائم الطاولة نشبت بين الأربطة. ولم يكن في متناوله فعل شيء، لتفادى ردَّة فعلها غير المحسوبة. لا تؤلمني قَدَمَاي بقدر ما يُنهكني اليوم ألم التَّذكُّر. قالت بصوت مجهَد. لن أنسى استشراسهم وهم يطاردونني، لم أفطن لحظتها لأن أتبيَّن وجوههم، غشاوة حجبت الرؤية عنِّي، قبل أن أحاول الفرار وأفشل. لهاثهم المتدافع ورائي بقي يتردَّد في مسامعي مثل الفحيح. في آونة كثيرة تمنَّيتُ لو أنني أستطيع محو تلك اللحظات الوحشية من ذاكرتي.

انتظرت للحظة، وعادت لتقول إنها تتوقَّع من صلاح، أن يكون قد فكَّر في كيف ستبدو هي في المذكّرات. "لستُ راقصة في الفرقة الوطنية للفنون الشَّعبيَّة"، أخذت أنفاسها تندفع كَمَنْ يعاني ضيقاً في التَّنفُّس، "أنا أكثر من ذلك. أكتب عن عائلتي، تربيتي الإنجليزية. أذكر ماذا فعل الحزب بأبي وأخي". وشمخت بنظراتها إلى أعلى من مستوى نظرهما، إلى تاريخ تقوله صور معلَّقة فوق حيطان منزلها، الذي يكتظُّ بالتحف والإكسسوارات والكنبات كبيرة الحجم، والستائر الثقيلة واللوحات بإطارات مذهَّبة. وأضافت بلهجة فيها وعيد، "أُحذِّركَ أن يخطر في بالكَ أن

تُظهِرني كضحية، لا لقيادي ولا لحزب أو للنفر الذين افترسوا قَدَمَيّ".

عقب انصرافه من عندها ليلة أمس، انكبَّ على اختيار ما هو بحسب تقديره فائق الأهمِّيَّة، من كل ما سبق له تدوينه، ليفيد منه في المذكّرات، التي لم يشغل باله حتَّى الآن، في الكيفية التي ستتَّخذها. في الصالة الضَّيِّقة لشُقَّته الصغيرة، التي تتكوَّن من ثلاث حجرات صغيرة ومطبخ وحمَّام، في بناية عمودية، شُيِّدت، ضمن مبانٍ عديدة، على نمط البنايات السَّكنيَّة في مُدُن المعسكر الاشتراكي، بهدف معالجة أزمة السَّكَن، التي تفاقمت بعد تحوُّل عدن عاصمة لثُوَّار العالَم، وبينما يحتسي شاياً بسُكَّر زيادة، ويتناهى إليه ضجيج أُسر، جاءت من الريف والجبال، مختلطاً بنُباح كلاب وخبط أجنحة لغراب أواثنَيْن مع نعيق حادٍّ، كتب بسرعة عبارات وجملاً منفصلة، ليسترسل انطلاقاً منها لاحقاً. لكنه كان يتوقَّف بين لحظة وأخرى، ويسأل نفسه إن كان سيتعرَّض للمساءلة، إن هو كتب كل ما تتفوَّه به، وألن يعدّوه متواطئاً معها؟ وانتزعتْهُ من مخاوفه وهي تُكلِّمه أنه لم يدر في خَلَدها يوماً، أنها ستكون عضواً في الفرقة الوطنية.

في مكتبه ظهر اليوم شعر بمعنويات هائلة، حَدَّ أنه أقرَّ أنها لن تبلغ هذا المستوى ثانية. وبينما هو كذلك سمع صوت جلبة يأتي من الخارج. حدَّة الصوت أخذت تدريجيَّاً ترتفع، فأطرق يصغي. لم ينجح الأمر، فترك مكانه، وتقدَّم بخطوات متمهِّلة، وفتح باب حجرته بالقدر الذي يسمح له

بتبيُّن حقيقة ما يجري، بلا حاجة لأن يُظهِر نفسه. وأدرك، بنسبة كبيرة، هوية الصوت الذي يتسبَّب في كل هذا الضجيج، من رائحة العطر الغامضة التي بلغتْهُ، حيث يقف. في مقابل الصوت الصاخب ثمَّة صوت آخر خفيض ومرتبك، يجهد في تهدئة ما يجري ولا يُحرز تقدُّماً. شعر بالرضا أنه لم يندفع إلى خارج حجرة مكتبه. ولاحظ صلاح أيضاً أن زملاء آخرين فعلوا مثله، وبقوا يسترقون النظر. كان مشهداً مهيناً للرفيق الذي يهابه الجميع بلا استثناء، وكانت نظراتهم التي تتلاقى رغماً عنهم، إذ لا يرغب أحد أن يعرف الآخر أنه كشفه وهو يتلصَّص، تعكس اندهاشاً وعدم تصديق ما يحدث. ولمح نوال، التي انتقلت منذ فترة للعمل في إدارة أخرى، تتلصَّص أيضاً. واصطدمت نظراتهما، ولم يرَ في عينَيْها، على العكس من البقية، أي تعبير يستنكر ما يجري. رؤيته الخاطفة لنوال كانت كفيلة بأن تُنسيه على الفور، الضوضاء التي جذبت إليها كافة الزملاء من الأقسام الأخرى. فقد خطرت له الخاتمة التي يُمنِّي نفسه بها، بمجرَّد أن رآها. يكفي ذِكْر الطائرة التي تفجَّرت وعلى متنها رهط من الدّبلوماسيِّيْن، تردّد أن بعضهم كان يعارض حكم الترويكا، حتَّى يحضر زوجها، كأنَّما لم يمت، في صورة ساطعة. مثل هذا السطوع يخامره باستمرار. وكأنَّ الحياة ما عادت تعني له شيئاً، إن اتَّفق وخَلَتْ من خاتمة مشعَّة، كضوء باهر في ليلة حالكة. طالما تصوّر حياته تغرب تحت الإقامة الجبرية، بينما يعيش بين جدران منزله أو في مضافة،

يجهل الجميع مكانها. ممنوع من السفر. محظور عليه الجلوس إلى أصدقائه. غير مُصرَّح له رؤية حتَّى البحر. ولا يعودون يعرفون عنه شيئاً سوى عند إعلان موته، الذي يمكن أن يكون قد حدث منذ زمن، غير أنهم يُخفونه إلى لحظة يمرُّ خلالها الخبر خطفاً، كأنَّما لن يعنيَ أحداً. ربَّما تُوقِفه مسحة من أسى خفيف أو حسرة لا تطول، ولا يُبدِّد هذا شعوراً مريراً، أنه قد ينتهى نهاية عادية، لا يريدها لنفسه.

وسرعان ما ينتزعه الضجيج خارج مكتبه ثانية، لينشغل بمراقبة مجريات ما يحدث. واللَّافت أنه كل ما بدرت من الرفيق المهاب كلمة بقصد التهدئة، ازداد غضب نضال، وأخذ يطوِّح بذراعَيْه في الاتِّجاهات كلها مثل الطاووس، وقد لاحظ بكيفية ما أن هناك مَنْ يراقب ما يحدث، فكان يفعل ما يفعله متفاخراً. إلَّا أنه في لحظة تسمَّر في مكانه، ولم تصدر عنه نأمة بعد كل ما أثاره. بدا كَمَنْ يتعافى رويداً من كابوس هاجمه. كان وحيداً في الممرِّ، بعد انصراف الضَّحيَّة، وتراجع المتلصِّصين إلى داخل مكاتبهم. ولوَهْلَة كأنَّما هاله ما يحدث، وألفى نفسه كالغريب، لا يعرفه أحد، ولا هو يتعرَّف على ذاته. جرَّ قَدَمَيْه إلى فُسْحَة بين المكاتب، بها مقاعد للانتظار أسفل صورة للأمين العامِّ للحزب، واختار أقرب مقعد، ورمى بثقله فوقه، وأخفض رأسه كَمَنْ تُخالجه مشاعر سوداوية.

ولم يدرك صلاح الذي ترك مكانه قُرب الباب، وعاد إلى مكتبه، ما الخواطر التي انتابت نضال في تلك اللحظة. في

الواقع، استسلم نضال بغتة لشظايا تداعت إليه، في تلك البُرْهَة الشَّاقَّة على نفسه، من أزمنة بعيدة. خطر له الفتى الذي كانه، ولم يُكمل تعليمه. اشتغل عامل بناء في ورش ومصانع، وفي مهن كثيرة، قبل أن ينضمَّ إلى إحدى الفصائل. كانت عيناه تفتَّحتا مثل معظم الفلسطينيّيْن على جوّ المخيَّمات، على هوية ناقصة ووعي ملتبس. ولأنه أوَّل عمل يزاوله عامل في ميكانيكا السَّيَّارات، أخذ المخيَّم، ولا يزال، صورة الورشة وفوضاها في عينَيْه. في البدايات كان كتوماً، يصغي فقط، ويعمل فوق طاقته. هذه الخصال قرَّبتْهُ من قادة المجموعات، فأخذوا يثقون فيه، وتدريجيّاً راحوا يُكلِّفونه بمهمَّات تتفاوت درجة حساسيتها. فعمل على جمع التَّبرُّعات وتوزيع النشرات، ثمَّ تهريب السلاح. كانت لديه رغبة لا حدود لها في التضحية. أنصت لنقاش القيادات، وعثر فيها على دروس مهمَّة، في كيف ينظِّم نفسه، ويصقل تفكيره، ويتعلَّم الإدارة، ويُشكِّل مجموعات صغيرة. خاض تجارب نضالية كثيرة، وعاش حياة شاقَّة. نام في العراء، واعتُقل وعُذِّب وأُهين وهُشِّمت ذراعه. كل ذلك لم يستطع كسره، ولا إدخال الإحباط في نفسه. أحبَّ الجلوس مع المجموعات الطُّلَّابيَّة، كان يخدمهم ويوفِّر لهم ما ينقص عليهم بلا مقابل، فقط ليسمحوا له بالبقاء بينهم، كي يسمعهم وهم يتناقشون، وكيف يفكِّرون ومتى يتَّخذون قراراً من القرارات. خرج من فصيل، وانضمَّ إلى آخر، ترك جبهة، والتحق بالأخرى، وبقي هو نفسه، مقاوِماً، يتعلَّم الصلابة عبر تنفيذ المهمَّة تلو الآخرى، لم يكلّ مرَّة،

ولم يسمعه أحد يتذمَّر، حتَّى عندما تعرَّض للاعتقال والتعذيب من فلسطينيِّيْن مثله، ليس لذنب ارتكبه سوى أنه بدَّل بفصيل آخر.

في دمشق جرَّب أن يكون في خدمة حزب البعث، وردَّد طويلاً في السِّرِّ والعَلَن شعار البعث: أمَّة عربية واحدة ذات رسالة خالدة. غير أنه ما لبث أن وجد نفسه يواجه العداء والاعتقال، فلم يكن أمامه سوى الهرب إلى الأردن، مكث فيها أقلّ من عامَيْن، ليعود ثانية إلى دمشق بعد أحداث أيلول، ثمَّ إلى بيروت. كان كلَّما أعتمت في وجهه السماء، وأغلقت أمامه الدروب، يتذكَّر صمودهم الأسطوري في بيروت، حتَّى عندما خرج إلى عدن، لم يخالجه الشعور أنه يخرج مُهاناً، كان يشعر بالزهو أنه خرج يسير على قَدَمَيْن ورأس يشمُّ الهواء. نهض أخيراً، وخطا خطوات في الممرِّ، أبواب المكاتب إلى يمينه ويساره موصَدة. حجرة صلاح فقط كان بابها مواربا، دفعه بخشونة، وأبقى جسده مائلاً قليلاً، داخل إطار الباب. ملامح وجهه عكست ازدراءً للمكان. حدَّق فيه صلاح، وبادله الازدراء فيما يترسَّخ لديه انطباع أن نضال أصبح يتمتَّع بحضور معقَّد، فلا فكاك لمرء من أن يستدعي اسمه، حين الكلام، مثلاً، حول المصير المتشابك بين الحزب الاشتراكي والمجموعات الفلسطينية.

يُنصِت صلاح لصوت نورا يتداعى إليه، كأنَّما من وراء جدران، تحكي له عن المدرسة الإنجليزية وحصص الموسيقى التي كانوا يعطونهم، وكيف أنها في المساءات

كانت تلتحق بدروس لتعلّم الباليه. وأضافت أنها تولّعت بالأكروبات لفترة. حتَّى التقت معلِّماً روسيَّاً للرقص، قدر أن يُقنعها أن بعض الرقصات الشَّعبيَّة، يمكن العثور فيها على قُرابة مع الباليه، ومن هنا بدأت الحكاية. في معهد الفنون، تكشَّف لي معنى أن أكون راقصة. في بداياتي كان الخجل يُكبِّل كل عضو في جسدي، يُحوِّلني إلى لوح من خشب، ثمَّ عوَّدتُ نفسي تدريجيَّاً على تناسي شعوري بالخجل. في المعهد، كانت تمارين اللياقة شاقَّة، غير أن الخبير الرُّوسيَّ وعازفة البيانو، كانا يُنسياننا كل مشقَّة في التمارين، بشَغَفهما وبعباراتهما أن الرقص كلمات تتبادلها الأرواح في ما بينها. لن أنسى أوَّل رقصة صولو رقصتُها مع شابٍّ. كانت حكاية وحدها أن أترك شابَّاً يُراقصني على مَرأى من عيون كثيرة. كان الشَّابُّ وسيماً، ولبشرته لون النحاس. وكنتُ أشمُّ رائحة جسده كلَّما انحنى عليَّ. أتذكَّر اعتداده بقوميته الفارسية، أُسرته واحدة من الأُسر العريقة في عدن، هاجروا إلى هنا قبل عشرات الأعوام، وخدم جدَّه، ثمَّ والده في الجيش الإنجليزي. كان يمكن أن أقع بالكامل في غرامه، وأن أتزوَّجه مثلما فعل زملاء وزميلات في الفرقة الوطنية، إلَّا أنه لم يُكمل في المعهد، ثمَّ سمعتُ أنه هاجر إلى بريطانيا.

وغامر صلاح، وقاطعها قائلاً، إنها تكاد لا تتكلَّم عن والدها، ولا عن أُمِّها. وحلّ صمت لبُرْهَة قبل أن تقول، بينما تأخذ ملامح وجهها هيئة مَنْ لا يجد شيئاً ليتذكَّره:"ربَّما لأن الفترات الصعبة من حياتي، تشكَّلت في

منأى عنهما. فوالدي كان مشغولاً بالسفر وملاحقة تجارته، وكان يحبُّ أن يرى وقتي مزحوماً بالهوايات، فلا أفتقده، أو ربَّما حتَّى لا يشعر بتأنيب ضمير، لأنه يتركني وحيدة وبعيدة منه. وذكرت أن والدَيْها انفصلا باكراً، وأن أُمَّها ذهبت للعيش في كيرلا عند خالها، الذي كان قد افتتح مكتباً تجاريَّاً هناك.وأنه تمرُّ أعوام كثيرة قبل أن تأتيَ أُمُّها إلى عدن، وتراها لساعات، وأحياناً لأيَّام، ثمَّ تعود.

حين وقف نضال في الباب، تأمَّله صلاح بطريقة مَنْ يتسنَّى له ذلك لأوَّل مرَّة، ولأوَّل مرَّة أيضاً تملَّكه شعور غريب بالشفقة عليه. ولا مرَّة رآه وهو لا يرتدي هذا الجاكيت من الجِلْد، رغم الطقس الجحيمي. تلاقت نظراتهما واحدهما الآخر، ثمَّ أشاح كل منهما ببصره بعيداً. في اللحظة نفسها، عادت لتخالج نضال الخواطر حول نفسه. تغيَّب، عمداً، عن أولوياته أن يبدوَ في نظر المحيطين به، شخصاً لطيفاً. يخال نفسه لا تليق به صفة مثل هذه. كما لو يراها تنازع صورته الجديدة، التي لا يكلُّ في تكريسها، إذ راح يُنمِّي ببراعة موهبة غريبة، اكتساب خصوم جدد، ونبذ التهذيب الاجتماعي، فضلاً عن تصنُّعه، والنفور من المجاملات، حتَّى اللطيف والضّروريّ منها أحياناً. ثمَّ رمق صلاح بنظرة خالية من أيِّ تعبير، وانصرف متثاقلاً.

10

اليوم أحبطْنا مؤامرة على قانون الأسرة.

قال لي ذات مرَّة، ومشى متمهّلاً في أرجاء المنزل. تتذكَّره الآن، وستراه كما لو هو قدَّامها، وهو يتوقَّف وينظر في صورة له، نشرتْها جريدة عربية، يتسلَّق فيها جبال ردفان مع ثوَّار في مثل سنِّه، يعلِّق بندقية على كتفه، ويتدلَّى ناضور فوق صدره. شَعْره الغزير، حتَّى في ذلك الزمن، يطيش ويرسم ظلالاً فوق جبهته، ويمنح وجهه سمات الشَّخصيَّات، التي لم تُخلَق لتعيش حياتها في دعة. يوجد حلم يجري وراءه.

في تلك الأثناء وهي مستلقية بدلال على كنبة وثيرة، حدَّقت في الستائر، ورغم قماشها الثقيل، لمحت يومها ضوء الشمس الساطع، فشعرت بحَرٍّ شديد، يشوي كامل جسدها. وانفرجت شفتاها، كما لو كانت ستتلقَّى قبلة طويلة، وفاهت: مؤامرة؟ كانت في كل مرَّة تصغي فيها لهذه الكلمة، محشورة في سياقات مختلفة، يتملَّكها إحساس مَنْ يُقتاد معصوب العينَيْن، في ممرَّات ضيّقة ورطبة. وفي كل مرَّة أيضاً يخطر لها أنهم يبنون وطناً من جديد، يخلقونه من عدم، بمعنى أصحّ.

يدها تعبث الآن بمحتويات الطاولة بجوارها، تجد أخيراً علبة السجائر، تُشعل واحدة، وتأخذ نَفَساً، تمجُّه ببطء، وتتابع الدخان يتبدَّد. تحوَّل رأسها إلى صلاح، تنظر فيه، وتُضيِّق عينَيْها، كما لو تتأكَّد من حقيقته، أو تُهيِّئه لما تنوي قوله، وكأنَّها متأكِّدة من أنها ستجعله مستفزَّاً.

نورا،

أخذ يهتف باسمي قبل اختفائه بأيَّام قليلة، ويُخبرني: ترقصين كَمَنْ يُصلِّي. وينحني على قَدَمَيّ. أكاد لا أُصدِّق اليوم أنه كان يُبلِّل أناملي، واحدة فالأخرى، بلسانه، يُقبِّلهم تباعاً، وفي أحايين، يستمرُّ في التقبيل طلوعاً إلى ساقَيَّ، ركبَتَيَّ، فخذَيَّ، ما بينهما، سرَّتي، بطني، نهدَيَّ، ويريح وجهه بينهما، مثل العائد من معركة. لم يكن في مقدور صلاح بينما يتنشَّق الرائحة الدائمة للعطر، سوى أن يخفض بصره حياء، متخيِّلاً عريها. قبل أن يبالغ في الخيال، خالجه شعور كريه حيال المختفي، إذ كيف لرفيق في مثل مكانته أن ينكبَّ على قَدَمَيّ امرأة، تُجاهر بحنينها للماضي الإمبريالي؟ تصوُّر صلاح للإخلاص الحزبي لا يسمح له بأيِّ تهاون، حتَّى مع كادر كبير مثل الرفيق جياب. إلَّا أنه لا يقدر على فعل شيء لرئيسه، إذ تتوه منه الطريقة المثالية لفعل ذلك، فضلاً عن أن لا أحد اليوم يعرف عن مكانه شيئاً. وتصطدم نظراته في الورود الكبيرة المتفتِّحة، في ورق الحائط الذي يغطِّي الجدران، متصوِّراً أن رائحة العطر تفوح منها.

كنتُ أجيبه كلَّما لاحظ تبدُّل أحوالي من خلال الرقص، بأن جسدي يتمرَّد عليَّ، وأحياناً يتركني ويفضحني، يفشي رغماً عنِّي ما أرغب بقوَّة في أن لا يعرفه أحد. سيجارة المارلبورو الأبيض في زاوية فمها، رأسها معصوب بشال في هيئة ضفائر تتلوَّى متداخلة، يتدلَّى طرفه فوق كتفها. ثوبها البنفسجي بكُمَّيْه الطويلَيْن، بفتحة صدره الواسعة. كل ذلك يجعل لها مظهر امرأة، عرفت كيف تعيش، لكنها

باتت تجهل السُّبُل إلى ملذّات العيش نفسها، التي خبرتها في ما مضى. يرقبها وهي تنحدر في مجاهل روحها وعطب قَدَمَيْها وفقدها لجياب، وتعود بما يُبقيه مشوَّشاً، يخالجه الارتباك. كيف يمكن له امتصاص كل ما تحكيه، وتحويله إلى صفحات؟ أيّ تخوم خطرة ترسمها له، وتطلب منه أن يلجها؟ يلفُّه شعور بالسأم، لعجزه التصالح مع فكرة أن يكتب مذكّرات لها، واعترتْهُ أخيراً رغبة في تركها.

لكنه يبقى ويُنصِت لعزف منفرد على آلة الكمان، يتدفَّق من آلة التسجيل. من ضمن ما يشعر به صلاح حين يكون عندها، غياب الهوية لأيِّ شيء، لا ملامح حقيقية لكل أمر يقال هنا، تتبدَّد ملامح الوقت ما إن يدخل بيتها، لا يعود يعرف في أيِّ زمن هو، ولا تاريخ اليوم أو اسم الشهر، وحين يخرج يشعر أنه كان في زمن ماضٍ. لا، حتَّى صيغة الماضي ليست أكيدة.

تصمت لبُرْهَة كَمَنْ يفكِّر جيِّداً، ثمَّ نطقت: في ذلك الزمن حين كنتُ أنهمك في الرقص، في أثناء أداء جماعي للفرقة، يغيب جسدي عنِّي، وأعثر فيَّ على طاقة، لم أكن يوماً أدرك أنني أملكها، ذلك حدث في كراكوف البولندية، في الجزائر، في براغ، وأيضاً هافانا، قدَّام خليط من مسؤولين وكوادر حزبية وعسكر ورفاق من أمم شتَّى. اليوم أشعر بروحي ثقيلة، يغطِّيها صدأ ووحل، آثمة من دون أن أكون ارتكبتُ إثماً واحداً. وأشعر بشرور كثيرة، تدنو منِّي، تنبثق من جسدي أنا، لتلتهمَني.

تسحب نَفَساً من سيجارتها، وتزفره ناحية الصور. عدا التدخين وشرب عصير الليمون لم يرها مرَّة تأكل طعاماً حقيقيَّاً. تستيقظ كل صباح متأخِّرة قليلاً. لم تعد تتناول فطوراً جيِّداً، كما في تلك الأيَّام، قبل أن تبدأ تمارينها. شاي أو قهوة كل ما تقدر على تناوله اليوم، ربَّما مع كسرة خبز أو قطعة كيك. كانت خبيرة الرقص تزورها مرَّتَيْن أو أكثر أسبوعيَّاً، من أجل أن تعتني بها. ذلك تحوَّل ماضياً. لم يعد أحد يتعهَّد جسدها بالاهتمام، لم تعد قَدَمَاهَا، داومت طويلاً على دَعْك كعبَيْهما الدقيقَيْن بزيت ساخن وأعشاب لها رائحة الصندل، تعني شيئاً لأيِّ شخص. متروكة لذكرياتها ولصورها وشرائطها. تلتفت إليه، وستقول: في ليالي موسكو التي يملؤها رفاقه الروس والعرب سُكْراً وصخباً ونقاشاً محموماً، حول الثورة والعمَّال والريف وقانون الأسرة ومحو الأُمِّيَّة في عدن، كنتُ أنا أهرب إلى الصمت. ومضت أوقات كان شعور لزج يخالجني حيال هذا الصمت. لاحقاً سأتصالح معه، سنصبح رفيقَيْن، يهدهدُني حين تمسُّني الحاجة إلى العُزلة، لكنْ، ليس لوقت طويل، إذ سرعان ما أعثر على الرغبة في مقاومته.

وحدتها تدفع صلاح إلى تأمُّل حياته هو أيضاً. البارحة انكبَّ يُدوِّن بسرعة، ما قالتْهُ له في آخر زيارة، وبغتة شعر بالجوع. دخل المطبخ، ولم يجد ما يأكله سوى كسرة خبز وقطعة جبن بيضاء، من بقايا عشائه في الليلة الفائتة، التقطها وصنع لنفسه كوباً من الشاي. ثمَّ وهو يتأمَّل منظراً تافهاً لجبال جرداء، في صورة قديمة على الجدار أمامه،

ويأتي على الرشفة المتبقِّية في كوب الشاي، نافضاً، في الوقت نفسه، فُتات الخبز عن مئزر، بهتت ألوانه، كان يستر به نصفه السُّفليَّ، فطن إلى أن زمناً مرَّ بعد آخر زيارة لقريته، وشعر بحنين حارق لوجه أُمِّه. وتملَّكتْهُ مشاعر طفل، حين فكَّر أنها ما كانت ستتركه يبيت ليلته طاوياً، بالتأكيد ستعدُّ له أكثر من شاي أسود وكسرة خبز. وخطر له أنها ما عادت تلحُّ عليه بالزواج، بعد أن فشل زواجه الأوَّل من ابنة خالته، التي طلبت الطلاق، لأنها لم تره مرَّة يصلِّي. وعاد ليتذكَّر أنه في لجَّة تلك السنوات التي تلت الاستقلال، طالما تباهى بأنه كفَّ عن ممارسة الشعائر الدِّينيَّة، التي شغلت حياته طويلاً، قبل أن يتعرَّف على كرَّاسات صغيرة، كان يوزِّعها آنذاك يساريو الجبهة القومية، وتملؤها أقوال لماركس ولينين وتروتسكي.

ودَّ هذا المساء لو يمكنه البقاء للإنصات إلى نورا، غير أن هناك ما يدفعه إلى الانصراف، كان قد وعد سناء ظهر اليوم عندما اتَّصلت به أن يلتقوا مساء. كانت تريد اللقاء في الفيلَّا لمزيد من الحُرِّيَّة، إلَّا أنه أخبرها أنها شغلت ثانية، وتحتاج أيَّاماً لتفرغ من الوفود.

في مقهى يُطلُّ على شارع الملكة أروى، حيث اختاروا للجلوس ركناً قريباً من الشارع، يفصلهم عنه حائط زجاجي، أخذ صلاح يراقب سناء خلال الأدخنة، وهي تحاول أن تستمتع بوقتها خارج المعسكر والحَيِّ السَّكَنيِّ، حيث تقطن في شُقَّة رفقة جدَّتها لأبيها، تحوطها أُسر فلسطينية كثيرة، غالبيتهم قدموا من بيروت، بعد خروج

المقاومة. وسرعان ما ستنصرف إلى التفكير في الهُوَّة، التي تأخذ في الاتِّساع بين قيادات المعسكر وبقية الفدائيِّيْن. ونظرت إلى انعكاس وجهها في الزجاج، وبدا غريباً عنها. وأخرجت منديلاً من جيب بنطلونها الجينز، ومسحت العَرَق عن جبهتها وعنقها. وسمعوها تقول إنها لا ترفض دور الضَّحيَّة، الذي عادة ما تتولَّع به المرأة، في أيِّ مواجهة مع رجل، إنما تمقتُهُ، وترى فيه استدراجاً لتعاطفٍ، لا تريده.

التقطتْ زجاجة ماء، وشربتْ على دفعَتَيْن، قبل أن تُغلقها وتتركها في متناول يدها، وأضافت أنه يمكن التَّوصُّل من خلال كل ذلك، ولا حاجة إلى التَّكهُّن أوالاستنتاج، إنها لا تطيق معاملتها كفلسطينية بلادها مغتصبة، "أكره بلا حدود هذه الصورة التي يصرُّ الآخرون على رؤيتي من خلالها، وكأنَّ عليَّ أن أتحوَّل إلى تجسيد حَيٍّ للاغتصاب الذي يلحق بوطني". تقاوم هذه الصورة التي تعرف أن بعضهم غير مقتنع بها، ويُصرُّ على هَتْكها، من أجل إعادتها إلى الأُنثى التي من مهامِّها إشباع رغبات الرجل، أي إلى الصورة التي يتحقَّق فيها الاغتصاب فعليَّاً.

مسحت المكان حولها بنظرة سريعة، وشعرت بهواء الليل وهو يتسلَّل من الخارج، على غير العادة منعشِاً، ويُحوِّلها إلى كائن خفيف، وتذكَّرتْ أنهم على أبواب الشتاء. وقالت: أعرف، بعد كل ذلك، أن كل ما يدور في ذهني، لا علاقة له بما يروح يتشكَّل في مخيِّلة الرجل، أيّ رجل، عندما يراني. اعترى البقية الارتباك، وحاول عبَّاس أن يضحك،

مُدارِياً حَرَجَهُم، لكنه لم يستطع، فصمت، وبقي ينقل نظراته في الآخرين. من ناحيته، شكَّ صلاح في قدرتها على معرفة دواخلهم كلهم اتِّجاهها، لأنه هو شخصيَّاً يجهل ويرغب في أن يعرف، لماذا لا تتملَّكه حالة من الشَّبَق حين رؤيتها، رغم فتنة جسدها وطغيانه، الحالة التي قُدِّر له أن يسمع عدداً من الرفاق يبوحون بها، مع أنها تُبدي حرصاً، يفوق احتمال أيِّ امرئ، على إخفاء مفاتنها في ملابس خشنة، ترابية اللون. ورمقها بنظرة متأمِّلة، كأنَّما ليُقنعَ نفسه أنها تفتن الرجال بلا استثناء، فيراها وهي تعمد في شكل عامٍّ إلى التَّصرُّف وممارسة حياتها، بعيداً من فكرة الظهور في مظهر الأُنثى المفرطة في التَّبرُّج. تفعل سناء ما تفعله، وفي خيالها أنها تصدُّ الجميع عن التفكير فيها كأُنثى.

وتدخَّل بقطاش وقال، مخاطباً سناء، إن ما يحدث معكِ أنكِ كلَّما بالغتِ في الذهاب إلى المنظر الخشن، المنكر لرغبات جسدكِ وتجاهُل أشواقه، أقبل عليكِ الرجل. ليس أنا بالطبع. أضاف محاولاً التوضيح ومواجهة الحرج من المسألة كلها. سكتت سناء، مكتفية بسماعه يُشخِّص حالتها، غير ناسية أنهما، هو وهي، أحبَّ أحدهما الآخر، لفترة من الوقت، قبل أن يُحكَم على علاقتهما بالفشل. وتكتشف، حدث ذلك مراراً ومن دون عناء، عبث كل ما تخيَّلتْهُ عن نفسها، وتصوَّرتْهُ عن جسدها، وعن فلسطينيتها المغتصبة. وما برحت تتساءل بينها وبين نفسها لِمَ عليها وحدها تحمُّل هذا العبء؟!

هي تُدرك في داخلها أنها تجهد في مغالطة نفسها، وأنها لا تستطيع إلى الأبد مقاومة رغباتها والتَّنكُّر لشهواتها. تعلم في خاتمة المطاف أن كل ذلك بلا طائل. في ليالٍ كثيرة كانت تؤوب إلى غرفتها، بعد يوم من الشقاء. تسكت الضوضاء الرتيبة لمروحة السقف، وتزيح الستائر، لتفتح ظلفَتَي البلكون على ضوء القمر، تُعرِّي جسدها، ربَّما تترك قطعة شفيفة تغطِّيه، تُعرِّضه للضوء، ولنسائم حلوة، تهبُّ برائحة فُلٍّ وورد جوريٍّ مزروعة في أُصُص تتراصّ فوق الحاجز العريض للبلكون، وتشعر بكل ذلك يغمرها، يدخلها من أدقِّ مساماتها، يفتح دروباً في الجسد المصمت على نفسه، تُوقِظه بينما هي تتقلَّب على وجهها، وعلى جنبيها. حمَّام من ضوء، تُغطِّس فيه كل أعضائها، فتشعر أخيراً بأنفاسها تتدافع وتحتدم، قبل أن يعمَّها هدوء، وتذهب، مثل المهدودة، في نوم عميق.

لكنها تعود وتُنكر على نفسها مثل هذه الهواجس. ويتكدَّر مزاجها كلَّما أخفقت في المضي بعيداً. ورأت صورتها ثانية في الزجاج، تخترقها خيالات المارَّة، وتطمسها أضواء خاطفة لسيَّارات تعبر. وتحدِّق في ملامحها وهي تتبدَّد في الزجاج، فتُحوِّل بصرها إلى وجوه الرفاق، يحيطون بها، وهم يواصلون الكلام عنها، كما لو عن شخص آخر، لا يعنيها. فجأة اقترح بقطاش تغيير المكان، وتبادل البقية النظر في بعضهم البعض، ثمَّ قرَّروا المكوث، فأُصيب بخيبة أمل، حاول تخطِّيها بأن سمعوه يقول إنه ذهب أمس للتَّطوُّع، رفقة فتيات من اتِّحاد الشبيبة، في

مصانع حكومية، وأخبرهم أن معظم المصانع تغصُّ بالعمَّال، ومع ذلك، فإنها غير مُجدِيَة اقتصاديَّاً، مستثنياً مصنع البيرة الذي يشهد إنتاجه، من المشروب الكحولي، كثافة في الإقبال، يجعله يُعوِّض خسارات المصانع الأخرى. وما لبث أن أخذ النقاش وجهة أخرى، فعَنَّ لعبَّاس أن يتساءل إن كان تعديل قانون الأسرة الذي أُعلن عنه مؤخَّراً في الجزائر، وتمَّ بضغوط من جماعات الإسلام السِّياسيِّ، ليتلاءم مع الشريعة الإسلامية، سيكون الإجراء الوحيد أم ستتبعه إجراءات؟ وتكلَّم بقطاش وقال إن الحكومة تتفاجأ بتغلغل الجماعات الإسلامية في داخل المجتمع، وأنها تعرف أيَّ مواجهة معها ستُنذر بكوارث، لذلك تعمد إلى مهادنتها، وبالتالي معالجة الخطأ بآخر. وتدخَّل صلاح معلِّقاً إن تدهور الاقتصاد في الجزائر لا يعني فشل النهج الاشتراكي في معالجة الأزمة، مُوضحاً أن الحلَّ ليس في تشجيع الشركات والقطاع الخاصّ، وقذف البسطاء إلى الهاوية.

وعاد بقطاش ليقولَ شيئاً عن تكاثر عدد النساء، اللواتي يرتدينَ الحجاب في بلده. وانتشرت الحَيْرة على ملامحه، فهو يجهل أين يمكن أن ينتهي كل ذلك. وسحب قبَّعته من فوق رأسه، وأخذ بغتة يلهو بها. سيواجه مَنْ لازموه طويلاً صعوبة في التَّعرُّف عليه من دونها، إذ تحوَّلت جزءاً من رأسه. لا يركن إلى السكون. يتحرَّك بقطاش مثل شخص ممسوس، لم يجهل أحد، ممَّنْ اعتادوا عليه، أن ذهنه مشغول. لا يغادر المعهد سوى عندما يوجس، أن ما يُقلقه

لا تستطيع الجدران أن تكبحه. تُقلقه الأفكار التي تتطرَّف في جمالها الماركسي. تُرهقه الوعود التي تبذلها عدن للقادمين مثله. ثمَّة نار بشعلة زرقاء تلتهب في جوفه.أوقاته يُمضيها بين معهد الاشتراكية العلمية واتِّحاد الشبيبة. في ساعات فراغه في المعهد، ينهمك في صنع مستطيلات ومربَّعات من ألواح خشبية رقيقة، ليكتب فوقها بقية الطَّلَبَة مقولات خالدة لكبار الثُّوَّار في العالَم. ثمَّ يقوم بتعليقها على الجدران في مداخل المعهد، وفي الممرَّات بين المكاتب. وحيناً يبادر إلى تشكيل مجموعات صغيرة من الطَّلَبَة، ثمَّ اقتيادها لزراعة أشجار صغيرة في أماكن متفرِّقة، من أجل تلطيف الجوِّ الجحيمي.

وبعد مضي لحظة انحنى عبَّاس إلى الأمام، وذكر أنه ترك المدرسة التي يُعلِّم فيها. وضَّح لهم أنه لم يرتحْ لمسألة الاستمرار في ضوء المحاولات اليومية، لجَرِّه من زملاء عراقيِّيْن إلى نقاش، وأحياناً شجار بالكلمات، حول مواضيع تُشعره باللَّاجدوى. شيوعيون مثله غير أنه ما اطمأن لهم يوماً، يعتقد أنهم يبالغون في كل شيء، وأنهم على استعداد تامٍّ لتملُّق الآخرين. ويجول بعينَيْه في المكان المزدحم، ويشعر أنه ليس على ما يرام. تردَّد في الخروج الليلة، كان مزاجه كدراً، وأكثر ما يكون قاتماً، حين لا يجد ما يعمله. بالقوَّة ترك السرير الذي يزاول، وهو ممدّد فيه، بعضَ نشاطه اليومي، كالقراءة ومراجعة واجبات التلاميذ، وسماع الراديو أو مشاهدة التلفزيون، رغم الباب والأمتار التي تفصله عنه. وهو يتفقَّد هندامه، ليخرج، فتح الراديو

على إذاعة البي بي سي، فسمع برنامجاً حول أحداث السنة، التي توشك على نهايتها. التفجيرات التي استهدفت الولايات المتَّحدة في بيروت، وطالت سفارتها وثكنات قوَّاتها، إضافة إلى قوَّات فرنسية، وخلَّفت مئات القتلى والجرحى، لا تزال تداعياتها تهدِّد المنطقة. اتِّفاق الولايات المتَّحدة وإسرائيل على تشكيل لجنة لاستكشاف أشكال التعاون الاستراتيجي بين مصر وإسرائيل، يُواجَه باعتراض عربي شديد. أغلق الراديو، وخرج.

رمق الوجوه حوله بنظرات باهتة، وسرح بعيداً، متخيِّلاً رفاقه من أنصار الحزب الشّيوعيّ، وهم يتخطّون في الفجر الكمائن المُعدَّة لهم، أسفل منحدرات الجبال، ويراوغون القصف الجوِّيَّ ونيران المدفعية، حين عودتهم إلى مقرَّاتهم في إحدى القرى، أو حين يمضون في البرد وفوق الثلوج إلى مواجهة جديدة، بعتاد قليل وأسلحة قديمة. في براغالتي لم تبخل عليه بشيء، شعر لأوَّل مرَّة بأنه كائن أممي، عاش حياة ضاجَّة رفقة أمميِّيْن من شتَّى البقاع، قاده بعضهم إلى مجلَّة الشّيوعيّة الدّوليّة "قضايا السِّلْم والاشتراكية"، التي تصدر في عشرات اللغات بينها اللغة العربية، وفيها سيزاول أعمالاً عديدة حتَّى وجد نفسه يترجم بعض موادِّها. على أن العمل في تلك المجلَّة أو في اللجان الأممية لم يكن هو الوحيد الذي أسبغ على حياته معنى طالما افتقده، إنما أيضاً لقاءات ومؤتمرات تُقام ليل نهار، ووهبتْهُ مناسبة مثالية للتَّعرُّف على أشخاص، أشعلوا

فيه من جديد جذوة التَّمرُّد ومقاومة الطغيان، ودفعوه إلى أن يرسم مصيره بنفسه.

في خضمِّ تلك الحياة التي لم يُكدِّرها شيء، عدا فقده لأُمِّه وأشواقه لخطيبته، راح يصغي لنداء الإنسانية، يصله من كل حَدَب وصَوْب. كانت براغ جميلة بقلاعها وساحاتها القديمة، ونهرها فلتافا قطعة من الجنَّة، تمكَّن من قول ذلك مرَّات لنفسه. وفي لحظة خَوَاء عصفت بروحه، وجعلتْهُ في مهبِّ رياح عاتية، أدرك أنه بلا قضية في ذلك الجزء من العالَم الشّيوعيّ، وأن عليه العودة إلى الواقع الذي يعرفه، والذي لا بدَّ ينتظره. خطَّط للذهاب إلى بيروت للالتحاق بمنظَّمة التحرير الفلسطينية، وتمَّ الأمر كما يشتهي، وفي آخر لحظة، قرَّر تغيير خطِّ السير والتَّوجُّه إلى عدن. وها هو هنا يتقلَّب في جحيم نهاراتها وغبار شوارعها وبساطة الحياة فيها. ورغم كوابيس المطاردة وحالات الارتياب من الغرباء التي تغشاه باستمرار، يتأكَّد له أنه يعيش حياته كما يهوى، وأنه يُسهم قدر استطاعته في بناء هذا البلد الاشتراكي.

نظر صلاح إلى الشارع الذي يُفضي إلى عقبة عدن، وأخذ يراقب العربات من خلف الزجاج، وهي تنساب وقد فقدت الضوضاء المزعجة التي تُخلِّفها من وراءها، وراق له منظرها بلا صوت، ظهرت له مثل أسماك ملوَّنة تعوم في حوض زجاجي. تدريجيَّاً أخذت تشحُّ. وأخبر عبَّاس من دون أن ينظر إليه، أن لديه من الأعمال المؤقَّتة، ما يمكن له أن يقوم ببعضها، حتَّى يعثر على وظيفة مستقرَّة. ثمَّ

كأنَّما شعر الجميع بالمَلَل نهضوا دفعة واحدة، ولم يخطرْ على بال أحدهم أيَّ مكان آخر يمكن أن يقصدوه، وكانت الساعة تخطَّت الحادية عشرة، فلبثوا يسيرون قليلاً وهم يراقبون أضواء لمحالّ شحيحة حولهم، وهي تنطفئ تباعاً. وتوقَّف باص، ليُنزِل رُكَّاباً، فانتهزتْهُ سناء، وودَّعت البقية، ومضت تركض ناحيته. ومكثوا هم يشيعون بنظراتهم الباص المجري الصنع، حتَّى اختفى. ظلَّت ضوضاؤه تُدوِّي في أسماعهم، بينما يرقبون الأدخنة التي خلفها تتبدَّد خلال الظلام.

11

لسبب ما خطر لها في تلك الليلة المشؤومة، الذهاب إلى النادي اللَّيليّ في الروك هوتيل. آخر مرَّة زارتْهُ، قبل تلك الليلة بزمن، وجدتْهُ يغصُّ بعرب، يعملون معلِّمين وصحافيِّيْن وبعضهم طَلَبَة، إضافة إلى يمنيِّيْن معظمهم جاء إلى عدن بعد الاستقلال، بدا النادي لحظتها غريباً عليها، كما كانت هي غريبة عليه، فهجرتْهُ، منذ ذلك الحين. لكنها ستعود إليه في ليلة الواحد من مايو، وكانت للتَّوِ خرجت من الاحتفال بعيد العمَّال العالمي، ويمكن سماع الأغاني الوطنية من أماكن متفرِّقة.

مالت برأسها قليلاً صوب إحدى الصور، ونَمَتْ ملامحها عن جمال فريد، وبدت لصلاح مثل مَنْ عاش لحظات حافلة بالمسرَّات، وأن الزمن ما عاد يجود بمثلها. ذكرت

أنه رغم تغيُّر اسم الفندق بعد الاستقلال، إلَّا أن الاسم القديم لم يندثر، بقي يقاوِم مثل ذكرياتها عنه.

في البار تنفَّستُ الصعداء تلك الليلة، التي هجموا فيها على قَدَمي، وكأنها عدوٌّ شخصي لهم، لم يكن صاخباً بالثُّوَّار وبروليتاريِّي الدول الشقيقة.

هنا، بدا واضحاً من نبرتها أنها تريد أن يُدرك صلاح أنها تهزأ، إلَّا أنه لم يكن يكترث لذلك، فهو في هذه اللحظة يتحرَّق لمعرفة ما جرى لها، وتسبَّب في جعلها امرأة محطَّمة، تعيش على الذكريات. لم أمكثْ طويلاً. جلستُ بالكاد، واحتسيتُ فنجان قهوة. ثمَّ نهضتُ متجوِّلة قليلاً عند الحائط الزُّجاجيِّ الذي يطلُّ على البحر من عُلوٍّ شاهق. قبل أن أنصرف، تبادلتُ كلمات مع النادل الأثيوبي، وهبطتُ بالمصعد، وصوت مغنِّية أمريكية سوداء، ماتت في عزلة بعد أن عانت من المرض والفاقة، يحفُّني بفخامة وألم أيضاً "على أشجار الجنوب فاكهة غريبة. دم يلوِّن الأوراق ودم منسدل فوق الجذور. ههنا فاكهة تُركت للغربان.. لتحزَّ قشرتها. تُركت للمطر، ليتراكم من فوقها. للريح، لتنهبها، تُركت للشمس، إلى أن تتعفَّن، للأشجار، إلى أن تتساقط. حصاد غريب ومُرٌّ ههنا". في الخارج غمرني هواء منعِش، لكنه كان غريباً بعض الشيء، فشعرتُ به على وجهي مثل الصفعة.

وتوقَّفتُ عن الكلام، كَمَنْ كانت لديه رغبة عارمة في كشف سرٍّ، ثمَّ شعر تدريجيَّاً بالفتور، فتجاهل كل شيء.

وأحسَّ صلاح بالإحباط، لأنها لم تُكمل ما جرى، ودار في خَلَده أنه غير قادر على التصالح مع هذه المرأة، التي يتوزَّع جسدها وعواطفها وذكرياتها في مدينة بحقيبَتَيْن وأكثر من وجه. كم ادَّخر هذا الخاطر، مُوهِماً نفسه أنه يُخطِئ في تقدير ما يجري له أمامها. في بيتها يفتِّش عمَّا يُنير مناطق مظلمة في مزاجه، عمَّا يجعل الطمانينة تُداخِله تجاهها. بسببها يعاني من أوقات صعبة، تكحت في إيمانه الثَّوريّ.

ترنو إليه بدورها، فتراه يُركِّز نظره ناحية السَّجَّاد تحت قَدَمَيْها. وفيما هي تُحوِّل بصرها إلى النافذة، وترى الغراب نفسه، دائب الحركة مع وليفته، تأخذ في الاعتقاد أنها أصبحت تتعرَّف ما يجعل صلاح مشدوداً يترقَّب، ومتى الأوقات التي تكون فيها مقتنعة أنها تستفزّ الحزبيَّ والرِّيفيَّ، على السواء، في داخله. وتفكِّر أنها أمست سخية معه في الكلام. ولا تجهل أن الهواجس تتملَّكه بخصوصها، وإن كان تدريجيَّاً يروح يُشركها ببعض يومياته، في الدائرة، وفي الأماكن التي يتردَّد عليها مع رفاقه، كَمَنْ يفتح لها ثقباً على عالَم هجرته فور أن تعرَّضت للأذى. بغير حماس تُصغي له تارة، ومرَّات تتوجَّس، كم أن ما يحصل في الخارج لم يعد يمتُّ بصلة لتلك الأيَّام التي عاشت خلالها مع الرجل، الذي لم تعد تُحصي الأشهر على اختفائه. على العموم، تتلمَّس في نفسها حاجة للإنصات، عوضاً عن الخوض في حياتها، باتت ترغب في سماع كلام يأتي من خارج عالَمها هي.

تناولتْ حبَّة تين مجفَّف من صحن فواكه صغير، وقضمتْ قضمة صغيرة، وتركتْها في فمها لثوانٍ، قبل أن تأخذَ في مضغها ببطء. ثمَّ ستتكلَّم: كان يقول لي رقصكِ مليء بالعاطفة. بينما يُنصِت لها صلاح، خالجه إحساس أنها تختلق حكاياتها، عن علاقة جياب بها وبرفاقه وبمواقفه ممَّا يحدث في الحزب، يُنمِّي ذلك الإحساس إفراط صلاح في الإخلاص الحزبي، رغم شعوره الدائم بالنقصان. وممَّا يزيد الأمر خطورة أن إخلاصه أخذ يُصوِّر له، أن نورا بصدد تشويه الثورة، انتقاماً لوالدها ولجياب الذي أخفوه عنها. إصرارها على الحكي عن مواضيع، يرى أنها تمسُّ جوهر الحزب وكوادره، يُقوِّي تصوُّره ذاك. بيد أنه رويداً سيتخلَّى عن هواجسه، ربَّما تحت وقع ألمها وفقدانها، وربَّما تحت ضغط حضورها وهو يضفي على حياته طعماً مختلفاً، شاعراً أنه يذهب بعيداً في حماسته الحزبية. فجأة نهض وأخبرها أن لزاماً عليه الانصراف الآن، لِلَّحاق باحتفال ذكرى الثورة البلشفية، ثمَّ اتَّجه سريعاً صوب الباب دون محاولة استشفاف وَقْع كلامه عليها، إذ فكَّر أن تعابير وجهها لربَّما عكست سخرية ما. إلَّا أن صوتها لحق به قبل أن يبلغ الباب، متسائلة عن وعده لها أنه سيعثر على ما يطمئنها عن جياب، وهنا أغمض عينَيْه بشدَّة، وشعور بالخجل يغشاه، فهو انشغل عن الأمر، وعاد ليُجدِّد وعده لها، بقليل من الارتباك، وفتح الباب، وخرج.

لن أتلعثم هذه المرَّة، في تلاوة النشيد الأممي. قال لنفسه فيما يأخذ طريقه إلى الحفلة، لكنْ، ما إن ألقى بنفسه في

خضمِّ المَدعوِّين، حتَّى تملّكه من جديد شعوره بالنَّقْص. احتسى كأساً واثنَيْن، واحتاج إلى الحمَّام. وهو يتبوَّل عثر على نفسه، يتفحَّص إيمانه العقائدي قدَّام المرآة. تمرُّ الأوقات وهو ممزَّق بين ذلك الرِّيفيِّ الذي كانه، وبين ما لم يستطع أن يكونه في نقاء خالص. لا يطلب الكثير، فقط أن يكون كامل الإيمان بالثورة والحزب. في كل صباح وهو يتناول إفطاره، طبقاً به قطعة سمك صغيرة مغمورة بالصلصة، أو فاصولياء بيضاء وكوب شاي، في مطعم جيفارا لصاحبه محمود، عجوز حارب مع الجبهة القومية، وقبلها كان أجيراً عند أسرة فارسية، اشتهرت بامتلاك عدد من الصَّيدليَّات، وبينما يحدِّق في الحوافِّ المعدنية المطعّجة للطبق الصغير، في السخام الذي ينتشر حولها من الخارج، في نقط سوداء عبارة عن كمُّون أسود، ويهشّ بعيداً الذباب بظاهر يده، وهو يتلفَّت إلى عمَّال وموظَّفين وضابط أو اثنَيْن، ينكبُّون على تناول إفطارهم البسيط، يشغله الرضا الذي يقابل به أحواله على اختلافها، ثمَّ يخطر له، وكأنما الأمر يحدث لأوَّل مرَّة، أنه ما جرَّب يوماً مشاعر أخرى، ويتساءل: ولِمَ عليه أن يفعل ذلك؟

مضى وقت عندما تراءى له أنه تحوَّل إلى فرجة، لأشخاص لا يستطيع تمييزهم. يظهرون له في هيئة ضبابية، وتفاجأ أنه غير قادر على أن يخرج ممَّا هو فيه، كَمَنْ سيعبر من ضفَّة إلى أخرى، ويجد ما يمنعه. أغمض عينَيْه بقوَّة، ونفض رأسه، ثمَّ فتح عينَيْه ثانية، ليجده، خلال المرآة، في مواجهة دانيا روزاليس، فتاة كوبية، كانت خلفه

مباشرة، وقد تذكَّر أنه نسي إغلاق باب الحمَّام. أخذت تُومئ له بحركات من يدها، في إشارة إلى أنه كان يسرح بعيداً في أفكاره، واستدارت. تراجع قليلاً، وفتح صنبور المياه، ثمَّ أغلقه، ورتَّب ملابسه، ثمَّ خرج. حاول أن يبتسم، وأن يقابلها ببشاشة تليق بفتاة جميلة، يراها بعد مرور زمن طويل، واحتاج لوقت حتَّى ينفض عن رأسه هواجسه تلك، ويبدأ تدريجيَّاً استئناف الحفلة. كان أحد كوادر الحزب دعا، بصورة شخصية، كل هؤلاء إلى حفلة خاصَّة في هذا المطعم الفاخر الذي يحتلُّ الطبقة الأخيرة من فندق حديث، آل مشروع تشييده إلى شيوعيِّيْن لبنانيِّيْن. ولمَّا كان صلاح ضمن المَدعوِّين، فقد اصطحب معه بعض رفاقه.

التقطت دانيا كأس فودكا من صينية، يدور بها نادل، بملامح هندية، بين الضيوف ومدَّتْهُ له. وبينما يأخذ رشفات كبيرة منه، أخرجت من حقيبتها سيجاراً غليظاً فاخراً، وأشعلتْهُ، وقبل أن تُناوِله أخذت أنفاساً منه، ومجَّتْها في وجهه مباشرة. كانت مبتهِجة، وترغب، فيما يبدو، أن تراه مبتهِجاً هو الآخر. وسألها عن رفيقها الألماني بول، إذ تصادف أن التقاه مرَّة برفقتها، وظهر له مشغولاً بتتبُّع آثار فيرينا بيكر، المناضلة التي لجأت إلى عدن قبل أعوام، بعد أن أُدينت بتفجير استهدف بريطانيِّيْن في برلين، دعماً للجيش الجمهوري الإيرلندي. سأل بول يومها صلاح عن شخص يُدعى مارتان، عرف أن فيرينا ارتبطت به لفترة هنا، وأنها تركت في حوزته وثائق تمسُّ حركة 2 حزيران، قبل عودتها ثانية إلى ألمانيا.

لم تجبْهُ دانيا عن سؤاله، وأخذت تترنَّم بصوت خفيض: "أخذت السفن سكري، تاركة لي الدموع. أحياناً يبدو لي. جذوري ممتلئة بالدم. أحياناً تبدو الهمهمات من حولي، وليس صوتاً صادراً من المحيط، بل كعضَّات الدموع المختنقة وتنهُّدات البكاء"، وأخذت تتمايل وكأنما الفودكا والسيجار يطوحان بجسدها على نحو بطيء، ثمَّ قالت إنها قصيدة لشاعر كوبي. واستمرَّت "مَنْ يجيب نداء الدم؟ مَن المسؤول عن هذه الدموع؟". كانت ذراعها الآن مثنية على كتفه، تجذبه إليها مرَّة، ثمَّ تدفعه بلطف، وشفتاها مبتلَّتان، قريبتان من وجهه، تكادان تهمسان له بشيء، فيشمّ أنفاسها الدافئة.

بدوره كان سعيداً أن تغمره، دوناً عن البقية، بهذه الرعاية، وأخذا يتمايلان على موسيقى "موسكو في الليل"، التي تنبثق في جلال من حيث لا يعرفان. الرتب العسكرية تلمع، فبدا له حفلاً عسكريَّاً أكثر منه عيداً أمميَّاً، وقدر أن يرى أعقاب المسدَّسات الصغيرة تلمع، من أسفل البدل. يرى نخبة عدن وشيوعيِّيْها يؤجِّجون الاحتفال، بتجديد الولاء وتأكيده المرَّة تلو الأخرى للسوفيت وثورتهم، مُنكِّلين العام وراء العام بجيش الملكة وتاجها، ضاربين عرض الحائط بأصحاب الهوى الماوي. وينزلون ستائر ثقيلة، من حديد، لو تطلَّب الأمر، على تلك السنوات، على الرَّجعيَّة والوجوه الساطعة لمُمثِّليها، من سلاطين وتجَّار وشيوخ دين. ورأى شيوعيِّيْن عراقيِّيْن ولبنانيِّيْن وسوريِّيْن

وسودانيّيْن ومصريّيْن وأردنيّيْن وجزائريّيْن، وخبراء سوفيت وكوبيّيْن وكوريّيْن وآخرين لا يعرفهم.

دفعت دانيا صلاح خطوات بين المحتفلين، وعرَّفتْهُ على خبير روسي يُدعى سيرجين، عمل طويلاً في كوبا، ويعمل هنا في قاعدة جوّيَّة، تُدرِّب طيَّارين يمنيّيْن، فانتهز هذا الفرصة، ليقول إن إيمان العناصر، الذين تتكوَّن منهم لجان الدفاع عن الثورة، ينبغي أن لا تشوبه أيَّة شائبة. "يجب أن يبقى خالصاً، نقيَّاً وصلباً". سيرجين طويل، له وجه مشدود الجِلْد، مثل قناع، وشعْر كثيف، بصلع خفيف يشوبه في المنتصف. وسألت دانيا:"حتَّى مع وجود أخطاء؟"، ولم يكن ذلك بحثاً عن إجابة فعلية من ناحيتها، بقدر ما هو رغبة في افتعال نقاش، فهي قطعاً تدرك ما يرمي إليه الخبير."الأخطاء ليست ملح التجارب، إنما أيضاً ضرورة"، ردَّ الخبير، "أيُّ تجربة بلا خطأ يتعيَّن الحذر منها." زمَّت الفتاة شَفَتَيْها، وهزَّت رأسها، وكانت تنظر بودٍّ إلى صلاح.

وفي لحظة تصاعد غناء من حناجر كثيرة، يمكن تمييز الصوت الشَّجيِّ بينها بصعوبة، لكنْ، كان اللحن يُذوِّب الأصوات كلها في إيقاعاته الجميلة. خليط يمنيّيْن وعرب من خرِّيجي موسكو وبعض الروس والكوبيّيْن، راحوا في حماسة كبيرة يصدحون بأُغنيَّة كاتيوشا: كانت أشجار التُّفَّاح والخوخ مزهرة. وفوق النهر يهبط ضباب الصباح. صَعِدَت كاتيوشا الصغيرة على حافَّة الجرف، والنهر يُغلِّفه الضباب. على حافَّة النهر، بدأت كاتيوشا تُغنِّي عن النسر

الرَّماديِّ الشامخ في السهول، وعن الذي تُحبُّه كاتيوشا من قلبها، وتصون رسائله إليها. أيَّتها الأُغنيَّة عن الصَّبيَّة العذراء، طيري إلى حدود الشمس، طيري مثل طاير إلى الجندي البعيد عن الحدود. من كاتيوشا أوصلي السلام. لعلَّه يفكِّر بالعذراء القروية، لعلَّه يسمع أُغنيَّة كاتيوشا. وكما يحرس أرض الوطن العزيز، سوف تحرس كاتيوشا حُبَّهما إلى الأبد".

وضجَّ المكان بتصفيق حادٍّ وطويل. كانت الأُغنيَّة تحكي قصَّة فتاة تنتظر حبيبها الذي ذهب للحرب. ولاحقاً تمَّ اختراع سلاح فتَّاك، يُصدِر صوتاً مميَّزاً، يرفع من معنويات المقاتلين، وأطلقوا عليه اسم كاتيوشا. عادت "موسكو في الليل" تتدفَّق مثل السِّحْر في أسماعهم، تلك الموسيقى التي تتحوَّل رويداً، إلى ما يشبه ترياقاً ضدَّ اليأس والإحباط والعدم، وكانت الفودكا والسيجار الكوبي يشيعان الحيوية والبهجة في جوِّ الحفلة، ويفتحان أبواباً كثيرة للأحلام، ويجعلان المستحيل في المتناوَل.

نطق سيرجين وهو يمضغ الطعام ببطء، كَمَنْ يحاول أن يعثر في الطَّعْم على عنصر يفتقده، كلمة "الغار"، فلم يفهم صلاح، وانتظرت دانيا توضيحاً أكثر، فقال الرجل السِّتِّينيُّ إنه لا يهنأ له تناوُل طعام ليس فيه المذاق المُرّ لأوراق الغار. وأضاف مخاطِباً صلاح أنه لا يستطيع أن يأكل الموز كما يأكل في عدن، إذ تعوَّد عليه كما يقدِّمونه في هافانا. يذهب سيرجين شبه يوميٍّ لتناوُل الطعام في المطاعم التي تقع بالقُرب من البحر، ودائماً ما يطلب

صغار سمك القرش مَطهوَّة بالبهارات والتمر الهندي، ولا يَفُتْهُ في بعض المرَّات أن يسأل عن الحلبة والبسباس والبصل الأخضر. وبات شائعاً أنه من الروس الذين يحبُّون العيش في عدن، ويتفانون في تقديم كل ما يمكنهم، على العكس من آخرين روس وعرب تحديداً، يزعمون أنهم جاؤوا لدعم التجربة، ثمَّ لا يلبثون يطالبون، رغم فقر البلد، بامتيازات كثيرة في السَّكَن والمواصلات، وببدل سفر، لهم ولأُسَرِهم.

أنهى سيرجين طعامه، ثمَّ قال، وهنا ميَّزت نبرة صوته عتباً ملحوظاً، إنه لا يغفر للرفاق، في عدن أو هناك في موسكو، حرمان اليمنيِّيْن من أجود أنواع السمك، الذي يُصدَّر للخارج لجلب العملة الصعبة. وراقبوه وهو ينشغل بإنهاء طعامه، ثمَّ ما لبث أن تكلَّم موضحاً وهو يرتشف من كأسه إن الاشتراكيِّيْن اليمنيِّيْن لديهم الرغبة في التطوير وبناء نظام قوي ومرن، وإنهم يصغون إلى الجميع، ويجهدون في تحقيق ما يمكن تحقيقه. لكنه أبدى خشية من أولئك الذين يأتون وكأنهم يملكون وصفة سِحْرِيَّة، لتحويل البلد إلى جنَّة للجميع، في استغلال للنوايا الحسنة لدى اليمنيِّيْن. "هؤلاء لا يبذلون جهوداً حقيقية، وفي أوقات الأزمات إمَّا ينحازون إلى طرف من دون دراية بالمسألة، أو يكتفون بطرح المقترحات، وأحياناً الفرجة من بعيد، إذا تعقَّدت الأمور". "كأني بكَ تلمح إلى قادة الأحزاب الشّيوعيّة العربية، تحديداً؟"تكلَّم عبَّاس الذي انضمَّ إليهم، وبرفقته فاسيلي، وهو مستعرب روسي كان يعمل مترجماً

في معهد باذيب للاشتراكية العلمية، أمَّا حالياً، فهو يشرف مع خبراء على إدارة أحد المشاريع، التي أُنشئت لتنمية الثروة السَّمكيَّة، ونجح مع هؤلاء في توفير دخل جيِّد من صادرات أنواع بعينها من السمك والأحياء البحرية.

لم يُعلِّق سيرجين بنعم أو لا حول ما تفوَّه به عبَّاس، إنما اكتفى برسم تعابير امتعاض على وجهه. ومع الأطعمة والشراب تشعَّب النقاش، وذهب في نواحٍ مختلفة، فتكلَّموا عن عدم الانفتاح في عدن على كامل التجربة الماركسية في العالَم، واقتصار العلاقة على موسكو، وحيناً على الصين، وفقاً للجناح الأقوى في الحزب. وقال فاسيلي مخاطباً صلاح، الذي أخذ يتلفَّت حوله خشية أن يُسمَع نقاشهم، إنكم تُصرُّون على وَضْع عدن وهافانا في كفَّة واحدة، وبالتالي كأن على موسكو أن تلتزم بدَفْع فواتيركم. فاسيلي طويل بوجه تخالطه حمرة، ويرتدي سترة كحلية وقميصاً أزرق تاركاً ربطة عنقه مَرخيَّة قليلاً، وقد حلَّ أحد أزارير قميصه، وكانت تفوح من جسمه ملوحة البحر، كأنَّما قضى سحابة نهاره في السباحة، كان أحد الداعين إلى عقد مؤتمر للشباب، وأعلن خلاله عن تأسيس اتِّحاد الشباب اليمني الدّيموقراطيّ "أشيد"، على غرار اتِّحاد الشباب الشّيوعيّ السّوفيتيّ. يقيم في شُقَّة، وهبتْها له الحكومة، ويتشارك فيها السَّكَن مع رفيق، يعمل في مصنع للبيرة، يديره ألمان شرقيون.واضطرَّ صلاح أن يأخذ النقاش إلى وجهة أخرى، عندما قال وكأنما هو أحد الممسكين بالقرار في الحزب، إننا سنواصل دفع الثمن لعدم

وضع أحوال المنطقة في الاعتبار، "انغلاق المنطقة في وجوهنا لم يعد يُفاجِئنا". وتكلَّم عبَّاس قائلاً إن عدن "حلم غال يتحقَّق أمام عيوننا، لذلك هي تبدو أشبه ما تكون بجسم غريب في محيطها". وكأنما أوحى كلام عبَّاس بشيء لبقطاش، ليلفتَ نظرهم إلى أن خصوم عدن ما برحوا يُطلقون الإشاعات، ويتَّهمونها بالإرهاب الدّوليّ. وابتلع جرعة من مشروبه، وأخذ نَفَسَاً من سيجاره الغليظ، الذي في ما يبدو أعطتْهُ له دانيا، وأضاف أن "مؤازرة رفاقنا في العالَم ليس إرهاباً، إنما واجب مقدَّس". بعد حين أصغوا إلى فاسيلي ثانية يقترح، بينما ينهش من ورك دجاجة مشوية، انفتاحاً أكثر ودعماً للتجربة بخبراء من دول متنوِّعة.

رأى صلاح هيرتا، الألمانية الشَّرقيَّة، فمضى إليها. قبَّل يدها، وتبادل معها كلاماً، كانت قد درَّبت بعض رفاقه في جهاز الأمن، وأوصتْ حينها بضرورة استكمال تدريباتهم في ألمانيا. كانت طويلة وشَعْرها كثيفاً، لها رائحة فاكهة الجريب فروت. كان يرافقها شابٌّ ألمانيٌّ أطول منها بقليل، ببنية رياضية وملامح صارمة، وكان شديد الأناقة. وكرَّر صلاح أمامها أنه حين ذهب إلى ألمانيا مع مجموعة من الرفاق، للتَّعرُّف عن قُرب على التجربة الاشتراكية، شعر لأوَّل مرَّة بالزهو كونهم اشتراكيِّيْن، وأنهم أصبحوا جزءاً من المعسكر الاشتراكي. أيَّامها أصرَّ الألمان على إقامة احتفالات لهم في مدن عديدة، وجعلوهم يزورون مصانع ومعامل فيها. وقال الشَّابُّ الذي يرافقها إنه يشفق على هذا

البلد، الذي يتحمَّل كل هذه الأعباء، وكأنه أصبح بلداً اشتراكياً فعلاً، مشيراً إلى أن موارده لا تسمح له أن يُقدِّم كل هذه الخدمات لكل هؤلاء الناس. "هو، في النهاية، بلد ناشئ، ينهض من العَدَم". ولم يدرِ صلاح إذا ما كان قوله هذا ينطوي على إعجاب وتعاطف مع ظروف عدن، أم أنه يستكثر عليهم التَّطلُّع إلى الاشتراكية.

يتركهما ويختلي قليلاً بنفسه، وما لبث أن أخذ يفكِّر في تغيُّب سناء عن الحفلة، بينما يتناهى إليه خليط من الرُّوسيَّة والإنجليزية والألمانية والعربية، ويتخلَّى الكلام عن نبرة النقاش، ومع انصراف معظم المَدعوِّين، يمضي متفرِّعاً لمواضيع بسيطة، فأبسط، حتَّى لم يتبقَّ اثنان، يصغي واحدهما للآخر.

ينقل نظراته بين الجميع، فأبصر دانيا تعانق بقطاش، فحوَّل نظراته عنهما إلى ناحية أخرى، فاصطدم بعبَّاس وهو يتودَّد لمرأة في الأربعين، مخمِّناً أنها أحد أعضاء وفد تشيكي يزور عدن حاليَّاً، وكان قد طلب منه مرافقتهم، كونه عاطلاً عن العمل هذه الأيَّام. ولوَهْلَة تملَّكتْهُ مشاعر ثقيلة بلا سبب، وكان الليل قد تقدَّم كثيراً، فاندفع خارجاً.

12

أوَّل مرَّة رأيتُ "بحيرة البجع"، لم أستطع أن أُكمل العرض وأنا جالسة فوق مقعدي، أغلب الظَّنِّ أنني أكملتُ الباليه جاثية فوق ركبَتَيَّ.

سمعها تتكلّم، وعرف أنها تنظر إليه الآن، فيما هو ينشغل بتأمُّل تمثال الراقصة بليستسكايا. تحوَّلت نبرتها لتمتلئ بزهو أسطوري. لم أقدر على احتمال كل تلك الخفَّة، وذلك النقاء في الأداء. كم أحببتُ نفسي وأنا أشاهد راقصة الباليه الأولى في مسرح البولشوي، مايا، تؤدِّي دور أوديت.

يهرب صلاح بنظراته إلى أشياء أخرى، تتناثر في حجرة الرقص الوسيعة التي تظهر له، من حيث يجلس، في حال يُرثى لها، ليس أكثر من شاهد على لحظة مضت، وتتبدَّى اليوم صعبة المنال حتَّى في كيفية تذكُّرها كاملة. في مراياها الحائطية الكبيرة، ثمَّة شرخ طويل، يمتدُّ مائلاً كمؤشِّر بياني. يكاد يُخامرها شكٌّ أن كل ذلك مجرَّد كابوس وينتهي، وستعود من جديد للرقص. بمجرَّد ما نقلها جياب إلى هذا المنزل، حتَّى شرعت في تهيئة حجرة للرقص، بتهديم جدران وتوسعة حجرة، تطلُّ على شارع جانبي، تصعد منه أصوات المارَّة، وروائح طبخ ونعيق غربان، وأحياناً نباح كلاب.

كنَّا في موسكو، وكنتُ بحتُ لجياب برغبتي أن أراها. في الواقع لم تكن رغبة ملحَّة إلى الحَدِّ الذي إذا لم تُلبَّ، سأشعر بأني لستُ على ما يرام. وتفاجأتُ أنه أجرى اتِّصالات سريعة برفاق له، وفي ساعات قليلة، أصبحت أعرف أين يمكنها قضاء بعض الوقت، وفي أثنائه يكون في مقدوري رؤيتها، وربَّما الاقتراب منها. شاهدتُ عروضاً حَيَّة لها، كنتُ أراها كائناً من نور وغيم وروح. تتذكَّر نورا أنها في الطريق إليها، رأت أشجاراً متجلِّدة،

وسكارى في منعطف طريق بأيديهم قناني الفودكا، وسمعت صوت كمان نائح يعزفه متسوّل، يقف عند زاوية شارع تُغلِّفه نصف ظلمة، فشعرتْ بكآبة صقيعية تلفُّها. وحين تسنَّتْ لي رؤيتها، بل وحتَّى ملامستها سرعان ما تبدَّدت الكآبة، ولم أستطع أن أبقى واقفة، تهاويتُ في مكاني، بالكاد تمالكتُ نفسي. وترقَّبتُها وهي تمرُّ بجواري، وتعمَّدتُ الاصطدام بها اصطداماً رقيقاً كالارتطام بوسائد من ريش. ورأيتُها تمضي كهواء خفيف، حتَّى تلاشت في نهاية طريق صغير. أتذكَّر ذلك تفصيلاً فآخر، لأن تلك الليلة كان لدينا عرض على مسرح موسكو الفنِّيِّ، انفلتُّ قبل بدء العرض، وذهبتُ، لأن ذلك الوقت الذي كانت تتواجد فيه خارج قاعات الرقص. وحين عدتُ مسرعة، كانت الفرقة قد دخلت في الفقرة الثانية، وبدأت معهم الفقرة الثالثة، كنتُ كالمسحورة.

قلتُ لها أنا مثلكِ، يا مايا، لم يُسمَح لي بالسفر خارج البلاد إلَّا بعد أعوام. لا، كنتُ سأقول لها ذلك، في ما لو تجرَّأتُ وأوقفتُها. بدت لي شاردة، خصلات من شَعْرها الأحمر تنسلُّ من تحت قبَّعة الفرو، وأنفها بدا دامياً من البرد، وهو ينفث بخاراً رقيقاً. كانت تتناول شوربة البنجر والملفوف الأحمر مع قِطَع من الخبز المغطَّى بالجبن، في مقهى ومطعم يبدو قديماً غير أنه أنيق، وتُميِّزه مسحة من عراقة ظاهرة، يطلُّ على ميدان فسيح في شارع آربات. كنتُ سأضيف: لستُ يهودية مثلكِ، ومع ذلك مُنعتُ من السفر. سمحوا للأخريات أن يمضينَ مع الفرقة. هم فكَّروا أنني ما

زلتُ ابنة أبي، وأنتمي إلى سلالته السُّلطانيَّة، وأنه لم ينضجْ وعيي الثَّوريُّ بعد، وتردَّد أنهم توقَّعوا أنني أيضاً أنتمي لجياب أكثر من انتمائي إلى الحزب، فرغبوا في معاقبته عندما قيَّدوا حركتي. لاحقاً وبداعي الشفقة، ربَّما، عليه، وافقوا أن أسافر وأشارك في المناسبات الدّوليّة. في الواقع إن مدير الفرقة كان لا يدَّخر جهداً، في سبيل أن يضع حَدَّاً لهذا المَنْع. كان يهمُّه أن تظهر الفرقة بأفضل مستوى، فيبذل أقصى ما يستطيعه، حتَّى يقال إن فرقة جمهورية اليمن الدّيمقراطيّة الشَّعبيَّة، لفتت الأنظار. وكانت كوبا الخارج الذي استقبلني أوَّلاً، ثمَّ تتالت الأسفار حتَّى لم تبقَ صفحة في جواز السفر بلا ختم.

لم تترك حكايتها مع الراقصة الرُّوسيَّة أيَّ أثر في نفس صلاح، الذي كان مشغولاً بالرائحة التي تغمر المنزل. كلَّما هزَّت جسدها لحماسة تعتريها، تنتشر رائحة العطر أكثر. ويكاد يفطن إلى أن وجود الرائحة بهذه الكثافة وراءه إصرار ما، ليس بالضرورة تعمُّد الإغواء أو أن تبدو في كامل تبرُّجها. تشغله الرائحة قليلاً، ثمَّ لا يلبث أن يواصل إصغاءه، ويسأل نفسه، إن كان في مقدوره كتابة ما تفوَّهت به آنفاً في مذكّراتها. وخطر له أن لديها الكثير لتقوله، ما يعني الحاجة إلى مزيد من الوقت لفَحْصه وكتابته، ثمَّ تصنيفه وتوزيعه إلى أبواب وفصول. وَقَرَ في باله أن الوقت لا يزال باكراً لكل ذلك، وأن ما عليه سوى أن يستمرَّ في الاستماع إليها. وواجه سؤالاً لا مفرَّ من طرحه: في حال تأكَّد أنها كانت تختلق كل هذا، أو ذهبت ثانية في

الخلط بين الحوادث والشَّخصيَّات، كما سبق وأن اكتشف شيئاً من ذلك، ماذا يتعيَّن عليه أن يفعل؟ لم يدرِ بماذا يجيب نفسه، وبقي مشتَّتاً. غير أنه لم يشأ لأيٍّ كان أن يعرقل زياراته لمنزلها، وأن يستمرَّ في الإصغاء لها، ثمَّ كتابة كل ذلك، فقد تأكَّد له أن فكرة كتابة مذكّراتها تسلَّلت إلى حياته اليومية، واستحوذت عليها تماماً.

نيكيتا خروتشوف سمح لها. عادت نورا لتقول وهي تحدِّق في الصور، كَمَنْ يفتقد صورة بعينها. من دونه لم تكن لتستطيع السفر. ومنذئذٍ ومسارح الباليه في عواصم كثيرة، تترقَّب خطواتها الملائكية. طالما حلمت بلقب "العازفة المتفرِّدة". جياب أوَّل مَنْ قال لي إنهم أطلقوا عليها لقب العازفة المتفرِّدة. لم يُسمِّني أحد في الفرقة بالعازفة المتفرِّدة، إلَّا أنني كنتُ كذلك. حتَّى حين لا يريدون قولها، رغماً عنهم يفيهون بها. لا أحد لديه قدرتكِ في جمع خصائص فنِّيَّة، هكذا كان جياب يردِّد دوماً على مسامعي، يصعب التئامها في جسد واحد، وفي لحظة واحدة. للأمانة كانوا هم يتألَّقون على المسرح، لكنْ، ما إن تهلِّين بتلك النقلات الرشيقة، حتَّى يبهت تألُّقهم، ويضمحلّ. تصمت نورا ومن دون حاجة لأن يلتفت إليها، سيتخيَّل وجهها يلبده التَّأثُّر، فيما هو يحدِّق أمامه، ولا يُبصِر شيئاً.

البار الكئيب الذي يقود إليه زقاق يتفرَّع من ميدان كريتر، كان على موعد مع عبَّاس وفتاة تشيكية، قدمت رفقة وفد للمشاركة في مؤتمر أممي. قال عبَّاس إنه كان يذهب إليه وحيداً، ثمَّ يروح يحكي للبقية عن أضواء البار الشاحبة،

وهي تُحوِّل الزبائن الشحيحين إلى هيئات طيفية. بلا وجوه صريحة، يروحون يحتسون مشروبهم، بينما يُنصتون إلى أحاديث بعضهم البعض. عن النادلَيْن الوحيدَيْن، يتكلَّم أيضاً، أحدهما يخيِّل إليه أنه ينتمي إلى إحدى تلك الأُسر الأرستقراطية، التي سمع عنها، وغادرت عدن عقب رحيل الإنجليز، لفرط ما كان يحيط به الزبائن من سلوك راقٍ ودماثة لامتناهية. رأى المرأة ضمن الوفد التّشيكيّ، ولفتت انتباهَهُ منذ أوَّل وَهْلَة. كان فيها ما يجذب أيّ رجل، وربَّما ما يجعله يخشى على نفسه، جسد مُغوٍ وروح جامحة. في الليلة الثانية لهم هنا اصطحبهم عبَّاس إلى هذا البار، لكنْ، لم يجمعه بها حديث مشترك، ولم يرد أن يغامر ويبدأ. عقب ذلك بليلَتَيْن، وبينما كان جالساً يحتسي البيرة في ذلك البار المقفر تقريباً، هذه إحدى الخصال التي تدفع عبَّاس للذهاب إلى هناك وحيداً، هوت المرأة فوقه. ولاحظ بمجرَّد أن تفاداها وتوخَّى أيضاً عدم سقوطها، حين نهض من مقعده، وساعدها على البقاء متماسكة، أنها قد بدأت تدخل في حال من السُّكْر الثقيل، المؤجِّج للذكريات الأليمة. مُمسِكاً إيَّاها بإحدى يَدَيْه، راح يسحب باليد الأخرى كرسيَّاً من طاولة مجاورة. قعدت وأرخت رأسها إلى الوراء قليلاً. شَعْرها كثيف، له رائحة الليمون الأخضر، يكاد يغطِّي وجهها، فتأخذ بكلتا يَدَيْها تحسره بتثاقل عن وجهها، فتجلَّى أبيض خالطتْهُ حرارة عدن بحُمرة قانية، وظهرت له أجمل كثيراً من المرَّات التي رآها فيها رفقة الوفد.

توقَّع صلاح الذي وصل إليهم متأخِّراً، أن تكون المرأة التي يتحدَّث عنها عبَّاس هي نفسها التي رآه، ليلة الاحتفال بذكرى الثورة البلشفية، مشغولاً بالكلام معها. فيما هو يتأمَّل حلاوة الوجه، تذكَّر عبَّاس ندى خطيبته، كأنَّما هبطت عليه من السماء بريشة رسمها وعلبة ألوانها، لترسم له بروتريه جديداً، كما اعتادت بين آنٍ وآخر. طلبتُ لها قهوة، وأرغمتُها على التهام قضمة من شطيرة بالجبنة البيضاء. ثمَّ التقيتُها ثانية وحدها في البار نفسه، ذلك أنهم كانوا يقيمون في فندق متواضع، يضمُّ وفوداً أخرى غير بعيد من البار. وأخذنا نلتقي في المؤتمر، ونقضي معاً الوقت خارج الاجتماعات. قرَّبتْنا بعض الذكريات التي رافقتْني من براغ، وعثرت هي فيها على مشترك لطيف.

لا يتذكَّر عبَّاس، بينما يرنو إلى وجوه رفاقه حول الطاولة، ويبلِّل لسانه برشفات من شاي، له طعم النعناع، أنه حكى لها حكاية غير أنه سمع منها حكايات كثيرة. تحوَّلت المرأة إلى وجود حنون، عاشه بكل تفاصيله لأيَّام. أنقذتْهُ، إذنْ، من كوابيس المطاردة، التي تتربَّص به كلَّما عثر على نفسه محاطاً بوجوه غريبة. أخبرهم أنها في ليالٍ قليلة، بعد رحيلها، كانت تخطر في مخيِّلته، لها وجه ندى خطيبته. يراها كَمَنْ يمشي عكس التَّيَّار، تمزّق بأصابع طويلة ونحيلة ستائر ثقيلة، غلالات سميكة، كما لو تحول بينها وبين آخرين تروم اللقاء بهم. ويصغي لصوتها الأقرب إلى الهمس، "أُحبُّ أن أعيش حياتي كما أهوى". في لقاءاتهما ذكرت حانة في براغ تحبُّ الجلوس فيها، وتأخذ مكانها في

شارع، يتفرَّع من ساحة البلدة القديمة، خلف الكنيسة الشاهقة في نايستو ميروا المجاورة لمحطَّة ميترو في المنطقة نفسها، حيث كان، وكانت هي أيضاً، يرهف السمع إلى مغنٍّ يصدح بأغانيه، كَمَنْ ينتحب، صوته ليس جميلاً إلَّا أن فيه ملامح باهتة لشجن غريب. قالت له إنها كانت تذهب إليها عندما تكون في غاية الحزن، وأخبرها أنه لو كان ذلك قبل خمس سنوات، لكان من المؤكَّد التقاها. غير أنها ردَّت مستبعدة ذلك تماماً، ووضَّحت أنها في ذلك التاريخ كانت تعيش بعيداً من براغ، مع عائلة زوجها قبل انفصالهما. زوجها الذي ذكرت أنه كان يغشُّ القادمين الجدد للمدينة، ببيعهم عملات مزوَّرة.

بدا عبَّاس منتشياً وجذلاً مفعَماً بحياة، كان قد نسيها، أو ربَّما أقبلت عليه فجأة. كان تأثير تلك الفتاة، في ما يبدو، عميقاً إلى حَدِّ أنه كلَّما استعادها تلاشت خشيته، وتبدَّد انفعاله. وتكلَّم صلاح وهو لا يستطيع تجاهل الإنصات، لأُغنيَّة تبثُّها إذاعة عدن أو ربَّما من مُسجِّل: عمَّال من فرحة وفلَّاحين اتبدلت، قالت عدن. كل الشعوب مدّت إيديها وسلَّمت، قالت عدن. كل الجنوب قال انتظر، قالت عدن. قالت عدن". وأخبره أن عمله بكره سيكون مع فريق، مكوَّن من خبراء كوريِّيْن وتشيك أيضاً، يقوم بالإشراف على مشروع تأهيل أجزاء من مياه البحر، لتكون صالحة لتربية نوع معيَّن من الأحياء البَحْرِيَّة، تتلقَّى الحكومة طلباً عليه من بلدان مختلفة. وأضاف أيضاً وهو يعابثه أن الفريق يضمُّ خبيرات، وضربه ضربة خفيفة على

فخذه. وحاول عبَّاس أن يتخطّى ما يرمي إليه صلاح، لكنه عبَّر عن حماسة أن يعمل مع أجانب مرَّة أخرى. ونهض صلاح وقال إنه سيذهب لملاقاة شخص، يحتاجه في مسألة لها أهمِّيَّة خاصَّة.

في النادي المتَّفق عليه، التابع لفندق بناه لبنانيون، لم يعثر على الشخص الذي وعد أن يوافيه فيه، ومن المحال أن يأتي زبائن بعد هذا الوقت. كان صلاح قد تكلَّم مع هذا الشخص عن نورا، وضَّح له أنها في غاية الحاجة لمعرفة أيِّ شيء عن جياب، وأن زمناً طويلاً مضى من دون أن يسمع أحد عنه شيئاً، فما كان منه سوى أن أبدى فوراً رغبته في المساعدة. الآن، بينما يجلس صلاح غير دارٍ هل يستمرُّ في المكوث، منتظراً إيَّاه، أم يغادر مسرعاً، خالجه شعور أن الرجل تكشَّفت له استحالة تقديم العون لأحد في هذا الخصوص تحديداً. تدريجيَّاً أمسى المكان شبه مقفر، إلَّا أنه لم ينصرف، وفضَّل البقاء قليلاً. وهو يحتسي بيرته، وينقل نظراته بين الطاولات الخاوية، رأى ثلاثة من الشباب بشعور طويلة وقمصان ضيقة بياقات كبيرة، يمرحون مع النادلة السمراء بصوت عالٍ. وفي الحين تذكَّر رغبة قديمة أن يعرف السبب وراء ترك هذه النادلة،التي تلبس بنطالاً أسود ضيِّقاً وبلوزة واسعة قليلاً، لكنها تُبرِز صدرها الذي تُعلِّق عليه قلادة عبد الفتَّاح إسماعيل، برنامج إعادة التأهيل، وكان قد تناهى إلى سمعه أنها التحقت به مع أخريات. تريَّث قليلاً حتَّى انصرف الشباب، وأخذت النادلة تحاول إعادة الترتيب للمكان. مكث لبُرْهَة يحدِّق فيها عبر

إضاءة خافتة، وكما هو متوقَّع عرفت هي أنه مشغول بها، وحين التفتت ناحيته متوخِّية أن تُظهِر أقلَّ شعور بالاهتمام بتحديقه فيها، لوَّح لها، ولمَّا جاءت، حيَّاها بودٍّ، أكثر قليلاً ممَّا اعتادتْهُ منه.

تلكَّأ قبل أن يقول لها إنه يرغب في مشروب آخر، ثمَّ أضاف أنه يودُّ لو تسمح أن يتكلَّما معاً. بالكاد مسَّت شفتاه كأس النبيذ، وبقي مُمسِكاً به بين يَدَيْه، ووجَّه لها سؤالاً مباشراً، حول تَرْكِها برنامج إعادة التأهيل. وبدت النادلة التي يميِّز إحدى عينَيْها خال صغير، كَمَنْ خابت ظنونها، إذ كأنَّها كانت تتوقَّع سماع شيء آخر. ومع ذلك أخذت نَفَساً عميقاً، كما لو تأخذ في تبديد الخيبة، وشرعت في القول بما معناه أن جسدها كفَّ أن يكون موضوعاً للمتعة العابرة مقابل ثمن، وأنه هو نفسه هذا الجسد سيأخذ كيفية يغدو معها، كَمَنْ يفتِّش عن متعته في أجساد الآخرين.

فاجأتْهُ جُرأتها، وكان ظنَّ أنها لم يسبقْ لها، أن مارست مهنة غير الخدمة في بارات الفنادق. وخشي أنه ما عرف كيف يسألها. وهَمَّ أن يُعيد عليها طَرْح استفساره، غير أنها سارعت قائلة إن الإنجليز الذين كانوا يعاشرونها، يتحوَّلون ضحايا لها، تفعل بهم ما تشاء. كانت تتركهم يثملون قبل أن تحاولَ معهم ما تحاوله، ويشيع في جسدها ذلك الشعور الممتلئ غموضاً وسِحْرَاً وحتَّى عنجهية. فهي، كما تذهب في التوضيح لصلاح الذي أخذ ينحني باتِّجاهها كَمَنْ لا يرغب أن يسمعها أحد سواه، أو لربَّما يريد أن يُنصِت لها بكل جوارحه، تُطوِّع تلك الأجساد التي تُمسك بالبنادق،

وتُصيب وتجرح وتَقتل أحياناً، تدحر فيها تلك الوحشية. كانت تتكلَّم بصوت يتردَّد عميقاً وواضحاً في أُذنه. وخالجتْهُ رغبة وهو يتأمَّل في أصابع يَدَيْها، التي ظهرت له جميلة وناعمة بصورة مثالية، في أن يُدير رأسه بعيداً عنها، إلَّا أنه لم يستطع.

غير أنني في أوقات أصبح لا شيء، صارحتُهُ، ويستطيعون لحظتها أن يفعلوا بي ما يشتهون من أمور غريبة، كأن يتبوَّلون فوق جسدي العاري. إلَّا أن كل ذلك، سواء ما يبدر منِّي اتِّجاههم، أو ما يصدر عنهم إزائي، لا يزيد جسدي سوى سعاراً. كان عليَّ أن أتطرَّق لكل ذلك، قبل أن أُجيبكَ عن سؤالكَ، وأقول لكَ إنه يصعب تفهُّم ما تمرُّ به الكثيرات منَّا، خلال إعادة التأهيل، وإنه حتَّى النادلات والراقصات في الأندية اللَّيليَّة، تشتاق أجسادهنَّ وحواسهنَّ كلها إلى ذلك الجوع عند الآخر، تغدو نهمة لملامسة لطيفة من ذَكَر. طوال ما كانت تتكلَّم ظلَّت تُحدِّق في عينَيْه بخُبث، كأنَّما تتفحَّص اختلاجات دقيقة عند زاويَتَي عينَيْه، وتقرأ فيهما تورُّطه معها، وعجزه عن مجاراة جُرأتها. ومُحرجاً، لن يملك صلاح سوى أن يعود بجسده إلى ظَهْر المقعد.

واستمرَّت تقول إن كل تلك الأمور، كان يمكن أن لا تجعلهنَّ يتلهَّفنَ للعودة إلى ما كُنَّ يمارسنَهُ، لولا أن شعوراً راودها باللَّاجدوى. وسادت بُرْهَة من الصمت، ما لبثت أن قطعتْها بقولها إن الحقوق الكثيرة التي أعطاها الحزب للمرأة رائعة وثورية، لكنها لم تغادر كونها قوانين وعبارات، يردِّدها رفاقه في يوم المرأة العالمي. مرتبكاً لا يدري صلاح بماذا يُعلِّق، وترك نظراته تتجوَّل في الطاولات المجاورة، فألفاها خالية تماماً. وأدخل يده في جيبه، وأخرج حفنة من الشلنات، تفوق قليلاً ثمن الشراب الذي تناوله، وتركها قريباً من يدها على حافَّة الطاولة.

13

ما استطاعت أن تفهم، كلَّما أطلَّت في المرآة، لِمَ لم يخطر لهم أن يفعلوا ذلك بوجهها؟ لم تغادر عدن للعلاج. بعد يومَيْن أو ثلاثة جلبوا لها طبيباً كوبياً. صديقاً روسياً لها ولجياب، تعود جذوره إلى أوزبكستان، أوصى به. وأخبروها أنه بارع في الجراحات التَّجميليَّة. هذا الصديق الرُّوسيُّ كان وهب جياب قبل أعوام منزلاً صغيراً في طشقند، على مقربة من طريق الحرير. وطوال مكوثهما، هو وهي، في مدينة يونس آباد ما انفكَّا يتخيَّلان القوافل تمرُّ أمام عيونهما، محمَّلة بما لا عين رأت من البضائع. حتَّى بعد التأكيدات على نجاح الطبيب، من خلال سلسلة من العمليات الدقيقة، في الإبقاء على جزء لا تثير رؤيته ردَّة فعل غريبة، بعد كل ذلك، لم تقدر على النظر في قَدَمَيْها، كما كانت تفعل.

في ذلك الحين تناهت إليَّ أصواتهم خلال ضباب ثقيل ورائحة حريفة، وهم يتهامسون أن قَدَمَيَّ تحتاجان عمليات متعدِّدة، وكنتُ في خضمِّ ذلك أتحرَّى سماع صوته، ردَّة فعله على ما قرَّروه. كان ليسعَهُ المجيء فور أن يعرف بأكبر سرعة ممكنة، غير أنه كان قد اختفى.

يستبعد صلاح أن تكون على يقين من هوية الفاعلين. وتدريجيَّاً يشعر بفزع وهو يصغي إليها، كأنَّما يتعرَّف على هذا الشعور لأوَّل مرَّة. ووجد نفسه متعاطفاً معها، لا، ليس متأكِّداً أنه تعاطف بقدر ما هو استباق لما قد يحدث له،

ويتخيَّل نفسه شخصاً آخر، يتعاطف مع شخص، سيكون هو بعد مدَّة من الزمن، عندما ينالون منه، في خاتمة يشتهيها.

تخيَّل نفسه مؤخَّراً يمضي في عربة مجهولة، خلال طريق طويل، يرافقه مُسلَّحون، لا يعرف شيئاً عن هوياتهم، وفيما عيناه مغمضتان، يُنصِت فقط لأنفاس مرافقيه الضجرين، لجلبة سيَّارات تعبر بجوار سيَّارتهم، وبعد حين ستهدأ العربة من سرعتها، وسيسود صمت طويل ومُوحِش، فيعرف أنهم يتَّجهون به إلى مكان مقفر، عندها سيبدأ في تشمُّم رائحة الخيانة.

قالت: تعلَّم جياب، وهم أيضاً، من ذلك الماضي، الإفراطَ في القسوة، وكيف يكونون قساة حتَّى واحدهم على الآخر.

ولم يدرِ صلاح إن كانت تُومِئ إلى فاعلين محدَّدين، في بالها.

وستحكي أنه في أوقات لم يكن بوسعه تجاهل نداء تلك الأزمنة، أزمنة الكفاح المسلَّح، وأجوائها القلقة التي تغمرها الحماسة، وحتَّى ما صاحبها من أوهام. وتناولت من الطاولة بجوارها منديلاً من القماش، به تطريز في حوافِّه، وأخذت تُلوِّح به أمام وجهها. في كل ما تحكيه عن جياب، كأنَّما هي بصدد رسم بورتريه لا نهائي، أو يُخيَّل إليها أنها ما إن تنتهي منه، حتَّى يطالبها بنقضه، ورسم آخر على أنقاضه. تحكي عنه كثيراً، كَمَنْ يشعر شعوراً مُلحَّاً، يرتفع أحياناً إلى مرتبة الواجب الإلزامي، بضرورة الإدلاء بكل

ما تعرفه عنه، وكأنَّما المسألة لم تعد بالنسبة إليها مجرَّد ذكريات تحكيها، إنما الانخراط في رسم صورة لشخص عاداه رفاقه، لا لسبب يجدر ذِكْره، إنما لأنه أرحب خيالاً منهم.

ويخيَّل إليه، وهو يراها تُرنِّح جسمها، أنها على حافَّة مكابدة جديدة لألم فظيع. ولم يُحدِّق في قَدَمَيْها اللَّتَيْن اندفعت لتحريكهما ببطء، فيما يداها اللتان تركتا المنديل الآن تنزلقان برفق فوق ساقَيْها، وقبل أن تقتربا من القَدَمَيْن المخبَّأتَيْن، تعودان إلى أعلى الساقَيْن. تشنُّج قَدَمَيْها إحدى إشارات، تعلَّم صلاح تدريجيَّاً أنه إذا ما رآها، عليه أن يستأذن، وينهض منصرفاً بلا تلكُّؤ، غير أنه بقي يُنصت إليها تعود للكلام، متجاهلة حَدَّ النكران احتياج قَدَمَيْها الملح لأن تسكن آلامهما. كان أوَّل مَنْ أوقف سيَّارته ليقلَّ شخصاً بسيطاً معه. بعدها أصبح شائعاً الكلام عن شخصيات رفيعة، أخذت تسلك السلوك نفسه. وعندما يُكلِّم شخصاً، فإنه يحرص أن يلمسه، يُربِّت على كتفه، مثلاً، وإذا لزم الأمر تربيتة خفيفة على خدِّه. في هذه الملامسة المباشرة، كأنَّما يكمن سرٌّ من أسراره الشَّخصيَّة.

أنتَ لا تتكلَّم كثيراً، كنتُ أقول له. لا تُعبِّر عمَّا يختلف فيكَ. فقط عند الضرورة. الضرورة التي لا تعني شيئاً سوى بمقدار ما تعني الآخر. عندما تشعر أنه لم يعد لائقاً، من وجهة نظر الآخر، تمدّد الصمت بينكما، لحظتها تنطق. على الأرجح تنفجر. تخرج الكلمات عنيفة. تُبهرني عندما

تبدو قدَّام خصومكَ، بأنكَ أقوى ممَّا أنتَ عليه في تلك اللحظة. في حين أنكَ كنتَ تشعر بالخذلان.

وسيلمح صلاح بريق عينَيْها ينطفِئ لوَهْلَة، وستنتشر تلك الظلال الغريبة على وجهها، وسيعرف أنها تنظر الآن في لوحة شاجال، فيرفع بصره ناحيتها، ويجد نظراتها معلَّقة فعلاً عليها. تأخذ في تلمُّس الفستان الأحمر للمرأة المبتهِجة، يترنَّح جسدها في الهواء، مسنوداً بيد زوجها المبتهِج هو الآخر، تجهد في تأمُّل المَلمح السّوريالـيّ في اللوحة، فتفشل. هي التي اقتنتْها من موسكو، وليست إحدى هدايا جياب لها. كانت نسخة مقلَّدة بالطبع. من كشك يبيع أشياء قديمة، يأخذ مكانه في طرف من الساحة الحمراء، حيث تنتشر المحالّ، ويمكنها أيضاً تنشُّق رائحة شطائر السمك والكافيار تبيعها نساء مُسنَّات. تنظر في اللوحة، ويتأكَّد لها أن بهجة الزوجَيْن تصيبها بالعدوى، فتتذكَّر تلك البهجة التي طالما عاشتْها مع جياب. في ما بعد سيقول لها إن الروس كانوا ينظرون إلى شاجال نظرتهم لنكرة، بسبب أنه لم يُصوِّر بطولات الشعب، ويعكس انتصاراته، ما جعله يفارقهم راحلاً إلى عالَم أوسع.

تزفر نَفَساً خفيفاً، ويتلوَّن مزاجها، تشوبه حسرة. فليس بهجة الزوجَيْن في اللوحة، العَصيَّة على الفَهْم، ما يجعلها تعود إلى النظر فيها بين آنٍ وآخر. وتُعاود تذكُّر ذلك المساء نفسه الذي اشترت فيه اللوحة. لم تلبث طويلاً حين عادت إلى المنزل، حتَّى إنها لم تجد الوقت لتُفكِّر أين تُعلِّقها، حتَّى رأتهم، أولئك الأشخاص، من النافذة. كانوا

ينتزعون أقدامهم المدسوسة في جِزَم بأعناق طويلة، ويشقُّون طريقهم وسط الثلوج صوب منزلهما. وتأبَّد ذلك المشهد في ذاكرتها أكثر من سواه. بمجرَّد أن رأت ذلك التصميم على وجوههم، حتَّى خطر لها أن جياب سيُذعن أخيراً.

تبيَّن لصلاح اليوم أن سناء ودانيا وهو أعضاء في مجموعة واحدة، تتولَّى تقييم البرامج التي تُعلن عنها المنظَّمات الأممية داخل عدن، ثمَّ الحُكم ما إن كانت هذه المنظَّمات تستحقُّ الدَّعْم. بعد انتهاء الاجتماع في مقرِّ اللجنة الحزبية، اقترحت دانيا الذهاب إلى التواهي لتناوُل الغداء. في مطعم يأخذ مكانه في الطابق الأخير من بناية حديثة، ملاصقة لفندق امبسادور الذي كان أحد معالم عدن الكولونيالية، وتمَّ تأميمه بعد الاستقلال، طلبوا دجاجاً وسلطة روسية، وبَقُوا يأكلون ويتحدَّثون. ما إن تطرَّق صلاح، عَرَضَاً، إلى زيارة قام بها نضال له أمس، حتَّى انطلقت سناء في شكواها منه. ترتدي جاكيت جينز بلون باهت، تحته فانلة كحلية شائهة قليلاً، وبرقبة تغطِّي منتصف عنقها، وكُمَّيْن طويلَيْن ضيِّقَيْن. كانت على وشك أن تنفجر باكية، وبدت في حال من الانفعال، ولزمت الصمت قليلاً، ثمَّ عادت لتقول إنها تنتهز أيَّة فرصة للهرب من الجوِّ الكئيب للمعسكر. وأبدت تذمُّرها من قيادة المعسكر وطلباتهم التي لا تنتهي. وذكرت أنهم لا يعبؤون بالآخرين، وأن ما يكترثون له هو الحصول على الامتيازات والعيش المرفَّه. كانت تُحرِّك الشوكة ببطء في

صحنها. ورفعت أخيراً الطعام إلى فمها، ثمَّ أعادتْهُ. وأخبرتْهُ أن نضال زارها في شُقَّتها، ليلة الاحتفال بذكرى الثورة البلشفية التي مرَّ عليها أكثر من أسبوع، وأنه بقي عندها إلى أن شعرت بالحرج من جدَّتها، لكنها اضطرَّت، غير آبهة بفظاظته، إلى دَفْعه للمغادرة، وأنها لهذا السبب لم تتمكَّن من حضور الحفلة.

وسألها صلاح وقد فرغ من طعامه، وبدأ يحتسي شاياً في كوب كبير، إن كانت توجد طريقة لتخليصها من هذا العناء، فردَّت على الفور إنها لا تعرف. وأطرقت برأسها، ثمَّ ما لبثت أن رفعت وجهها إلى الزجاج، الذي يفصل بينهم وبين الخارج، ووراء سطح مبنى الكنيسة الرُّومانيَّة الكاثوليكية التي باتت مهجورة، التمع البحر، وخُيِّل لها أنها تسمع أصوات طيور النحام تخبط بأجنحتها وهي تطير طيراناً خفيضاً، حول قوارب لصيَّادين، يأخذون رويداً في النأي خلال المياه الزرقاء. وتروح هي، أيضاً، تنأى بخواطرها، تنزلق بعيداً إلى تلك الأزمنة. كانت خارجة من بيت صديقة عراقية، تسكن في الفاكهاني، عندما بدأ القصف في إحدى الليالي. أرادت أن تذهب إلى بيت أختها المتزوِّجة من صحافي أردني على بُعد شارعَيْن من هنا، لكنها غيَّرت رأيها، وقصدت بيتهم في المخيَّم، حيث أُمُّها وأخوها الأصغر المقعد وأختها، طفلة صغيرة.

لم يتسنَّ لها ذلك بسهولة، وعرقلتْها الجموع. بعضهم يدخل بيته، والبعض الآخر خارج أو يفتِّش عن ملجأ، فجلست إلى جدار شبه متداعٍ، بسبب قوَّة الانفجارات، وغرقت في

مخاوفها. وبين آنٍ وآخر، كانت ترفع رأسها فتشمُّ رائحة أرغفة طازجة، وتتلفَّت وسط الظلمة فلا ترى شيئاً. هدَّأت الرائحةُ من روعها، أبقتْها في الجوِّ اليومي للعائلة والحارة والشارع، وأشعرتْها أيضاً بالجوع، رغم القصف الذي يُسمَع من كل مكان. كانت تُنصِت أيضاً لصليل رشاشات ودَوِيِّ مدافع.واكتشفت في الحال أنها لا تستطيع أن تعود إلى بيت صديقتها، ولا أن تمضي إلى أختها، كما لا يمكنها الانطلاق إلى المخيَّم. وشرعت تُهيِّئ نفسها لأن تعيش لحظة عصيبة أخرى، لم تعرف كيف ستخرج منها بعد. في غضون ذلك رأت، ولم تكن متأكِّدة، رغيفاً قدَّام عينَيْها، شمَّت الرائحة، وتصوَّرتْها تتخيَّل. بيد أنها لم ترَ اليد التي تمتدُّ بالرغيف، ولا الشخص الذي تنتمي إليه، ويقف محنياً ظَهْره، كأنَّما يهمُّ بمخاطبة طفل. وهي تنتش بنَهَم من الرغيف الساخن، كما لو أنها اكتشفت كم هي جائعة في تلك اللحظة، ويروح فمها يمتلئ بالطَّعْم والرائحة معاً، ستتنبه إلى وجه وسيم رغم اللحية الكثيفة والشارب الثخين، يمتدُّ طرفاه إلى ما أسفل زاويَتَي الفم، ولم تعرف ماذا تقول. تلاشى جوعها، لكن الخبز شهيٌّ في فمها، فبقيت تتلهَّى بالمضغ، وتنتظر عمَّا سيُسفر عنه الموقف، الذي عثرت على نفسها فيه. تكلَّم وهبَّت رائحته إليها، غطَّت على رائحة الخبز وعلى ارتباكها. لم تنطقْ بكلمة، فجعل يسألها عن بيتها، وما الذي تفعله هنا؟ وكلَّما انحنى عليها أكثر، وجدت نفسها واقعة تحت تأثير رائحته، رائحة خليط من روائح جسد، لم يستحمّ منذ أيَّام وسجائر وبارود وعَرَق

وأمكنة مهجورة، وتعجَّبت من سخفها وسذاجتها أن تنشغل برائحة شابٍّ، في شارع ضيِّق قريباً من بناية، يقع فيها أحد مكاتب فتح، دُكَّت طوابقها في غارات البارحة.

أشعل سيجارة، غير عابئ بالقصف، وراح يُدخِّن ببطء، وينفخ الدخان فوق رأسها. كانت كبيرة في السِّنِّ عليه، غير أنها شعرت أنها صغيرة قدَّامه، ضئيلة في حضرة جسده الفارع، وهي ترى، في ضوء السيجارة، تلك الشرايين الخضراء تنفر من ظَهْر يد، هي أقرب أجزاء جسده إليها. اقترح عليها أن تتدارى في زاوية من البناية المدكوكة، حتَّى ينتهي القصف تماماً. وهَمَّ بمغادرة المكان كَمَنْ هو في عجلة، ولم تفعل هي شيئاً، ليبقى بجوارها. مضى خطوات، ثمَّ تردَّد، وعاد إليها، وأخذها من يدها، تخلَّلا الشوارع المظلمة، وكانا يتنقَّلان من حارة إلى حَيٍّ. تارة يمشيان متحاذيَيْن، وتارة أخرى يسبقها، ومرَّة تركها تسير أمامه، كأنَّما تعمَّد أن يفعل ذلك، فكانت تشعر عندها بنظراته تخترقها، نظرات بلا معنى حيناً، وبمعانٍ كثيرة أحياناً أخرى. تجاوزا مطعماً في نهاية حارة، وأوَّل شارع يزدحم بالمحالّ وبدكَّان حلاقة وما يشبه صيدلية وبمقهى في الزاوية، كراسيه من الخيزران. تخطَّيا ميداناً صغيراً، يطفح بشظايا الزجاج ومُخلَّفات القذائف وبكتل إسمنتية. سارا طويلاً من دون كلام حتَّى توقَّفت، وقالت إنها أصبحت تعرف طريقها الآن، نظرت طويلاً وهي ترمش بعينَيْها في الرجل الشَّابِّ قدَّامها، نظرت في شَفَتَيْه اللَّتَيْن سوَّدتْهما السجائر، ومضت. لم تلتفت بينما كانت تمشي

مسرعة، إلَّا أنها بقيت متأكِّدة، أنه لا يزال يقف في مكانه، ويراقبها، كأنَّما يحرسها من بعيد. ولن تعرف أنه تقدَّم خطوات قليلة خلفها، كما لو أن خاطراً يدفعه دَفْعاً إلى أن يمضيَ في إثرها، قبل أن يتوقَّف تماماً، وهو يراها تختفي بين البيوت.

تنظر الآن في طبق الطعام، وتتذكَّر أنها لم تأكلْ شيئاً طوال النهار، ومع ذلك لا تشعر برغبة في تناوُل حتَّى كسرة خبز. تلاحظ منذ مدَّة مضت، ميلها إلى عدم تناوُل وجباتها الرئيسية كاملة. جدَّتها التي تفوح منها على الدوام رائحة عشبة الميرامية، رصَّتْ أطباقاً صغيرة على الطاولة صباح اليوم، لبنة بالزعتر مع زيت الزيتون، حَبَّة طماطم مقطَّعة إلى أرباع، شريحتَي خيار، زيتوناً أخضر مخلَّلاً، قطعة جبن بيضاء، غصن نعناع، وكوب شاي. ودفعتْها للأكل، لكنها لم تعثرْ على الشَّهيَّة.

وأخيراً، رفعت الشوكة بالطعام إلى فمها. وأخذت تمضغ ببطء، لكنْ، بلا شهية. ثمَّ قالت، دون أن ترفع بصرها عن صحنها، إنها تفكِّر أن الأماكن التي عاشت فيها وتنقَّلت خلالها مجرَّد منافٍ قَسريَّة، منافٍ تجعلني أدنو من شفير الهاوية، لتلبثَ روحي معلَّقة. تناولتْ كوب ماء، وشربتْ جرعة كبيرة، ثمَّ أعادت ملأه من إبريق مصنوع من المعدن، قبل أن تذكر أن حياتها منذ أن كانت صغيرة اختبرت أهوالاً عديدة، كل تلك الأهوال نالت حصَّتها منِّي. في كل بلد أقمْنا فيه يعمدون إلى تذكيرنا أننا غرباء، أن سوريا للسُّوريِّيْن، لبنان للبنانيِّيْن، والأردن للأردنيِّيْن. كأننا

لا نعرف ذلك، كأنَّما هذه المعرفة لا تُشعِل النيران في أجسادنا ليل نهار.

وبعد لحظة أضافت أن الأمر يبدو مختلفاً في عدن حتَّى الآن. ورمقت صلاح بنظرة خاطفة، قبل أن تواصل قائلة إنها المدينة العربية الوحيدة التي لا توجد بها سفارة أمريكية، وبها ما لا يمكن العثور عليه في أيِّ عاصمة عربية، سفارة لدولة فلسطين. وكاد صلاح يقول إن الفلسطينيّيْن في عدن يشاركون اليمنيّيْن حتَّى في حكم البلاد، متذكِّراً نضال والوفود الفلسطينية، وخشي أن تفسِّر كلامه على محمل آخر، فصمت، واكتفى أن يزهو بإطرائها.

فجأة راحا يصغيان رغماً عنهما لدانيا. تدريجيَّاً يعلو صوتها بخليط من اللغات، وكأنَّما اعتراها المَلَل من حديثهما، فأخذت تُنشد مقاطع من قصيدة، قالت إنها مأخوذة من مقدّمة لفيلم قديم، يُصوِّر أحوال كوبا قبل الثورة وبعدها. كانت نظرات دينا التي يكسو وجهها حزن خفيف، تسقط من العلو الذي يقع فيه المطعم، على ما يشبه ميداناً أو حديقة صغيرة أسفلهم مسيَّجة بسياج خفيض. وحيناً ترتفع نظراتها إلى شعار كُتب بخطٍّ عريض، ولون أحمر، فوق بناية كانت قبل الاستقلال تتبع المجلس التَّشريعيَّ، وأضحت اليوم مستودعاً لوزارة الدفاع، "لا صوت يعلو فوق صوت الحزب".

"أَحبُّ أرجوحتي، وأَحبُّ كوخي. أَحبُّ انحناءة خصرك". وحلَّ الصمت، وسطعتْ أشعَّة الشمس، واهنة، حمراء، خلف الزجاج. وفكَّر صلاح لو أنه نهض، فسيرى سطح البحر يتموَّج، يصبغه الضوء الكسول لآخر النهار. كان قد تمَّ اختيار دانيا أيضاً للتنسيق مع آخرين، بين بلادها وبين لجنة الدفاع عن الثورة في الحزب هنا، كانت تتابع وصول الخبراء الكوبيّيْن، وتهتمُّ بذهاب التمويل الكوبي إلى ما هو مخصَّص له هنا. ليست متسلِّطة كبعض الروس، مثلاً، إنما ودودة، ويروق لها الخروج مع العرب. دانيا ستسافر غداً إلى هافانا، وستمكث هناك لفترة طويلة قبل أن ترجع ثانية.

*وسألتْها سناء، لِمَ هي ليست كآخر مرَّة التقوا فيها؟ وكانت دانيا فعلاً مثل التائهة، وحزينة بعض الشيء. فجاوبتْها أنها لا تشكو من شيء، لكنها تفتقد، وهنا تغيَّرت نبرة صوتها، صديقها بول الذي يغيب عن عدن منذ أكثر من أسبوعَيْن، وأنها مضطرَّة للسفر قبل أن تراه. وشرحت أنه ذهب مع خبراء آخرين، برفقة أفراد من الميليشيا الشَّعبيَّة، إلى منطقة جبلية بعيدة. ورمقها صلاح بنظرة طويلة، وتذكَّرها فجأة وهي تحتضن بقطاش في ليلة الاحتفال بالثورة البلشفية، ثمَّ أخذ يصغي لسناء وهي تقول وكأنما تردُّ على افتقاد دانيا لصديقها، إنها في البلدان التي تلجأ للعيش فيها، تشغل نفسها بالانضمام للحركات الشَّبابيَّة، وارتياد أندية رياضية واجتماعية، فلا تُبقي على ساعة فراغ واحدة في يومها. وقاطعت دانيا كلامها، مواصلة تلاوة القصيدة بصوت يتهدَّج تدريجيَّاً. "أُحبُّ الطريقة التي تتحرَّك بها

أردافكِ، يا حبيبتي. أنا هي كوبا. هي هذه أجمل أرض وقعت عليها عينا بشر، شكراً كولومبوس".

14

كان جسدي يستشعر جبروت جسمه. كل جزء منِّي يئنُّ تحته. وتفرُّ عيناي بينما يهصرني بين ذراعَيْه، أتصوَّرهما جاحظَتَيْن، يملؤهما الفزع والخنوع والشوق أيضاً، أُهرِّبهما منه، فلا يرى وجهه فيهما، كيف يكون حين يستولي عليَّ، وكيف يجتاحني، ثمَّ يتركني كالذبيحة، يبقى جسدي يختلج ليس بسبب الرعشة المزلزلة، إنما من نجاتي ممَّا أعتقد أنه سيُقدِم عليه في كل مرَّة يدخلني، من هشاشة تحمُّلي للوحوش التي تزأر في داخله. آمنتُ بعشقه لي، لكنني كنتُ كافرة بالوشاية التي لا تصيب هدفها.

يشرب شاياً، فيما هي تمسك بكوب ليمون بالنعناع، بالكاد تمسُّه بشَفَتَيْها. هواء بارد يتسلَّل من النافذة المفتوحة، محمَّلاً برائحة البحر وملوحته. فجأة شعرتْ بالبرد، لم تقلْ، لكنه لاحظ ذلك. ارتعش جسدها لوَهْلَة قصيرة، وطفت فوق ذراعَيْها تلك الحبوب الشَّوكيَّة الدقيقة، "سأحضر لكِ شالاً". قال بلهجة عطوفة، وكأنه يعرف البيت حجرة حجرة وأين سيجد شالاً، لكنها رمقتْهُ بنظرة حيادية، وغمغمت، "لا، لا داعي". لم يستسلم، وهَمَّ بالذهاب إلى النافذة، وإغلاقها، إلَّا أنها أرخت يدها، وتركت كوب الليمون، وأمسكت بيده، تشبَّثت بها، وشعر، مُتفاجِئاً من حركتها، كم هي قوية رغم

الوَهْن الظاهر، بينما يرى اليد الثانية تسحق تلك الحبوب فوق ذراعها.

لكن ذلك الفزع لم يَنْتَبْنِي، أخذت تواصل الكلام، سوى قبيل اختفائه. كان ضجراً بصورة لا يمكن تخيُّلها، حانقاً ومبلبلاً، وفي أتمِّ الاستعداد للانجراف وراء أيِّ كذبة.

تلفَّت صلاح حوله، فرأى عند الممرِّ، الذي يفضي إلى الداخل، حقيبَتَي سفر، يبدو عليهما القِدَم، واحدة كبيرة، لونها أزرق ماركة فيكتوريا مصنوعة من الألمنيوم بمقبض سحب، أخرج من مخبئه، كأنَّما في انتظار اليد التي ستُمسك به، والأخرى صغيرة حمراء. لم يعرف إن كانتا تحويان أشياءها أم لا تزالان فارغَتَيْن، لكنه لأوَّل مرَّة يراهما.

بدت منفعلة قليلاً وهي تقول إنها لم تجهل أبداً أن وشاية تلو وشاية، نُقلت عنها إليه، وهو يسكت ويسكت، ويعلم، في الوقت نفسه، أن الشخص الذي تتمُّ الوشاية به، وحتَّى بعد دحض الوشاية عنه، لا يعود أبداً كما كان، بريئاً، إذ سيبقى ملطَّخاً بما وُشي به.

تتملَّك صلاح الآن مشاعر مضطربة وهو يُنصِت لها. تُراوده فكرة أنه عاجز عن النظر إليها خارج ما قرأه عن الصراع الطَّبقيِّ، مدفوعاً بحماسة لا مثيل لها في تلك الأيَّام، غير أن ما بينه وبينها ليس صراعاً، فهما ليسا نِدَّيْن في المستوى نفسه من القوَّة، وفي كل مرَّة تخطر على باله

مواجهتها، تهوي به أناقتها وروائحها وذكرياتها إلى أسفل سافلين.

قبل أن ينام البارحة، وقف خلف النافذة، لا يرتدي سوى سروال قصير، يفتِّش عن ذرَّة هواء تُنعِشه. قدَّامه ظلام، تُبقِّعه نقاط ضوء، ترشح من نوافذ بيوت، في مَرمَى نظراته. أَنصت قليلاً لأصوات بشرية متقطِّعة، لا تُفصح عن شيء، ونُباح كلاب، ومُواء قطط تتعارك. بغتة خطرت له هواجسه حول النهاية التي يتوق إليها، وهي كل ما تبقَّى، ليعيش من أجله. وكأنَّما هذه الخاتمة، التي ما تزال بعيدة المنال، ستمنحه تاريخاً، وتهبه سيرة حياة، لم تكن له في أيِّ يوم، هكذا يروح يتأكَّد له مع مرور الوقت. ولأنه أدرك، يستطيع أن يبوح بذلك الآن، منذ تلك الأيَّام التي كان فيها صوت الجبهة القومية يعلو فوق كل صوت، أنه غير قادر على أن يصنع لنفسه شيئاً، فترك للآخرين أن يهبوه، ليس الدرجة الوظيفية تلو الأخرى، ليصعد سلالم الحزب سريعاً، إنما أيضاً ليقترحوا له الخاتمة التي يرنوا إلى أن تأخذ صورة لائقة، لناحية القسوة والمبالغة فيها، وكأنَّ أيَّ خاتمة ليست لها هذه الصفة، غير جديرة بالتفكير بها لنفسه، يريدها تدفع حتَّى خصومه، إن كان له خصوم، لأن تفتر شفاههم عن كلام لا يخلو من معنى في حقِّه، يُشعِره بالزهو حتَّى بعد أن يكون قد خمدت أنفاسه، كأن يصفوه، مثلاً، بأنه صُفِّي، لأنه كان رجلاً ينطوي على أسرار كثيرة.وما لبث أن أشاح بوجهه عن نورا، وفكَّر في سالم الذي زاره اليوم. في المكتب، قعد سالم، ومرَّت بُرْهَة

من السكوت بين الاثنَيْن. واحتاج صلاح إلى أن ينهض حاملاً ملفَّات وأوراقاً، وأخذ يُودِعها الخزانة خلف مكتبه، ثمَّ عاد ليجلس ثانية، وانتظر أن يقول سالم شيئاً. هذه الزيارة لمكتبه الثالثة منذ أن تعرَّف عليه، طالباً عونه. يعرف أن رفاقاً له لا يزالون يعيشون في المكلا، بقايا قاعدة للجبهة أو ممَّنْ كانوا يعملون في الإذاعة التي كانت تبثُّ تقاريرها من هناك، لم يشاؤوا العودة. شعور بخذلان الجميع لهم، جعلهم يبقون من دون التَّقدُّم خطوة إلى الأمام أو الخلف. منهم مَنْ تزوَّج، وآثر أن يُمضيَ حياته على الهامش، وهناك مَن اختفى تماماً، ولم يعد يُعرف عنهم شيء.

تكلَّم سالم، لكن صلاح لم يسمع شيئاً جديداً فيما تفوَّه به. فهو يعيد الكلام نفسه حول اختفاء أحد رفاقه، وكان أحد محرِّري صحيفة صوت الشعب، مؤكِّداً أنه لا يزال يعيش في عدن، إلَّا أن أحداً لم يقدر أن يُسعفه بمعلومة صحيحة عنه. منذ أن دلَّه أحدهم إلى صلاح، قائلاً له إنه قد يستطيع تقديم المساعدة، وهو يتردَّد عليه، لعلَّه يعثر عنده على خيط يقوده إلى رفيقه. كان سالم قد سمع أن رفيقه تسلَّل قبل أعوام إلى داخل عمان خِلْسَة، في إصرار على مواصلة النضال، ولو كان وحيداً. يقاوم الاعتراف بأن الثورة انتهت. مراراً كرَّر خشيته أن تكون عناصر من الفِرَق الوطنية، التي شُكِّلت ممَّنْ استسلموا بهدف اغتيال مَنْ تبقَّى من الثُّوَّار، دخلت عدن لتصفيته.

"ما لديَّ من أخبار لن تسرَّكَ".

أخيراً نطق صلاح دافعاً كأس الشاي باتِّجاه ضيفه، ونظر مباشرة في وجه سالم، الذي أخذتْهُ الظنون إلى أن رفيقه لقي حتفه، أو أنه تمَّ القبض عليه.

"لا نستطيع التَّأكُّد من الأخبار التي تردَّدت بخصوصكَ، لذلك فأنتَ لستَ في محلِّ شكٍّ". لم يعد سالم يفهم. هو المَعنيُّ الآن بالكلام. داخله شعور بالطمأنينة على رفيقه، إلَّا أنه من ناحية بدأ القلق يستولي عليه بالكامل، ورفع رأسه ونظر إلى مروحة السقف، التي تُحدِث ضوضاء مزعجة. وواجهه صلاح قائلاً إن هناك مَنْ يتَّهمه بأنه عنصر في إحدى الفِرَق الوطنية، التي يخشى هو أن تكون صفَّت رفيقه، وأنه حين يُلحُّ في العثور على مَنْ يدَّعي أمامهم أنه رفيقه، إنما، كما تناهى إليهم، لكي يتخلَّص منه. وسأله سالم إن كانت هذه معلومات استخباراتية، أم مجرَّد تكهُّنات من أشخاص لا يعرفونه جيِّداً. وراح متأثِّراً يتلو على صلاح عدداً من الأسماء لأقاربه ورفاقه، إمَّا ماتوا أو لا يعرف أحد على وجه اليقين ما مصيرهم. وردَّ عليه صلاح وهو ينهض إلى مفتاح المروحة، وأغلقه، فسكت الصرير، أنه يُصدِّقه، وأنه إذ يقول له ذلك، فلكي يحتاط، لعلَّ هناك مَنْ يتقصَّد النيل منه. وقال إن لا أحد يُصدِّق أن ثوَّار الأمس تحوَّلوا إلى مجرَّد قَتَلَة لرفاقهم، وعبَّر عن شكوك أكيدة أنها محاولة للثأر منهم. لم ينتبه صلاح إلى علامات اليأس تغشى وجه سالم، الذي ما لبث أن أحنى رأسه قليلاً، ولم يعد يدري ماذا عليه أن يقول. وبما أن لزاماً عليه أن يمرَّ بنورا اليوم، فأصرَّ على سالم أن يُكملا

حديثهما مساء، وحدَّد معه المكان والساعة التي سيوافيه فيها.

يتأمَّل صلاح نورا، ويفكِّر في ما قالتْهُ. كانت تخشاه إذنْ، فهل لم تكن بريئة تماماً؟ ونظر إليها، ورآها تُحدِّق خلال الستائر في الغرابَيْن يتعاركان، ويُصدِران نداءات، لم يستطيعا تجاهلها. يبدو الطائران مرحَيْن، يقترفان حركات، لا تخلو من دعابة. تبادلا النظر، نورا وهو، وقالت إنها لا تعرف أين قرأتْ، أن كثيراً من النداءات التي تُطلقها الغربان، لم يجد لها العلماء تفسيراً بعد. ثمَّ كأنَّما تذكَّرت عمَّا كانت تتكلَّم قبل أن يُثير الغرابان انتباهها، فأخبرتْهُ أنها لم تكن تنجو من التفكير، بينما كان جياب يُنيم رأسه على فخذَيْها، وتروح أصابعها ترسم خرائط مجهولة في وجهه، متخلِّلة كثافة شَعْره، ثمَّ تهبط إلى عنقه، متوقِّفة عند تُفَّاحة آدم البارزة بصورة لافتة، أن ما يفعله بين حين وآخر يُثقلها هي أيضاً. وذكرت أنها تخشى أحياناً يده، التي وقَّعت قرارات بالنَّفْي وإقامات جبرية، ومرَّة مُقترَحاً بالإعدام، وفي مرَّة ضغطت الزناد، كما تردّد، ولم تُصدِّق، وأفرغت رصاصَتَيْن في قلب أحد أخلص رفاقه، وكان قد تقاسم معه تعذيب المستعمر في غرف من صفيح، تتحوَّل جحيماً في حَرِّ عدن.

ومدَّت يدها، وتناولتْ كوب الليمون، وشربتْ منه قليلاً، ثمَّ أعادتْهُ. تأخذ صورة نورا تكبر في خيال صلاح، تكبر أيضاً خشيته منها، رغم أنه يعود لمراجعة نفسه، ويخلص إلى أن ليس فيها ما يمكن أن يخشى على نفسه منها. سوى

أن ما يُقلقه بعد انصرافه كل ليلة من عندها، هو ما يقع عليه من خلط أخذ يتكرَّر. فهي تخلط في ما تقوله عن جياب، بما بات حقيقة تخصُّ أكثر من مسؤول. في مواضع عديدة، عثر على هذه المشكلة، ولم يستطع تفسير ما يجري. في البداية ظنَّ أنها تفعل ذلك، من دون وعي منها، بسبب الضغط النفسي والجسدي الذي تعانيه يوميَّاً، لكنْ، يتبيَّن له غير ذلك ممَّا أوقعه في الارتباك.

من بعيد، رآه فاتَّجه ناحية طاولته، وفور أن جلس صلاح قال لسالم إن رفاقاً قد ينضمُّون لهما، وطلب بيرة. لم يبدِّد سالم الوقت، وشرع في قول إن عمَّاً له كان أحد قادة جبهة التحرير، وإنه اغتيل في 1965، حين قرَّرت قبائل أن هدفها ليس إسقاط الحكم، ولا طرد البريطانيِّيْن. "مضى وقت، أبقيْنا فيه السلطان الشَّابَّ مُحاصَراً، خلف الأسلاك الشائكة التي تحيط بصلالة، تاركاً لنا السهول والجبال". وسطعت ملامحه بالزهو، ونمَّت شفتاه عن ابتسامة خفيفة.

جاء عبَّاس وبرفقته خبير روسي، يشرف على ترجمة سلسلة قصص للفتيان، مخصَّصة لطلائع الحزب. بدا الرُّوسيُّ شابَّاً ونحيلاً قليلاً بلحية حمراء مشعَّثة، تنتشر في وجهه حبوب حمراء رقيقة، ربَّما بسبب شمس عدن الكاوية وحرارتها الشديدة. في أثناء ما كان سالم يحكي شظايا من ثورتهم المغدورة، تبادل الرُّوسيُّ وصلاح حواراً قصيراً وسريعاً بالإشارة وبكلمات مقتضبة، واطمأنَّ الأخير أن كل شيء يسير وفق ما خطَّط له، فهزَّ رأسه لعبَّاس إشارة على رضاه عمَّا يبذله من جهد في مرافقة الخبير، الذي لم يمرّ

أسبوع بعد على مجيئه عدن. يتنبَّه سالم لحوار الإشارات، ولا يثنيه عن الكلام، لم يعد يكترث لإنصات أحد من حوله، إلى نفسه وإلى رفاقه الثُّوَّار الغائبين الحاضرين، يواصل الكلام. ذكر أن السلطات أعدمت خاله مع عدد من الظَّفاريِّيْن، بسبب رفضهم الاستسلام والاستفادة من العفو السُّلطانيِّ. يعتقد سالم بينما يشرب بهدوء، أنه لم تعد هناك حرب ضدَّ السلطان. وسيضيف بمرارة "الجميع تغيَّر". لكنْ، هو لم يتغيَّر، "معظمهم فعل ذلك، لأن سقف الأحلام أصبح خفيضاً". من تحرير الخليج إلى عمان، ثمَّ ظفار فقط. وخطرت له الضواري التي كانت تتلبَّسهم، بينما يتيهون في البراري وفوق منحدرات الجبال وخلال السهول. وعلى الرغم من كل ذلك، بقي يتوعَّدهم، رجال السلطان ومَنْ تغيَّر من الرفاق. يظنُّ أنه يستطيع الانتقام حتَّى مع زوال الجبهة ككيان، وتحوّلها مجرَّد ذكرى، تُعاود بين حين وآخر مقاتلين قدامى، لا يعرفون ماذا يفعلون، ولا إلى أين يمضون.

والده شارك في المحاولات اليائسة لطرد البريطانيِّيْن. وأُمُّه تعلَّمت مبادئ الثورة من المناضلة ليلى فخرو. شابَّاً صغيراً التحق بالثوار، عاش الثورة بكل عنفوانه. يشعر بها لا تزال تجري ساخنة في عروقه. في كل ليلة تسري به قَدَمَاه إلى تلك الكهوف والممرَّات الجبلية، يتخلَّل الأشجار، ويمشي حذراً بين الصخور في الجبال، تحت الأمطار الموسمية، خلال البرد، في هجير الصحراء، يتخطّون الكمين تلو الآخر، يحتلُّون قرية، ويضمُّون فدائيِّيْن جدداً.

يشعر بالبندقية ثقيلة على كتفه، بمَلمَس الزناد في أصابعه، برائحة البارود في أنفه. زُهُوْمَةُ الجنود البريطانيِّيْن لا تزال عالقة في الهواء الذي يتنفَّسه. وخطوات قوَّات السلطان، تتوقَّع قدومهم، يستطيع سماع وقعها الكتيم بعد أعوام من انتهاء كل شيء. كل شيء انتهى بالنسبة إليهم هم، أمَّا هو، فلا. يومياً يرمِّم ذاته، يقرأ صفحات من كتاب الجبهة، في شرح الفكر الماركسي، الكتاب الأحمر لماوتسي تونغ، في التثقيف السِّياسيِّ. يعاوده صوت المذيع في إذاعة صوت الثورة، الإذاعة السِّرِّيَّة التي موَّلتْها عدن، يتلو فقرات من صفحات في الفكر الثَّوريِّ وبناء الذات، وضرورة أن يكون الفدائي حالماً كبيراً، قبل أن يكون مناضلاً شرساً. فلا نضال بلا حلم يقوده، يقول لنفسه، وإنه قد تخمد الثورات، لكن الأحلام لا تموت.

يُنصِت إليه صلاح، كأنَّما يحكي له وحده، ووحده أيضاً يشعر برغبة أن تكون له مثل هذه الصلابة. وعاد بذاكرته إلى الوراء، إذ مضى وقت كان صلاح لا يفكِّر أنه في حاجة حتَّى إلى الطعام، كي يواصل العمل، وأنه إضافة إلى ذلك، يقدر أن يصل الليل بالنهار دون تذمُّر. كان الأكل وسائر الرغبات الأخرى، كأنَّما في إمكانه شطبها إلى حين من لائحة حاجاته الأساسية، طالما أن البلاد تتهيَّأ للتَّغيُّر الكبير، والإيفاء بوعودها.

سالم الذي كان حليقاً وأنيقاً ببنطال الجينز وقميص الكتَّان الخفيف، نظر إلى السقف، وزفر نَفَساً، كما لو كان يُثقل صدره. وتأسَّف عبَّاس أنه لم يتبقَّ من ثورة ظفار العظيمة

سوى رومانسيتها الحالمة، كان عليها أن تستمرَّ، مندلعة، بلا نهاية. ونطق صلاح مخاطِباً إيَّاه: ثورتكم لم تمتْ، وستبقى حَيَّة إلى الأبد. لكن سالم لا يجد عزاء في ما تفوَّها به. بل لم يرقْ له ما قيل، وشعر بالجزع يتسلَّل إليه. وأخذ يجيل ببصره في الأنحاء، وتسترعي انتباهه دوماً هذه الوجوه التي تأتي من كل صوب. كم المسافة الآن، بين أوَّل رصاصة أطلقها ثائر ظفاري، على عربة تخصُّ شركة أمريكية تنقِّب عن النفط في ظفار، وبين هذا الوقت الذي لم يعد له فيه سوى الأحلام، تحرق ذاكرته ومخيِّلته.

لم يعد له سوى بحثه عن رفيق لا يعرف على وجه اليقين، إذا ما زال يعيش أو أنه اغتيل، أو أنه لم يكن له وجود أصلاً على هذه الدنيا، وجوده في مخيِّلته فقط. يخامره شعور أنه يتمسَّك بهذا الخيط، العثور على هذا الرفيق، فقط ليُبقي الثورة والنضال في سبيل انتصارها، قريباً منه. لا يريد أن ينتهي كل شيء كان له وما زال معنى في حياته. ماذا سيتبقَّى منه؟ هكذا ثابر على طرح الأسئلة على نفسه، إن هو تخلَّى حتَّى عن أحلامه. كيف للتعاليم التي تلقَّاها في معسكر الثورة في حوف اليمنية، المتاخمة لظفار، وللدروس التي تعلَّمها في مدرسة أعداء الإمبريالية في الصين، أن تتبدَّد، ولا يعود لها ذلك التأثير العميق الذي كان يقوده بلا خوف من أحد، بلا حتَّى شعور بالإرهاق أو بتعب يهدُّ جسده، في الوهاد والمنحدرات، ويدفعه في المرتفعات الشاهقة، ترافقه في الليل كما في النهار، وحيداً أو محاطاً بالرفاق؟

عندما رأى سالم البقية ترمقه بنظرات تختلف في درجة تعاطفها، من شخص إلى آخر، حيال قضيته، أخرج من جيبه قُصاصة من صحيفة، وقرَّبها من صلاح الذي نظر إليها لبُرْهَة، ثمَّ حوَّل بصره، ليُحدِّق في وجه سالم، ولم يدرِ بماذا يُعلِّق. ولمَّا لم ينجح في جذب انتباه صلاح أكبر قدر ممكن إلى قُصاصة الورق، عاد سالم ليتأمَّل فيها، كما لو أنه يراها لأوَّل مرَّة. كان صاحب الصورة أحد الثُّوَّار الذين عرفهم عن قرب، وكان يصرُّ على عدم توسُّع الثورة، وأن تبقى ظفارية فقط، وكان التقاه في المكلا، عندما جاء يتفقَّد مجموعة من الفدائيِّيْن. تخلَّى عن صورة ذلك الثائر القديم، وأصبح اليوم في منصب حكومي رفيع. رفع رأسه بعد أن أعاد القُصاصة إلى جيبه، وشمل السهارى بنظرة، كما لو كانت الأخيرة، طويلة وهادئة، ولمعت عدن في عينَيْه، كما هي في كل مرَّة، مدينة لكل المهمَّشين والمحبطين والحالمين. وفجأة نهض وأصرَّ على الانصراف، حاول صلاح أن يُثنيه أو يُبقيه قليلاً ريثما ينتهون من سهرتهم، إلَّا أنه لم يجعله يُنهي كلامه حتَّى، ومضى في خطوات واسعة، كَمَنْ تذكَّر فجأة أن عليه أن يفعل شيئاً، وأن الوقت يوشك أن يُفوِّت عليه ذلك.

15

أطفأت السيجارة في منفضة حمراء من الزجاج، لم يرها صلاح من قبل، لها شكل ورقة شجرة كبيرة، وقالت إن الرقص كان قوَّتها. على وجهها ملامح من عاش بهجة ما

عاد يمكنه عيشها ثانية. حين أرتجل رقصة، وهو ما كان يزعجهم حدّ أنهم يتَّهمونني بتخريب الأداء الجماعي، كان جياب بعد أن نعود إلى البيت، يقول لي، فيما شفتاه تتفقَّدان أصابع قَدَمَيّ، تمرُّ فوق الأنامل بجروحها الطفيفة، جرَّاء التمارين، وبالشاش والكولونيا، يعالجهم لي أحياناً: تلك الرقصة صنعتكِ، جعلت الناس يرونكِ. واجهوني بأنني لا أؤدِّي الرقصة كما ينبغي. قلقتُ، وجافاني النوم لليالٍ. في ما بعد تكوَّن لديَّ تصوُّر أن الشكل الصحيح، هو ما يعتقدونه هم، وليس بالضرورة مُلزِماً لي. كنتُ ميَّالة إلى ابتكار فرجة أنيقة، في الرقص.

وراودت صلاح رغبة في أن ينهض ويذهب إلى الحمَّام، لكنه بقي في مقعده. قبل يومَيْن عزم أمره أن لا يزورها اليوم، سوى وهو يحمل خبراً عن جياب، ومع ذلك استحال عليه أن يجد ما يقوله لها.

عهد إليَّ بكتاب ورسائل وخطب ألقاها في عدَّة مناسبات. وخاتم بفصٍّ لازوردي، لم أستطع أن أدخله في أيٍّ من أصابعي، ولا أتذكَّر يوماً أنني رأيتُهُ يلبسه.

باحت له بينما تأخذ أنفاساً من سيجارة جديدة، وتطرد الأدخنة ذات الزرقة الباهتة إلى سقف الحجرة. قالت عن الكتاب إن هوامشه مليئة بملاحظات كثيرة، كُتبت بخطٍّ دقيق، وإنها متداخلة حتَّى إنه يفصل بين فقراتها، بوضع أرقام داخل أقواس صغيرة، حفاظاً على تسلسلها. وشعر صلاح بفضول أن يرى تلك الأشياء. ولمحها تُمسِّد ثوبها

الطويل، لونه أحمر قانٍ برسوم كبيرة في هيئة ذيل طاووس، إلى أسفل ركبَتَيْها، ليفيضَ ما تبقَّى منه على قَدَمَيْها، المختفيَتَيْن أصلاً. كلَّما تحرَّكت فاحت روائح العطر التي تُغرق نفسها فيها، وأمست هذه الروائح تشغله كثيراً في الأونة الأخيرة، إذ تحت تأثير كثافتها رويداً أمكنه ملاحظة أنه تحوَّل إلى أنف، قد يكفُّ عن الإصغاء، وحتَّى عن التحديق فيها وهي تقعد وسط ذكرياتها، إلَّا أنه لا يستطيع إلَّا أن يشمَّ رائحة العطر.

أين وصلتَ في المذكّرات؟

ما إن تناهى إليه استفسارها حتَّى أخذ يُكلِّمها عن الأشواط التي قطعها، وبدا ملائماً أن يُطلِعها على حاجته لوثائق وصور، فقد تعطيه ما سلَّمها إيَّاه جياب. كان يتكلَّم وهي تنظر في وجهه، وتفكِّر أن المذكّرات، كما بدت لها مرَّة، فكرة غير مثالية لمرأة بالكاد تستطيع أن تحرِّك جسدها، من مكان إلى آخر. بيد أن شرارة أن تكون لها مذكّرات، تجمع حياتهما معاً، جياب وهي، انطلقت، كما ستعود وتعترف لنفسها، من هذا العجز تحديداً. وتمضي بُرْهَة قبل أن يبلغه صوتها ثانية، يختلج وينمُّ عن هشاشة، وهي تقول كلاماً، فَهِم منه أنهم يوافقون على سفرها لاستكمال علاج قَدَمَيْها، ثمَّ يعودون للرفض ثانية، وأنهم كأنَّما يدَّخرونها هنا لغاية تجهلها.

نظر صلاح حوله وتذكَّر نومه السَّيِّئ البارحة، لم يدرِ ماذا دها الغربان، لتنعق طوال الليل، كان النعيق حادَّاً وقبيحاً

كَمَنْ يندب ميتاً أو يُنذر بشرٍّ. طار النوم من عينَيْه، فبقي لأكثر من ساعة في فراشه، ثمَّ نهض وتجوَّل في المنزل، من دون فائدة. في الصباح آل على نفسه وذهب إلى الدائرة، باشر مهمَّات عمله إلى الثالثة ظهراً، ثمَّ غادر لتناول غدائه، سمك مشوي وقليل من الأرز، ثمَّ جاء إلى هنا. يشعر الآن بجفنَيْه ثقيلَيْن، لا يستطيع إغماضهما أو فَتْحهما، ويرغب بشدَّة لو أنه يستطيع الرجوع إلى البيت، ليسقط من فوره في نوم عميق.

تناولت نورا المرآة الصغيرة، وحدَّقت في وجهها. كم من الوقت مرَّ، قبل أن تُدرك أنها لم تعد تتذكَّر كيف كان يُدلِّلها؟ ثمَّ رمقت صلاح بنظرة يائسة، حَدَّ أنها أرعبَتْهُ. وتفوَّهت من جديد: اليوم لا أجيد سوى الكلام. كلام لا يشبه ما كانت تُحدِّث به آنا كارنينا نفسها، وهي في طريق الموت، لكنه لا يختلف عنه تماماً. كلتانا تقول أشياء كثيرة قبل أن نُلاقي حتفنا. فتنتني آنا كارنينا، والتصقت بي طويلاً، أتذكَّرها الآن، لأنها واحدة من الهدايا الفاخرة التي أهداني إيَّاها. لم ترقْ لي صورة المؤلِّف على صورة الغلاف الخلفي، بلحيته الشعثاء، بوجهه الذاهب في تفكير متعالٍ، أو كَمَنْ ينوء بذنب رهيب، لكنها، آنا، أسرتْني بجمالها وحَيْرتها وقلقها، منذ وقعت عينَيّ على رسمة لها في الغلاف الأمامي، للرواية وكان لا يزال مُمسِكاً به في إحدى يَدَيْه، فيما يده الأخرى تحمل علبة شوكولاته داكنة "موسير روث". "ليتَني أستطيع أن أكون شيئاً آخر غير عشيقة متعطِّشة لمداعباته؟"، مسَّتْني بعمق هذه العبارة من

هذيانها وهي تعبر إلى موتها. كشطت حواسِّي وروحي مثل سكِّين، وأسالت دمائي. أبداً لم ترقْ لي نظرتهم لي أنني لستُ سوى عشيقة. وتلتفت إلى صلاح، وتستمرُّ تقول: من المؤكَّد أنكَ بتَّ تعرف أن ذلك ليس حقيقيَّاً.

إلَّا أن صلاح بقي ينظر ناحيتها، ويُومِئ برأسه، من دون أن تعني إيماءاته شيئاً محدَّداً.وأخذ يفكِّر في ما تمثِّله نورا لجياب، خليلة أم صديقة أو زوجة بعقد عُرفي، فهو يعرف مسؤولين، لا تخلو حياتهم من علاقات كهذه. وهمَّت بالنهوض إلى رفِّ الكُتُب، لتُريه الكتاب، وحين رأى جسدها يوشك مفارقة المقعد، طفت على الفور تغضُّنات دقيقة على صفحة وجهه، إذ تخيَّل مقدار العذاب وهو يعصف بجسدها، إن هي حاولت الوقوف فجأة على قَدَمَيْها، ولم تتهيَّأ لذلك، لكنها كَمَنْ تمالكت نفسها عند آخر لحظة، عادت وقعدت.

لوَهْلَة شعرتُ بالحزن يلفُّ كياني، يسمعها تتكلَّم ثانية شبه مغمضة، حتَّى قبل أن أجدني أسلِّم نفسي لحكايتها المأساوية. حسدتُها لاحقاً على قرارها ترك كل شيء وراءها، من أجل أن تعيش لحظة عشق تتفانى في صدقها. لكنْ، لا قطار في عدن لأمتطيَ إحدى مقصوراته، وأمضي مع أفكاري. ولا محطَّة سكة حديد، لأقف عند حافَّتها، وأقذف بنفسي، غير آبهة بالمسافرين حولي، لأعاقبَه على تخلِّيه عنِّي، أعاقبهم جميعاً على ما فعلوه بي وبه، وأتخلَّص أيضاً من شقاء يفوق طاقة احتمالي. ورفعتْ رأسها، وخطفت نظرة إلى صورة لجياب، مع الأمين العام

للحزب الشّيوعيّ اللّبنانيِّ: هل تراه لا يزال حيَّاً؟ هل لا يزالون يحتفظون به يتنفَّس، يرى ويسمع ويتناول طعامه ويقرأ كتابه، أم...؟ لم يستطع أن ينظر إليها، وكانت المخاوف تتوالى ممَّا تقوله الآن عنهم، وكأنها تتَّهمهم بما حدث لقَدَمَيْها، وتروح ببطء تنهش في جسده وحواسِّه. لم تقدر أن تُكمل عبارتها عن مصير جياب، فلزمت الصمت، ربَّما لأنها ما عادت تحتمل فكرة فقدانه. ولاحظ صلاح كم أنها بدأت تذبل، كم أن مكابرتها وعدم خضوعها للآلام التي تنخر قَدَمَيْها، لن تلبث أن تتلاشى.

"عاشر مرَّة، أقول لك بوس فخذها. يلَّه بوس". تحوَّل الشَّابُّ، الذي لا يعرف أحد هويته، فرجة لزبائن يترقَّبون التَّصرُّف الذي سيسلكه. كرَّر نضال كلامه. ولم يكتفِ بالسخرية من الشَّابِّ، إنما دعاه إلى الطاولة، فعل ذلك بإشارة من يده. تردَّد الشَّابُّ الذي لا يخلو من وسامة، واعتراه الخجل. هتف أحد المحيطين بنضال "أرجوكَ، لا تُفسدِ السهرة. واللي خلقك أتركه في حاله". لكن نضال بقي يعاند. وحتَّى لا يطول الأمر تطوَّع أحد مرافقي نضال، وقصد إلى حيث يقف الشَّابُّ، ولم يتكلَّم معه، إنما حاول أن يدفعه بلطف بادٍ، لكنْ، لن يخفى على مَنْ يرى المشهد جيِّداً، حجم الفجاجة التي يتمُّ بها الأمر.

قبل أن يقترب الشَّابُّ من طاولتهم راغماً، كان في طريقه ناحية طاولة شاغرة، فطاشت نظراته، بغير قصد، إلى الفخذ المشدود، يفيض بالإغراء، ويُوقِظ أشواق الجسد النائمة، حتَّى إن كان داخل قماش من الجينز، له لون خيشة

مبلولة، ذهاباً من صاحبته في محاولاتها قمع مباهج جسدها. وهنا وقع في شباك نضال اللزجة، إذ صرخ في الشَّابِّ "طمَّاع"، وضجَّت الطاولة بالضحك الهستيري. يحاول الشَّابُّ أن يداري ارتباكه بمحاولة الابتسام، فلا يستطيع. وأصبح يجهل إلى أيِّ جهة يريد لقَدَمَيْه أن تقوداه، وهَمَّ بالحركة تاركاً طاولتهم، لكن صرخة نضال تطارده، تأمره بالبقاء حيث هو.

يردِّد الجميع كلمات أُغنيَّة قديمة، وراء مطرب يبدو كبيراً إلَّا أن له وجهاً طفوليَّاً، يغنِّي بعاطفة، يجهد في أن تصل إلى أقصى تعبير لها، فليس كل ما يطلبون أن يُغنِّيه، يروق له. قد لا يكون حرج الشَّابِّ، وهو المجهول حتَّى الآن، مهما كان شديداً ومُمرِضاً، بقدر حرج سناء التي عبثاً تمنَّت أنها لم تُولَد حتَّى، وليس أنها لم توجد الليلة في هذا المطعم الذي يديره ليبيون، ويقع في الطابق الثاني من بناية، يفصلها شارع عن ساحل أبين، ولم تلتقِ أصلاً بنضال، الذي كان قد مرَّ بشُقَّتها، بيد أنه لم يعثر عليها، وحين سأل عنها دلَّتْهُ جدَّتها إلى هنا، وما إن رآها حتَّى انتزعها من بين رفاقها. لا أحد يدري ما السبب الذي دفعه إلى النيل منها هكذا. لم تُسعفه مخيِّلته، ربَّما، بطريقة مهينة كهذه، يُذلُّها من خلالها، قبل أن تضع الصدف في طريقه هذا الشَّابَّ. سناء تجلس إلى يمين نضال، تعطيه نصف ظَهْرها، بدا جانب من جسدها خارج دائرة الجلوس حول الطاولة، وفي متناول النظرات. بطريقتها في الجلوس، كانت كَمَنْ يريد أن يتفادى الاقتراب أكثر من نضال.

ولربَّما كان أجبرها على أن تجلس بجواره، وليس بعيداً عنه، فعمدت إلى هذه الطريقة في الجلوس. غير أنها لم تدرِ ماذا فعلت بنفسها. كانت تلبس بلوزة سوداء بلا أكمام ورقبة مستديرة، وتُدثِّر نفسها بشال داكن، فيما تركت شَعْرها منفوشاً، من دون تسريحة.

لم تعرف سناء أين تضع نظراتها. لأوَّل مرَّة تريد أن لا تكون لها نظرات، ولا عينان. كأنَّما اختفت الأشياء التي يمكن لبصرها، أن يقع عليها في هذه اللحظة، فبقيت تحدِّق في داخلها المعتم. فارقها الشعور بالحرارة، الإحساس بالمكان، طَعْم الشراب ورائحة الطعام الذي يملأ الطاولة. وشيئاً فشيئاً كانت تشعر بعودتها إلى نفسها، بنظراتها تترك عتمة روحها، وتطلُّ على الخارج، حيث الأضواء الخافتة والموسيقى الصاخبة، وقدرت أن ترى عبَّاس ومعه صلاح وهما يأخذان الشَّابَّ الذي لم يعد له وجود هو أيضاً إلى طاولة بعيدة، ويرمقان نضال بنظرات مملوءة سخطاً. في خضمِّ ذلك استطاعت أن تشعر بيد بقطاش، الذي ذهب للحمَّام، ثمَّ عاد، تمرُّ بجسمها مروراً لطيفاً وعطوفاً، كأنَّما يعتذر لها نيابة عن الحضور جميعاً، الذين لم يستطع أيٌّ منهم التَّصدِّي لفظاظة نضال، وهو يسرق الأنظار إلى طاولته بعرضه الهزلي.

تناول نضال قنِّينة شراب، وفتحها بحركة أنيقة، لا تصدر سوى عن شغوف بالشراب، والتعاطي مع أنواعه بخبرة، أضحت مشهودة. وتأخذ الفودكا تتدفَّق في كؤوس الرفاق. يمسك نضال بالكأس قريباً من شَفَتَيْه، هو مُنتشٍ كفاية، ثمل

فوق اللزوم، ونظر حوله، فلم يرَ أحداً، وكانت الطاولة خالية. واستغرب كيف يمكن للمكان الذي كان مكتظَّاً قبل ثوانٍ، أن يفرغ بغتة في عينَيْه. تعود إليه أيَّام بيروت، أو بالأحرى يعود هو إلى نفسه أو تعود هي إليه. نفسه التي كانها أو كانته. لم يعجبْه، آنئذٍ، تنمُّر المجموعات الفلسطينية في بيروت. كانوا أشبه بالعصابات، يبثُّون الرعب في كل شبر يتواجدون فيه، بمظاهرهم المسلَّحة، وبسلوكهم الفظِّ. طالما عبَّر عن كرهه لـ "غابة البنادق" التي تمثِّلها الفصائل الفلسطينية. قبل حصار بيروت، لم يدَّعِ أنه شيء. لم يسمعه أحد يقول إنه ثائر وفدائي وعلى استعداد لحمل عنقه على كفِّه، لكنّ آخرين كُثُراً قالوا ذلك بصوت يرافقه ضجيج. في أوقات كان يُوزِّع جريدة المعركة في عزِّ القصف. وفي أوقات أخرى، ينضمُّ إلى آخرين يذهبون للبحث عن المازوت بعد أن شحَّ من الأسواق، يشفطونه من الخزَّانات الخاصَّة بالبنايات التي كانت تستعمله للتدفئة، ويذهبون به لتشغيل المولِّدات والأفران. قبل الخروج من بيروت، لم يكن الموت يعني له شيئاً، كان مقاتلاً مؤمناً بوطن وعروبة.ويفكِّر بينما يرمق الوجوه حوله، عادت ثانية، لتملأ المكان ثانية، تغطِّيها سحب السجائر، أنه لم يعد يوجد شيء يمكن خسرانه، أو التَّحسُّر عليه. يُكمل كأسه، ويطلب المزيد. ويسمع الهرج والمرج في صوره المختلفة، المرح الذي يُميِّز عادة الركن الذي يختاره للجلوس.

مَنْ يعثر على نفسه قريباً من الطاولة التي يجلس إليها نضال، سيتوافر له عدد من الأشياء التي لا يمكن تعويضها بسهولة. سيُنعم النظر في وجهَيْن أو ثلاثة فائقة الجمال، لفتيات يجلسنَ إلى الطاولة نفسها. سيُصغي إلى الأخبار التي تحدث في عدن، رغم جوِّ التَّكتُّم، إضافة إلى معرفة تفاصيل جديدة عن عمليات فدائية، تكون مثلاً، نُفِّذت في أكثر من عاصمة عربية أو أجنبية، أو إماطة الغموض أخيراً، عن اغتيال شخصية شهيرة بعيداً عن موطنه. أو هتك آخر الأسرار في حادثة قديمة لاختطاف طائرة. كل ذلك يمكن أن يُدلي به، ليس تحت وطأة السُّكْر الشديد، فهو مهما بلغت درجة سُكْره، لا يمكن أن يبوح بسرٍّ، تعلَّم ذلك منذ زمن طويل، لكنه عندما يفشي سرَّاً، فلأنه يريد أن يُفشيه لأسباب تخصُّه. ومثلما حدث للشَّابِّ، الذي سيتَّضح أنه عراقي، مهندس في شركة جاءت لتوسيع ميناء عدن، فإن أيَّ جالس بجوار طاولة نضال أو يمرّ بها على الأقلِّ، يشدُّه الفضول إلى ما يجري، ويبدأ في استراق السمع والنظر معاً، وعندها قد يتحوَّل في لحظة إلى موضوع يطول للسخرية والتَّندُّر.

بعد فترة ليست طويلة، من وجوده في عدن، ربَّما قبل ذلك بقليل، أي في أواخر أيَّامه في بيروت، سيعرف نضال تحوُّلاً في نفسه انعكس، مع مرور الوقت، على جسده. لم يعد يطيق الأعمال الشَّاقَّة. لا يحتمل الصمت، ويروح يهدر كثيراً. يُقبل على الطعام ومباهج الحياة كالمحروم منها. ثمَّ يهول مَنْ عرفه في تلك الأزمنة، ثمَّ في حياته الجديدة،

الانحراف الذي أصبح عليه. مجرَّد آلة وحشية بلا ضمير، ولا مشاعر أو عواطف. لا يتوانى عن إلحاق الأذى بالجميع، طالما أن هناك مقابلاً. "منذ ذلك، وأنا أستيقظ كل صباح، شاعراً أن في داخلي شخصاً آخر لا أعرفه، ولا أدري هل أنا الشخص الأصلي، وهو الآخر، الذي لا أعرفه أم العكس؟". سيُسِرُّ نضال لسناء في واحدة من تلك اللحظات النادرة التي جمعتْهُما. شقي طويلاً حتَّى قدر أن يرى السماء ليست ملبَّدة بالطائرات. وأن تكون الأرض خالية من المتاريس. وأن لا يسمع أصوات القذائف. حتَّى عندما استقرَّ به الحال في عدن، بقيت الحرب تطارده.

لم يكد ذلك الصخب يهدأ، حتَّى أخذ نضال يتسبَّب في إثارة ضجَّة أخرى، وهو يقول بلا مناسبة، وبصوت يمكن لمعظم مَنْ في المكان سماعه:"لستُ قلقاً أبداً من الزهايمر، من النسيان في شكل عامٍّ". تمضي لحظة صمت، قبل أن يسمعوه يسترسل ثانية في الكلام، "ما يُقلقني من الزهايمر"، أخذ صوته هنا نبرة مختلفة، تنمُّ عن غمٍّ، وقلقٍ فعليٍّ، حتَّى إن بعض مَنْ يسترق السَّمْع إليه، أخذ يترقَّب سماع شيء يثير الحزن، وقد يدفع إلى التعاطف معه، "أن أنسى أن هناك وظيفة جوهرية لعضوي التَّناسليِّ". وعَلَتْ ضحكة مجلجلة وتافهة، ثمَّ قال كأنَّما يخاطب شخصاً بعينه، مع أنه الآن لا ينظر سوى إلى حجره، "تخيَّل أنكَ تمسكه بين يَدَيْكَ، لكنكَ غير داري بالمرَّة لأيِّ شيء هو". ولزم الصمت قليلاً، فعاد الهدوء، لكنْ، لبُرْهَة صغيرة، إذ ما لبث

أن سمعوه، وقد غيَّر الموضوع، يزمجر:"ولأرضكِ، يا قدسُ، منِّي سلام. وستبقى العاصفة شعلة الكفاح المسلَّح".

في الأثناء، لوت سناء جسمها مستندة بمَرفِقِها على ذراع المقعد، وبقيت تنظر ناحية الطاولة التي كانت يجلس إليها برفقة البقية، وظهر لها صلاح مستغرقاً في الإنصات للضوضاء التي تُسبِّبها أحاديث السهارى، وارتطام زجاجات الشراب بالكؤوس، ورفع الأطباق والتقاط الملاعق، وخطوات النُّدُل. لم يعد يصغي لشيء سوى هذه الضوضاء التي تحوَّلت هاجساً كبيراً، عبَّأ حواسَّه كلها. وكانت هي مثل مَنْ يتخبَّط في قاع، فلا أحد يمكنه أن يهبط إليه، ولا أن يقدر على انتشاله، وما يبقى سوى تلويحة تعاطف، ولعلَّ هذا ما فعله عبَّاس الذي نهض وذهب ناحيتها، وقال لها كلاماً. في الواقع لم يقلْ شيئاً مهمَّاً، إنما قصد تحدِّي نضال، والتَّسبُّب في تعكير مزاجه، ثمَّ عاد للجلوس.

وأخذ الجميع يراقب نضال وهو يوجِّه، في الحال، نظرات ملؤها الاشمئزاز إلى سناء. ثمَّ وهو يقذف كأسه بعنف فوق الطاولة، وشاهد كيف تراجعت أجساد الأشخاص حوله إلى الخلف قليلاً، بصورة فجائية، في محاولة يائسة، لتلافي شظايا الزجاج، كي لا تتسبَّب لهم بأذى.

16

إنهم يراقبونني.

قال جياب في زمن أضحى بعيداً، وطاشت نظرة منه إلى سلسلة الذهب في صدرها، تنتهي بقطعة مربَّعة صغيرة، يُتوِّجها حجر كريم من المرجان الأحمر. قطعة بسيطة، لكنها، في تلك اللحظة، بدت له فريدة، ولا تُقدَّر بثمن، وهي تستلقِ على الصدر الفسيح لنورا، المنقَّط بحبيبات عَرَق، تُشبه اللؤلؤ. وجال في باله أنه يجهل إن كان اشتراه لها أيضاً، شأنه دائماً، من بائع الذهب الفارسي فرهاد الذي ربطتْهُ به صداقة، منذ أن كان مجرَّد صبيٍّ في المحلِّ نفسه بكريتر، حين كان يملكه هنديٌّ سيخيٌّ، يُدعى غوجريت، يحمل الجنسية البريطانية، ويعشق الخيول، وله أملاك في مانشستر وساوث هول. في ذلك اليوم جلس لصقها، ووجهه يتطلَّع إلى مستطيل دقيق من ضوء نهار عدني مكفهرّ، ينسلُّ من بين شقَّي الستارة المسدَلَة، فَشَعَرَ حينها بالاختناق، فيما كانت هي تشمُّ رائحة العَرَق الذَّكَرِيَّة، تفوح معجونة ببقايا عطر من ماركة جاكومو.

لكنهم لن يستطيعوا فعل شيء لي. أضاف جياب.

وتتذكَّر أنها لم تلحظ يومئذ أيَّ ارتياح في نبرة صوته.كان ذلك بُعيد عودتهم من الكويت، أواخر مارس 1979، حين تمَّ الاتِّفاق على الوحدة اليمنية، عقب إنهاء الحرب مع صنعاء، الحرب التي استبسلوا فيها، بفضل الجيش المدرَّب روسيَّاً، وكادوا، كما ردَّد دوماً على مسامعها، التَّغلُّب على الشّماليّيْن، وإسقاط صنعاء، لولا أن أطرافاً إقليمية اصطفَّت إلى جانبهم. لم يخلُ يومها من القلق. قالت نورا. لذلك دسَّت وجهها في جسده، لتمتصَّ الرائحة التي تكاثفت في

تلك اللحظة، تخالطها رائحة أخرى، لها طعم الفزع من قهر الرفاق لبعضهم البعض.

وتتذكَّر الآن أنه أمسك بيدها، وقبَّل راحتها. وشعرت هي بمَلمَس شاربه مثل وخز الشوك في كفِّها الناعم، وحاولت طمأنته. إلَّا أن قلقه كان قد فاق احتماله.

في الأشهر الأخيرة ضايقوه كثيراً. استمرَّت تقول، وشبكت بين أصابعها، نظرت فيها قليلاً، ولم يرق لها منظر الشحوب البادي عليها.ثمَّ أضافت، آخذة الموضوع إلى وجهة مختلفة، إنه كان يعيش حيوات كثيرة في حياته الواحدة. وهي ترفع، ببطء، ساقاً على الأخرى، ورأى صلاح كيف أنها فعلت ذلك بقدر بالغ من الصعوبة، بسبب الألم، حتَّى إن مشاعره نفسه تأذَّت من رؤية التَّشنُّجات على وجهها، ذكرت شيئاً عن خشيته ممَّا يمكن أن يُفاجِئوه به من أفعال، لم يجرؤ هو نفسه على فعلها بغيره.

هل كان لكِ وحدكِ؟

أعاد على مسامعها السؤال، الذي لم تجبْ عليه، وفضَّلت الذهاب بعيداً، والتَّطرُّق إلى تفصيل لا تخلو استعادته من لؤم، حين يشي بما كان الرفاق يولون به واحدهم الآخر من تربُّص ونِيَّة في الأذى.

ما أحراه لو سكت، ولم يسأل سؤالاً كهذا. يفكِّر صلاح، ويهجس كم أنها تشقى حتَّى لا يتصوَّرها أحدهم، مجرَّد واحدة من نساء كثيرات ربَّما هام بهنَّ جياب، من دون أن

يقاسمهنَّ همومه ومخاوفه. ويسأل نفسه كيف يجعلها تقتنع أنه خالٍ من تصوُّر كهذا؟

وكاد ييأس من ردِّها حتَّى سمعها تقول: مرنت غريزة الأُنثى الاستحواذية غير القابلة لشريك، لكنْ، بعيداً عن طيش النساء وأنانيَّتهنَّ. ها هي أخيراً تُجيبه. لا أريد أن أرى فيه العاشق الواله، أرغب في أن أرى أيضاً المسؤول، صاحب النفوذ، والبطش أحياناً. وأكره في المقابل أن يعثر فيَّ على الجسد فحسب. لم يملك صلاح سوى أن يهزَّ رأسه، وهو يراها تمضي في الكلام بينما تحتسي قهوة القشر، وتضع في فمها قطعة من حلوى، جاء بها الهنود قبل أكثر من قرن من الزمان، عندما نزلوا في عدن، برفقة الإنجليز، ويتمُّ تناولها في مناسبات الأفراح والمآتم، في كل مناسبة تصبغ بلون أو لونَيْن، الأحمر أو الأحمر والأخضر معاً.

لم تفكِّر أنها قد تكون ضحية بطشه يوماً. ولم تقاوِم الرغبة حين عثرت عليها تنمو وئيدة، أن تكون أشبه بفريسة، ليس لرجولة العاشق فيه، إنما لتهوُّر السِّياسيِّ واستبداده. أخبرتْهُ أنها كانت تتوق إلى أن ترى، كيف تتحوَّل الغطرسة السِّياسيَّة وجبروت القيادة في لحظة معها، إلى مشاعر وعواطف عنيفة تجاه الحبيب. ليس ما تنزع إليه ضرباً من الخيالات المازوشية، إنما ضعف بشري، أو هو أوج ما بلغتْهُ العلاقة بين العاشق والمعشوق. بيد أن الأُنثى في داخلي لا بدَّ أن تنبثق من حيث لا أعرف، وتبدأ في مواجهته. وأنا أستسلم له، وأكونُ تحته، كثيراً ما أدرك أنه

يشعر أنني التي تعتليه، كأنَّما أَحوِّله إلى أُنثى، أو أنني أجعله مصدراً لإشباع متعتي أنا وحدي. وبعد لحظة من الصمت، لتلتقط أنفاسها ربَّما، هكذا يظنُّ صلاح فيما يُخفض بصره، ليس خجلاً، فلم تعد جُرأتها تُشعِره بالخجل، إنما لأنه لم يستطع أن يذهب بعيداً في تصديق ما تحكيه. لكنني تعوَّدتُ منه حَدَّاً من التأنيب في مثل هذه الحالات. حَدَّاً بتُّ أُدرك معه متى يمكنني أن أتمادى في ما فعلته أو أتراجع، معتذرة وطالبة غفرانه. علماً أن كل ذلك كان يحدث لي، قبل أن يضربَني الوشاة عنده، حين أخذتُ أخشى عليَّ من طغيان جبروته.

رغم ما يحسُّه في كلامها من مبالغة تفوق الحَدَّ، إلَّا أنه أراد أن تسترسل في الحكي، لكنْ، بغتة يدخل والدها عليهما. لم يسبقْ لصلاح الذي لم ينتبه للباب يفتح من الخارج، أن رآه طوال ما كان يتردَّد على منزل ابنته. ونظر إليه، فأبصر كبرياء مجروحة، ولمح مجداً غابراً، ولم تفتْهُ رغبة في الثأر رغم تعاقب الأزمنة. دنا منه، فبادره، بما أمكن لصلاح معرفة أنه لا يجهل مَنْ هو، ولا الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها: هل لا تزالون تعيشون مع أغنامكم في الشُّقق التي نهبتُمُوها منَّا؟

صوت كتيم تتوضَّح فيه درجة غير يسيرة من العتاب صدر عن نورا، جعل الأب يُلطِّف من لهجته، ويبتسم ابتسامة خفيفة، باهتة قليلاً، قبل أن يقول: تغلَّبتُم علينا نحن الذين نعتُّموهم بالرَّجعيِّيْن وعملاء الإنجليز، بقوَّة الشعارات وبغضب جماهير أُمِّيَّة. وأخذ، ببُطء، يتلمَّس بأطراف

أصابعه ذقنه غير الحليقة، بينما يُحرِّك لسانه داخل فمه، كَمَنْ يتخلَّص من بقايا طعام. وذكر أن الثورة عليهم كان سيسهل فَهْمها، لو أنها بقيت في حيِّز القضاء على الإقطاع والرَّجعيَّة، بيد أنها تكشَّفت عن عبث، طالما انتهى الرفاق أنفسهم إلى تصفية واحدهم الآخر.

القسوة ضرورة أحياناً. تحريك سكِّين حامية في جرح، أو بتر عضو من الجسد، من المؤكَّد أنها وسيلة ليبرأ الجرح، ويتعافى المريض. هذا ما نفعله ببعضنا البعض.

قال صلاح، وهاله ما تفوَّه به، وقد ظنَّ نفسه أحد أولئك القادة التَّاريخيِّيْن الذين نقلوا البلاد من طور إلى آخر، مُتوخِّياً أن يبقى هادئاً ومُتفهِّماً نقمة هذا الرجل وأشباهه، ممَّنْ لم يعودوا يملكون شيئاً سوى الحقد.

فيما هو يقعد قدَّام العجوز الحانق كان صلاح يغالب شعوراً، يرغب بشدَّة أن لا يكون زائفاً، بالازدراء من هذا الإقطاعي والتاجر الذي كلَّما تقدَّم عمر الثورة إلى الأمام، جاهر أكثر بالحنين إلى الأوقات، التي كان الاستعمار يسود فيها. يراه يحاول الصراخ، ولا يستطيع، لم تعد الصِّحَّة في جسده تُعينه على ذلك. الأب، الذي يعود إلى سلالة النَّبيِّ محمَّد، وكانت أسرته في بدايات القرن تسكُّ نقودها الفضِّيَّة الخاصَّة بها، وأولى زوجاته كانت هندية، كما أن عمَّته عقد قرانها على هندي من حيدر آباد، سيتأمَّل الصور التي تحيطه من كل صوب، وسيشعر بغربة، وبطعم الرماد في فمه، وستمتدُّ يده إلى كوب نصف ممتلئ بالماء، على

المنضدة بجواره، لكنها لن تمسك بالكوب، وبدلاً منه، سيتناول علبة سجائر ابنته. أشعل سيجارة بينما يضع رِجْلاً فوق الأخرى. سَحَبَ نَفَساً عميقاً، وأطلقه فوق رأسَيْهما، ثمَّ أرخى بصره، وراح ينظر في جزمته، من الجِلْد الأصلي، تغطِّيها طبقة خفيفة من الغبار. يلبس بدلة لونها كحلي، لا يمكن جهل أنها فاخرة، وإن كانت قديمة نسبيَّاً، طية السترة، تفاصيل الحياكة، لون الشميز الأبيض، كل ذلك ينمُّ عن رُقي. يستمرُّ في التدخين، واضعاً السيجارة بين إصبعَيْن، ويحكُّ بهدوء زاوية فمه بالإبهام، لا يحكُّ بقدر ما هو يستسلم لهاجس ما، ثمَّ قال: لن تكون هذه النهاية. القادم مأساوي بدرجة مريعة. لقد استبدلتُم بالتاج البريطاني المطرقة والمنجل، من مستعمر جاء على رأس جيوشه، إلى مستعمر آخر ذهبتُم بأنفسكم إليه، وسلَّمتُم البلاد والعباد له.

وسيسمعه صلاح يضيف، بينما تطفر بشدَّة الشرايين في رقبته: سنبقى وطنيِّيْن على طريقتنا، حتَّى وإن جرَّدتْنا هذه البلاد من ألقابنا. ولا يدري صلاح لِمَ لمْ تخالجْهُ ذرَّة شكٍّ في ما تفوَّه به هذا العجوز، لكن هذا الإيمان العميق بالبلاد أخذه إلى الرفاق، إلى أنفسهم، ورسوخ إيمانهم أيضاً بالبلاد ذاتها. ولم يدرِ أيّهما أقدر على الإقناع أن ما يتفوَّهون به، ينبثق من حقيقة تتجذَّر في أعماقهم، وليس محض كلام، يدفعه الهواء في كل الأنحاء. ولم يشأ، سعى إلى ذلك ما وسعتْهُ الحيلة، أن يرى ما يبوح به الطرفان من خلال هواجسه هو، إنما أراد أن يُصدِّق حقيقة مشاعرهم. ويعود

ليُحدِّق تحديقة طويلة في التاجر وشيخ القبيلة المجرَّد من ألقابه القبائلية، يراه كأنَّما هو وسط إقطاعياته، ثمَّ يصغي إليه يقول:لم أرثْ أنا كل هذا، ولم أحصل عليه هبَة من أحد. الساعات الطويلة، السفر الدائم بين المُدُن، بين الموانئ، هو ما جعلني كذلك.

إلَّا أن سليل السلاطين وصديق الإنجليز وخادم الملكة لم يعد يذهب إلى الريف، كفَّ عن ذلك من أعوام كثيرة. ما عاد يطيق رؤية مزارعه، وقد تحوَّلت ملكاً لمجرَّد فلَّاحين، وجدوا فرصة للثأر منه باسم الاشتراكية، التي أباحتْها لهم بقوَّة قانون "الأرض لمَنْ يفلحها".

تدريجيَّاً يترك صلاح والد نورا لأحقاده، ولمَّا كانت أملاكه ودنياه، وانشغل بما جرى له اليوم مع منظَّمة قاعدية في مؤسَّسة، كانت وفود أجنبية، زارتها مؤخَّراً. إذ ألحُّوا في طلبه للحضور، وفور أن جاء أخبروه عن عبَّاس، وأجانب كان يرافقهم طوال أيَّام إلى أماكن عديدة. وردَّ عليهم أنه شخص متعاون، وأن لا شكوك في نواياه. إلَّا أن المنظَّمة أصرَّت أن سلوكه، وفقاً لتقرير أمني مكتوب، كان مثيراً للارتياب. لم يدرِ صلاح ماذا عساه أن يفعل، لتبديد اشتباههم. ولأنه يعرف حساسية كل ما له علاقة بالأمن، واحتمال أن يتطوَّر اللبس، في حال كان كذلك، إلى مسألة خطيرة، لم يملك ساعتها سوى الاتِّصال من فوره بشخص متنفِّذ، عرفه عن قُرب، وتكاتف معه، رفقة آخرين، لتصعيده عضواً في اللجنة المركزية. غير أنه صدمه حتَّى قبل أن ينتهيَ من كلامه، حين اقترح عليه عدم إسناد أيِّ

وظائف لعبَّاس حتَّى إشعار آخر. لم يكتفِ بذلك، إنما أثار خشيته بصورة غريبة، عندما سأله في هيئة اتِّهام: وأنتَ ما دخلكَ به؟

ويجهل إلى هذه الساعة، كيف له أن ينقل لعبَّاس ما حدث، من دون أن يتسبَّب في ترويعه، هو الذي ينتابه الذعر من أبسط سبب.

يُحدِّق صلاح الآن في حفيد الرجل، الذي تحوَّل إلى زعيم ديني وروحي لقبائل في حضرموت ويافع والضالع، وكانوا يستنجدون به لنصرتهم على القبائل الغازية من الشمال، وتحوَّل قبره إلى مزار، يُقرأ عنده القرآن، ويُحرَق حوله البخور، ويراه ينظر في الفراغ قدَّامه، ويُخرِج منديلاً مبقَّعاً بالبلل، ويمسح عنقه وصدره، ثمَّ وهو يشمله بنظرة ملؤها الحَيْرة والشفقة معاً، وأخذ يردِّد: قالوا في السنوات الأولى من الاستقلال إن المستعمر عاد ليحكمَنا، لكنْ، بالتلفون، يعطي أوامره لجنرالات الجيش. في البداية، كذَّبتُ أنا هذا، لكنْ، فيما بعد اعترفتُ لنفسي أن الاستعمار لا يزال موجوداً، بيد أنه هذه المرَّة ليس أمامنا أو حولنا، ولا يأتينا عبر أسلاك التلفون، إنه يسري مع الدم في الأوردة والشرايين. ليس الاستعمار، إنما مسخه الذي صوَّر لنا أننا هزمناه وطردناه إلى الأبد، يراقب ما نفعل، ويهزأ بنا.

ونهض صلاح من مقعده إلى إحدى الخزائن، لها درفتان من زجاج، وانشغل بتفحُّص ما فيها من تُحف صغيرة،

بينها مُجسَّم ضئيل للكرملين، وكان يعطيهما ظَهْره. وهي المرَّة الأولى التي تتملَّكه فيها جرأة فعل أمر كهذا، منذ وطأت قَدَمَاه هذا المنزل. ومن دون أن يلتفت خرجت كلماته، وسيتفاجأ من نفسه ثانية: تعرف، لم يخطر لي أبداً، حتَّى في أكثر اللحظات يأساً، إننا اقترفْنا خطأ في حقِّ أحد، ولو حدث هذا، فإنني سأغفر لأنفسنا ما فعلناه، فقط لأننا بنينا بلداً جديداً، يستطيع أن يستوعب شخصاً مثلكَ، يطارد ماضيه، كما لو كان هذا الماضي سيُشفق عليكَ ويعود، مثل خادم يمتثل لأوامر سيِّده.

انحنت نورا إلى الأمام، وفي الوقت نفسه، بقيت تُنصِت مستغربة لصلاح، بينما تراه بطرف إحدى عينَيْها وهو لا يزال يعطيها ظَهْره، وتحاول أن تتذكَّر إن كانت رأت منه موقفاً مشابهاً من قبل. وهي ترجع بظَهْرها إلى الخلف، راحت تترقَّب ما سينتهي عليه هذا المساء. وسرعان ما بدا والد نورا غاضباً بصورة مريعة، بعينَيْن حمراوَيْن، ووجه منتفخ، وأصابع يَدَيْه ترتعش. كأنَّما للتَّوِ سلبوه أملاكه، أو كأنَّه الآن فقط أدرك حجم الأذى الذي ألحقه به الثُّوَّار. وانتظر صلاح الذي عاد ليجلس أن يهجم عليه العجوز، الذي رفض ترك عدن بعد الاستقلال، وأن يُمسكه من بدلته السفاري، ويهزَّه مرَّات مع كيل الشتائم والسُباب، قبل أن يُطلقه ليقع كيما اتَّفق، إلَّا أنه تفاجأ بطوفان الغضب يخرُّ على ركبَتَيْه قدَّام ابنته، ويبقى يُحدِّق في قَدَمَيْها، كَمَنْ لا يُصدِّق ما يراه. مدَّ يَدَيْه الاثنَتَيْن، وبأصابعه المرتعشة، أخذ يتلمَّس ببطء الأربطة البيضاء، ثمَّ رفع بصره إلى وجه

ابنته، التي أغمضت عينَيْها، كأنَّما لم تحتمل انهياره بهذه الطريقة. وما لبث أن راح، بصوت أخذ يرقُّ ويخالطه بكاء، يعتذر لها عمَّا سببه لها من شقاء، منذ أن كانت يافعة.

فتحت نورا عينَيْها، فرأت رأس أبيها وهو ينحني على قَدَمَيْها، ترى شَعْره الخفيف مبيضَّاً ومبتلاً بالعَرَق، يمكنها أيضاً رؤية فروة رأسه، خلال خصلات الشَّعْر المتفرِّقة، وتلمح ياقة القميص، وبدت لها متَّسخة. واستطاعت أن ترى التَّغضُّنات، لها لون نحاسي صدئ، أسفل عنقه. وبرق خاطر في ذهنها، كم أن أحواله قد تغيَّرت، انزلقت إلى درك ما من شكٍّ أنه يتعذَّر عليها الآن تخمين المسافة إلى قاعه. وتتذكَّر أوَّل مرَّة حضنها، كان ذلك عند تركه لها لدى أسرة إنجليزية. كان لجسده رائحة الحديد يومها، إلَّا أن تلك الرائحة مدَّتْها بقوَّة غريبة، قبل أن تأخذها آن، المرأة التي لم تتزوَّج، أو تزوَّجت وانفصلت باكراً جدَّاً، وتعيش مع أخيها الذي يعمل في شركة لتحويل الأموال، وابن أخت لها، أرسلتْهُ أُمُّه من أثيوبيا، حيث تدرس في مدرسة، تتبع جماعة تبشيرية. في ذلك البيت، أكلت كيكاً بطَعْم القرفة، ورقصت لأوَّل مرَّة. بدت لها تلك المرأة الخمسينية بطباع غريبة، صامتة وعدوانية أحياناً، تجاه نفسها بدرجة أولى، إلَّا أنها غمرتْها بعاطفة ما كانت أُمُّها لتستطيع، لو أنها بقيت تعيش في كنفها، أن تهبَها حتَّى المقدار نفسه.ثمَّ أغمضت ثانية عينَيْها، لكن أصابعها كانت الآن تتخلَّل ببطء شَعْر والدها، وتنزلق إلى كتفَيْه

العريضَيْن، وتُربِّت عليهما بوَهْن، مواسية إيَّاه قدر ما تُسعفها به قوَّة يَدَيْها.

وأخيراً نهض العجوز إلى النافذة، أزاح الستائر، وفتحها، فطارت الغربان. سحب نَفَساً طويلاً من سيجارة جديدة، ومجَّه في الخارج، خلال شبَّاك الحديد. ليست هذه عدن، التي أعرفها أكثر من معرفتي الخطوط في راحة يدي. قال وهما يريانه من الخلف يحكُّ مقدّمة رأسه بأطراف أصابعه. أرى مدينة أخرى، غارقة في الفقر والشعارات. ثمَّ أعطى ظَهْره للنافذة، وأضاف وهو يرمق صلاح، من خلال دخان السيجارة بنظرة هازئة، أُعزِّيكم في فقيدكم الغالي يوري أندروبوف. ولم يدرِ صلاح بماذا يردُّ.

موت الزعيم الرُّوسيِّ قبل يومَيْن لا يزال يُلقي بظلاله على الجميع هنا. اليوم سافر أعضاء بارزون من المكتب السِّياسيِّ واللجنة المركزية إلى موسكو، لتقديم التعازي.

تعرف، استأنف العجوز كلامه مخاطباً صلاح، الذي رفع رأسه من دون أن ينظر في مُحدِّثه: في زمن الإنجليز، كان الفقير يجهل أنه فقير. بعد الاستقلال، لم يُدرك الفقير مرارة أنه فقير فحسب، زاد على ذلك أن راح يتباهى بفقره. إنجاز الحزب الوحيد في رأيي، أنه أضفى على الفقر معنى جذَّاباً. فأصبح الفقر منتهى أماني الفقير، وكأنما هو يملك خياراً آخر.

وظهر والد نورا مغتبطاً، كأنَّما هو نجح في العثور على الخاتمة الملائمة لكل ما سبق أن قيل، في هذا اللقاء

العاصف.ولم يقدر صلاح أن يفهم لِمَ خطرت له الآن، قطعة السمك المَكسوَّة بالصلصة، التي يلتهمها في إفطاره بين ويوم وآخر، بينما يراقب طبق الفاصولياء الناشفة، على طاولات خشبية تعجُّ بالذباب، يجلس حولها عمَّال وضبَّاط كبار وموظَّفون مثله. يفكِّر الآن أن قطعة السمك تلك، من نوع ديرك، مثَّلت له القشَّة التي يتعلَّق بها، لينجوَ من الغرق في حياة رثَّة بالكامل، تلك الحياة التي يجهد ويصنع ما في وسعه ليتفاداها، مؤمناً بلا حدود أن الحزب يقود الجميع بلا استثناء إلى الرفاه والعيش الكريم.

ترك العجوز مكانه، وتقدَّم خطوات إلى إبريق الماء، وصبَّ لنفسه نصف كوب، وشربه دفعة واحدة. وهو ينظر في وجه صلاح مباشرة، تفوَّه مخاطِباً ابنته: استعدِّي للسفر. لم تنمّ ملامح نورا عن غبطة، جرَّاء السماح لها أخيراً بمغادرة عدن، إنما أخذت تُعبِّر عن توقها لسماع خبر عن جياب. فردَّ عليها والدها أنه فشل تماماً في العثور على ما يدلُّهم عليه. قبل أن يتهيَّأ والد نورا للانصراف، لاحظ صلاح أن لا شبه يجمعه بابنته. كلاهما يملك وجهاً وسيماً، بيد أن لا تفصيل يشتركان فيه، سوى السلوك المترفِّع. وفجأة وقف صلاح، شعور غامض دفعه إلى ذلك، وحاول أن يمدَّ يده، ليُصافح الرجل، الذي أحسَّ حياله بأحاسيس متلاطمة، غير أن الآخر كان قد أعطاهما ظَهْره. وخطا خطوات واسعة، ثمَّ سمعا اصطفاق الباب بخشونة خلفه.

17

يوشك صلاح بينما يُنصِت الآن بكل خلجة في جسمه، أن يعرف كيف أصبحت نورا بقَدَمَيْن معطوبَتَيْن، رغم أن مشكلة عبَّاس مع الأمن تُعكِّر مزاجه. لم تتصوَّر أنهم سيهجمون عليها بوحشية، بمجرَّد خروجها من الروك هوتيل. في بار الفندق، الذي لا يزال يُذكِّر بأُبَّهة كولونيالية، لم ترَ في تلك الليلة سوى روسيَّيْن يُصدِران ضوضاء خفيفة، ويابانيٍّ يجلس وحيداً يشرب حول طاولة بعيدة، تغمرها عتمة خفيفة، ويترنَّم وراء بيلي هوليداي، يطلع صوتها خفيضاً ونحيلاً، من زوايا البار، بجدرانه الزُّجاجيَّة التي تطلُّ على البحر: على أشجار الجنوب فاكهة غريبة. دم يلوِّن الأوراق، ودم منسدل فوق الجذور". ولم تتناول شيئاً غير فنجان قهوة. أخذت تُطيل في شربها ما استطاعت من الوقت. وتحدَّثت قليلاً مع النادل الأسمر حديثاً حميماً لا يخلو من شجن، يُؤجِّجه التماع صافٍ، تعكسه عيناه، فتشعر أنها في خضمِّ زمن مضى. رغم أن خاطراً لازمها أنهم في الأمن، قد يكونون نجحوا في توظيفه غصباً عنه لمصلحتهم، كما يفعلون مع نُدُل وساقيات ممَّنْ يخدمون في الفنادق والمطاعم والأندية اللَّيليَّة. في هذا البار عاشت بعض ألذِّ ساعات حياتها، على مَرأى من هذا النادل الأثيوبي الذي بقي في عدن، ولم يمرّ عليه التغيير الذي شَابَ كل شيء عرفه قبل الاستقلال.

هبطت ليلتها من البار، وكان صوت بيلي يطاردها "هنا فاكهة تُركت للغربان". تخلَّلت أزقَّة ضيِّقة بخطوات بطيئة، كأنَّما قَدَمَاهَا تتعرَّفان لأوَّل مرَّة معالمها، وكأنَّما لم تتجوَّلا هنا مراراً. تُصغي إلى أصوات أناس يسهرون، تتناهى إليها من بعيد. تسمع صوت امرأة من شبَّاك مفتوح، يقول شيئاً مبهماً، ثمَّ صوت ضحكة قصيرة، يعقبه صراخ أطفال، ثوانٍ ويتلاشى كل شيء. تخطَّت الأزقَّة، وأصبحت خطوات قليلة، تفصلها عن شارع مضاء. قَدَمَاهَا تتمهَّلان في المشي، وسيَّارات التاكسي تتلكَّأ بجوارها، إلَّا أنها لم تركب أيَّاً منها. آثرت مواصلة السير وسط نسمات خفيفة حلوة، بدت نادرة في ذلك الجوِّ المشبَع بالرطوبة. ثمَّ شعرت بسخونة، تشمل قَدَمَيْها، كما لو ارتدت جوارب، نُقعت في ماء حارٍّ. لا، ليست سخونة ما شعرتْهُ يُمسك بقَدَمَيْها. ربَّما قطعة من جحيم أو سائل بركاني ما هوت بقَدَمَيْها فيه، قبل أن تترنَّح بخُطى عرجاء في اتِّجاهات شتَّى، ثمَّ تنهار بجوار حائط معبد يهودي قديم، حوَّلتْهُ الثورة مدرسة للبنات، عاجزة حتَّى عن الصراخ وطلب النجدة.

لأيَّام بقيت عاجزة عن استيعاب الأذى الذي تعرَّضت له قَدَمَاهَا. هيهات أن أعرف كم من شخص كانوا يتربَّصون بي، لاحقاً ستقول للطبيب الذي سألها عن عدد الأشخاص الذين تعرَّضوا لها، ولا حتَّى من أين باغتوا قَدَمَيَّ. إلَّا أنني أتذكَّر أنه وقبل أن يحدث كل شيء، لفَّني شعور ثقيل، وتباطأت أنفاسي. وذكرت أنها لم ترَ وجوههم، رأيتُ

ظلالهم فقط تسبقني وتنتشر فوق الأجدرة، مثل مخلوقات ما قبل التاريخ، وكانت لهم رائحة مريعة، أخذت تخنقني وتُقيِّد قَدَمَيَّ في الأرض.

تحت وطأة سردها الأليم لما حدث لها، عثر صلاح في نفسه على ما يشبه شعوراً بالشفقة. ولوهلة لم يدرك إن كانت هذه حقيقة مشاعره ناحيتها، أم لأنه في هذا اليوم تحديداً تكتنفه خواطر قاتمة، إذ تُنذره الأوضاع في الدائرة بتغيُّر، قد يقلب حياته، ويختمها بنهاية، لم تخطر له.

قبل ليلتين رأى نفسه في ما يشبه المحاكمة. حين استيقظ، تذكَّر، على نحو غامض، أنه لم تكن هناك محكمة، ولم يكن حتَّى في بناية لها سقف وجدران. كما لو جرى كل شيء في عراء كالح. يتذكَّر ضباباً رماديَّاً يحيطه، ورائحة زنخة لسمك نافق. في الحلم بدا غاضباً وناقماً وهو يقف في مواجهة صفٍّ طويل من الأشخاص. وجَّه اتِّهامات لم يعد يتذكَّرها، حمَّلهم مسؤولية أمور كثيرة لا تُحصى. كان يصرخ ويضرب بقبضته، ليس على طاولة، فلم يتسنَّ له ملاحظة أيّ وجود لها، لكن صدى ضرباته ما يزال يتردَّد في مسامعه، حتَّى اللحظة. وحال استيقظ، ورغم أنه حلم، وأن الأشخاص الذين حاكمهم، لم يكونوا سوى هو نفسه، مكرَّراً في نسخ كثيرة، إلَّا أنه ارتاع، وأخذ يمسك بعنقه، كما لو كان يتحسَّس حبلاً يلتفُّ حوله.لو قُدِّر له الآن أن يستعيد الحلم، وأن يستطيع التَّدخُّل في إعادة صياغة عناصره، لَجَعَلَ للمحاكمة مكاناً، ولأعطى المكان شكل سجن الفتح بجدرانه وعنابره وزنازينه، السجن الذي

صمَّمه خبراء من ألمانيا الشَّرقيَّة، في إطار تعاونهم مع أمن الدولة، وغاب خلفه أشخاص، عرف بعضهم، وبقي بعضهم الآخر مجهولاً، بالنسبة إليه، غير أنهم جميعهم نالوا نهاية مرموقة، يحسدهم عليها، خاتمة ممعنة في تراجيديتها، طالما مرَّت أجسادهم بهذا المعتقل، الذي يحمل اسماً غريباً على عقائد الحزب وأهواء قادته.

يبدو الآن مهموماً إلى حَدِّ أنه لم يعد يريد البقاء، ولا حتَّى مواصلة الإصغاء إلى نورا. لكنها، في كل مرَّة يتَّخذ فيها قراراً شبيهاً بهذا، تأخذ في زعزعته، مُرغِمة إيَّاه على الجلوس.

وسمعها تقول إن الحلم الذي رأت فيه مراراً بهيمة، يُهوى على قوائمها بالسكاكين، وهي ما عادت تعرف كيف تقف، ولا كيف تفرُّ، لتُخلِّص نفسها من قساوة كهذه، بدا لها في لحظة أخرى أرحم ممَّا حدث لها، وهي تتذكَّر كيف كانوا يطاردونها بوحشية، ويحاصرونها مثل تلك الدَّابَّة، للتَّأكُّد أن السائل الحارق غمر قَدَمَيْها تماماً، وأن الأذى شملهما بالكامل.

وبعد بُرْهَة صمت، أضافت:" لم يتملَّكني أدنى شكٍّ بوجود مَنْ تلبَّستْهُ الحَيْرة، لأنني رفضتُ حينها وبلا تردُّد أن أتَّهم أحداً بالاعتداء، لكنني أفكِّر اليوم أنه لا يمكنني، كما لا يمكن سواي، إدراك تصرُّفي ذاك إلَّا بصفته إذعاناً لشعور باللَّاجدوى أو الإحباط.

وتلفتَت حولها، ثمَّ شملتْهُ بنظرة غائمة، متسائلة: لكنْ، مَنْ يجهل هوياتهم، أولئك المعتدين؟

تلاشى شعوره بالشفقة ناحيتها، وخالج صلاح يقين أنها توشك على اتِّهامهم هم، وأخذ يترقَّب شَفَتَيْها تنفرجان ثانية... لكنْ، قَطَعَ ترقُّبه نقرٌ، تلاحق حادَّاً على الباب. ولزمهما بُرْهَة، ليفكِّر كل منهما على حدة، مَن الذي سيزورها، وقد آلت على نفسها أن تعيش في عزلة. فكَّر صلاح إن كان يتعيَّن عليه النهوض وفَتْح الباب، ثمَّ قرَّر أنه لن يبادرَ من تلقاء نفسه. إلَّا أن الأمر انتهى سريعاً، فلم يكن القرع سوى نقر الغرابَيْن معاً لزجاج النافذة بصورة حادَّة. فاجأ نورا كل هذا العنف من مجرَّد طائرَيْن، وخشيت من تهشُّم الزجاج. ثمَّ خطر لها أنها ستتأذَّى فيما لو كانت ضحية غربان في يوم ما. وأمست، في لحظة، الحركات التي يفعلها الغربان، وتعثر فيها على لهو خفيف، ليست سوى تمارين، هكذا تأخذ في النظر إليها، للانقضاض على قَدَمَيْها. كان من السهل على صلاح أن يلاحظ، وهي تُحدِّق في الغرابَيْن بعينَيْن، يملؤهما الهلع، كم أنها تحوَّلت إلى امرأة نهب لهواجس سوداء. ولسبب ما قرَّر الانصراف.

بعد أن اطمأنَّت سناء أن الطلبات الأخيرة للمعسكر في طريقها للتنفيذ بلا تأخير، ثمَّ قالت لصلاح في التلفون ظهر اليوم إنها تريد أن تسهر الليلة. اختاروا مطعماً في إحدى البنايات المُطلَّة على شارع مدرم، المزدحم بالمحالِّ والسَّيَّارات والأضواء. وما إن بدؤوا الكلام واحتساء البيرة

وتناوُل بعض الأطعمة الخفيفة، حتَّى أطلَّ نضال بحضوره مثيراً الارتياب، وفي الحال وقع نظره عليهم، ولم يشحْ ببصره عنهم، وارتفعت إصبعه، وراحت تحكُّ حاجبه الأيمن. مكث قليلاً يطالع فيهم، من دون أن يُركِّز في شخص محدَّد، وجال بنظراته في الزبائن حوله، ثمَّ أعطاهم ظهره شاقَّاً طريقه إلى طاولة أخرى، تنأى بعيداً.

في اللحظة نفسها سيطرت على صلاح فكرة أن يستنتج مغزى ما، وراء ضراوة نضال تجاه سناء، بدت له معاملة كل منهما للآخر، منذ بدايات تعرُّفه عليهما معاً، مُحيِّرة، وتُضمر شيئاً لا يستطيع تجاهله، ولا هو قادر على أن يفهمه بدقَّة. وتساءل عبَّاس كيف عرف بوجودهم هنا، أم هي مجرَّد مصادفة غير متوقَّعة؟ لكنهم لاحظوا أنه فيما يبدو كان على موعد، مع أولئك الأشخاص، الذين لم يلبثوا أن دخلوا بعده مباشرة. وقالت سناء إنهما، نضال وهي، التقيا خلال الأيَّام الماضية في المعسكر، أكثر من مرَّة، ولم يدُرْ أيُّ كلام بينهما حول تلك الحادثة التي طلب فيها من الشَّابِّ العراقي أن يُقبِّل فخذَها. وتكلَّم عبَّاس عن الوفد الذي يرافقه، وقال إن بعض أعضائه يُبدون دهشة من التَّحوُّل السريع إلى الاشتراكية، وأنهم يعتقدون أن تحوُّلاً مثل هذا يحتاج إلى زمن. لم ينظر صلاح إلى عبَّاس عندما كان يتكلَّم. شغله التفكير في الطريقة التي سينقل له من خلالها موقف الأمن منه. ولازمه شعور بالضيق، وسرعان ما أخبره، من دون أن ينظر في وجهه مباشرة، أن يتوقَّف عن مرافقة الوفد، "يوجد مَنْ سيتولَّى المهمَّة عوضاً عنكَ. لن

ترافق الوفود منذ الآن". قال وأضاف مباشرة: أحتاج مساعدتكَ في أمر أهمّ. ورمقه بنظرة بذل جهداً لتخلو من أيَّة ظلال، أنه يُخفي عنه شيئاً. وتكلَّم، مُغيِّراً الموضوع، وذكر أن لا أحد يعرف، أن الروس نجحوا في ثَنْي رفاقنا عن تأسيس حزب شيوعي، ومارسوا ضغوطاً، ليكون الحزب اشتراكياً. والتقط قطعة طماطم، ودسَّها في فمه، وراح يمضغها ببطء، ثمَّ قال لعبَّاس إنه سمع أن الحزب أعطى الشّيوعيِّيْن العراقيِّيْن أرضاً في ضواحي عدن، وسمح لهم بالتَّمرُّن على السلاح، حتَّى يصلهم قرار الرحيل. وتناول عبَّاس، الذي لم يسأل عن سبب قَطْع مرافقته للوفود، وتقبل الطلب، قرن خيار وقضم نصفه، وذكر أنه على علم بذلك، لكنه شكَّك في ما تردَّد عن النظام أنه بات يعتريه الوَهْن، مستبعداً أن ينجحوا على الأرض. وأخبره أن هناك مَن اقترح عليه الانخراط في التدريبات، إلَّا أنه لم يوافق.

البارحة جافاه النعاس. خطر لعبَّاس أن السبب الضوضاء الآتية من التلفزيون، الذي يُشعله زميلاه في الشُّقَّة، فطلب منهما خَفْض صوته، وامتثلا لرغبته. وحاول النوم، ولم يستطع. فكَّر أنها الرطوبة المرتفعة، أثَّرت في مزاجه. لكن ذلك غير صحيح. كان أَرِقَاً بصورة تفوق قدرته على الاحتمال. غادر سريره، واتَّجه ناحية باب الشُّقَّة، وقبل أن يفتحه توقَّع أن تُباغته موجة هواء منعِشة. خاب أمله وهو يفتِّش بعينَيْه الأنحاء حول البناية، كانت الرطوبة تسود في نحو يخنق الأنفاس. صوت راديو يتناهى إليه من حيث لا

يعلم، فأخذ يستعيد بينما خياله ينحت أشكالاً في الظلام، يحيطه من كل صوب، الوقع الذي خلَّفتْهُ عليه الأحداث التي مضت خلال هذا العام 1984 ويوجزها برنامج إخباري، تبثُّه إذاعة عدن: خمسة زوارق إيرانية تتعرَّض للهجوم والتدمير من قبَل القوَّات البَحْرِيَّة العراقية في الخليج العربي. نشر الصواريخ السُّوفيتيَّة RSD-10 في ألمانيا الشَّرقيَّة. انتفاضة 6 شباط في بيروت أدَّت إلى استلام قوَّات اليسار اللُّبنانيِّ وحركة أمل إدارة القسم الغربي من بيروت. قوَّات سرايا الدفاع تحت إمرة رفعت الأسد تتحرَّك لتطويق دمشق. إضراب عمَّال المناجم في بريطانيا. معمَّر القذَّافي يضع حجر الأساس لتشييد النهر الصِّناعيِّ العظيم في ليبيا. اغتيال أنديرا غاندي على يد أحد حُرَّاسها من السيخ.

ثمَّ شعر بغتة بالإنهاك، كما لو كان يمارس أشغالاً شاقَّة. حين عاد إلى الشُّقَّة ثانية، كان زميلاه قد ذهبا إلى فراشهما. أغلق نافذة غرفته، وتمدَّد في سريره، ولم ينمْ.

رفع صلاح رأسه، وقال: قبل يومَيْن التقيتُ، صدفة، رفيقاً قديماً. وأخذ يتفرَّس في وجوههم بغية التَّأكُّد من أنهم غير مشغولين بأمر آخر. كان ذلك قبيل الغروب في قلب الميدان بكريتر، كنتُ قد شغلتُ نفسي بتأمُّل الضجيج وهو يخفت رويداً عند تلك اللحظة من النهار. تعرَّفتُ عليه من الوهلة الأولى، في حين لم يعرفْني هو. وأخذ يُومِئ برأسه، كَمَنْ لا يُصدِّق ما حدث، قبل أن يستأنف الحكي: جمعتْنا لحظات عصيبة في معتقل للإنجليز في ذلك الريف. كانوا

يُمدِّدوننا على بطوننا في نهارات تشبه الجحيم. ويروحون يمشون فوق أجسادنا ببساطيرهم الثقيلة، وأحيانا يبقون وقوفاً، وينخرطون في الكلام الذي كأنَّما لن يحلو لهم سوى وهُم فوقنا، ولا ينزلون حتَّى عند سماعهم لعظامنا تُطقطق أسفل أحذيتهم الخشنة. في خضمِّ الألم الجحيمي كنَّا ننظر إلى واحدنا الآخر، نشدُّ من أزر بعضنا البعض بتلك النظرات، التي كان لها مفعول السِّحْر، حتَّى إننا ننسى أحياناً فظاعاتهم.بدا لي في حال رثَّة، وفي حاجة إلى مساعدة. لم تُسعفْهُ ذاكرته بأن يتذكَّرني، ذلك ما تناهى إلى خاطري، طوال ما كنَّا وقوفاً محاوِلاً دفعه إلى التَّذكُّر، قُبالة معصرة لزيت السمسم، تقع في ركن منزو من الميدان، إلَّا أنني لمحتُ خشية في عينَيْه، فعرفتُ أنه يتذكَّرني. وتساءل صلاح بمرارة عمَّا يجعل رفيقاً له لا يكتفي بأن يُنكر معرفته، إنما أيضاً يخشاه.

مضت لحظة صمت، لم يسمع خلالها أيَّاً ممَّنْ يتحلَّقون حوله، وهو يحاول أن يُجيبه مبدِّداً الشكوك التي تكتنفه حيال نفسه. وكان على حافَّة الشعور بالخيبة، لولا أنه أَنصتَ في اللحظة نفسها لسناء وهي تُخبر الجميع، أنها ستسافر في مهمَّة عمل إلى تونس. وبدت لهم منفعلة، من الفرح ربَّما، وهي تحكي عن الأمور التي ستفعلها هناك بعد أن تكون أنهت مهمَّتها، وكيف أنه ستتسنَّى لها أخيراً فرصة أن تعيش تغييراً ولو بسيطاً في حياتها. وظهر البقية مسرورين من أجلها، وطلب بعضهم أن تجلب له علب حلوى وزيت زيتون.

عندها تناهى إلى، حتَّى البعيدين عن طاولتهم، صوت عبَّاس وهو يتهدَّج طَرَبَاً "يا طير الرايح لبلادي، أخذ عيوني تشوف بلادي"، ثمَّ أخذ الجميع يُرَدِّد وراءه، بينما راحت سناء وقد بلغ تأثُّرها حدوده القصوى، تتمايل بجسدها، حتَّى عثرت على نفسها غير قادرة على مقاومة النظر إلى نضال ورفاقه. وبعيد حين سمعت صلاح يذكر أن أحد الأشخاص الذين يجلس برفقتهم نضال، تردَّد طويلاً أنه كان ضالعاً، مع مناضلين آخرين ألمان وفلسطينيِّيْن، في اختطاف الطائرة التابعة لشركة لوفتهانزا التي أجبرت على الهبوط في عدن، وكانت قادمة من مطار نيودلهي. يومها دفعت ألمانيا فدية باهظة في مقابل إخلاء الخاطفين للطائرة. وأُشيع أنه لم يكن ضمن الخاطفين، إنما مشاركته اقتصرت على التخطيط للعملية مع آخرين.

رمقتْ نضال بنظرة مشفقة، وفكَّرتْ أن تقول لهم،إنها تعرفه منذ تلك اللحظة التي طارت خلالها في مخيَّم شاتيلا. رغماً عنهم يُحدِّقون فيه، يرون فمه منتفخاً بالطعام، شَفَتَيْه ترشفان الكأس تلو الأخرى، نظراته يوزِّعها على الرفاق حوله. بينه وبين نفسه كثيراً ما يفكِّر نضال، في مسافة لم يستطع بعد تقدير زمنها، ولا يعرف سوى أنها تتمدَّد بين لحظَتَيْن مهمَّتَيْن في حياته، بين ما كانه وما آل إليه. في مثل هذا اليوم 28 مارس من كل عام، يتخلَّص نضال من رفاقه، ويختار أفضل طاولة في المكان الذي يُؤمُّه، ويقضي الليل منفرداً بنفسه. لعلَّه يفكِّر أنه عثر في العنف الثَّوريِّ على نفسه، على هويته، وعلى ما يُلملِمُ شظاياه

المبعثرة في المُدُن البعيدة. ربَّما خطر له أن ما يقتل رفيقاً رفعه فعله الثَّوريُّ إلى مصافِّ الأسطورة، ليس غير رفيق آخر، لكنْ، حقير، باع جوهره، واشترى تيهه وتفاهته. ويفكِّر لو أن له رفاقاً خلصاً، كان سيقول لهم، وسيُردِّد ذلك على مسامعهم في كل ذكرى للراحل، الذي آمن بمطاردة العدوِّ في كل بقعة، إنه بكى، ليس كأنَّ المغدور به مجرَّد رفيق استثنائيٍّ، إنما أكثر من ذلك بكثير. كان في منزلة الأب، الذي لم يلتقه سوى في الأحلام، والمُلهِم الذي تدفعه أفعاله في العنف الثَّوريِّ، إلى تقليده. وما شأنه لو أن تقليده انحرف قليلاً. لا يتصوَّر نفسه، وقد انصرف رفاقه، يجلس وحيداً في هذا الليل، يتخيَّل معه ثُوَّاراً من كل جهات الأرض، مناضلين عاهدوه على "أفعال فظَّة" يُنزلونها بعدوِّه وعدوِّهم جميعاً. طالما حلم، قبل أن يجد نفسه يفعل ذلك، بعمليات يتمُّ تنفيذها في عواصم بعيدة، وتقابل بالزهو في مقاهي عدن وباراتها، ويشمّ منها رائحة الإرهاب اليساري، وفقاً للتسمية الإمبريالية.

ستشعر سناء بجوع، فتناولت كسرة خبز، وأخذت تحشوها بقطعة صغيرة من جُبن أبيض، ودسَّتْها في فمها، وتروح تمضغ ببطء، كأنَّما هي مُرغَمة عليها، بينما تحاول أن لا يشغل نضال بالها، وأن تترك السهرة تمتصُّها حَدَّ أن تُحرِّر نفسها من كل شيء.

من جانبه، تلكَّأ صلاح في إخبار عبَّاس بشكوك الأمن ناحيته. رغب أن يُؤجِّل ذلك حتَّى يرى ما يمكنه فعله. وانتظر حتَّى انتهت سهرتهم، وودَّعا سناء، ثمَّ طلب منه أن

يمرَّ به غداً في مكتبه، وأضاف أن لديه أوراقاً وإحصاءات يريده أن يصنع منها تقريراً مطوَّلاً. وهو يطلب منه ذلك، كان يضغط على كل كلمة، حريصاً على أن يترك انطباعاً أنه كلَّفه عملاً في غاية الأهمِّيَّة.

18

في مرَّة سألني: أليس لديكِ غير هذه القهوة المرَّة؟ كنَّا نغرق في ضوء شمعة كبيرة، بسبب انقطاع الكهرباء، ويغطس جسمانا في الرطوبة. كان قد حلَّ جميع أزرار قميصه، وكان يمكنني رؤية خصلات من شَعْر إبطَيْه. لم تكن القهوة مُرَّة، كانت كما أَحبَّ أن يشربها دوماً. طيِّبة، ما تنازل عن هذا الوصف. غير أن مرارة أخرى كانت تُعبِّئ فمه، وتسري في جسمه كله.

خفيضاً، يتناهى صوتها إلى صلاح. تعصب رأسها بشال أنيق، مع عقدة أشبه بوردة. وحكت عندما طوَّقت الحشود المستشفى، الذي رقد فيه جريحاً إثر تمرُّد الجيش، لتحول دون اعتقاله. لم يمضِ حينها وقت طويل على الاستقلال. لم تكتفِ بذلك، إنما زحفت الجماهير إلى منزل الزعيم آنئذٍ، تطالبه بتشكيل حكومة جديدة.

جعلت تُحدِّق الآن في صورة لجياب، يظهر فيها مُمسِكاً بحزمة أوراق، وفمه مفتوح قليلاً كَمَنْ يتحدَّث مع شخص خارج الكادر. وتروح تخاطبه، كأنَّما هو في متناول يَدَيْها: كنتَ تنام غائباً، ليس تماماً، رائحة المرضى التي تنتشر في

المستشفى تُربك غفوتكَ، فتبقى بين اليقظة الواهنة والنعاس. كان هدير الجماهير يحملكَ عالياً. ها أنا أُفكِّر من داخل رأسكَ، الذي لا أقوى على التَّعوُّد أنه بعيد منِّي. يصعد بكَ الهدير سماء قريبة، يطوف بكَ فوق مدينة غافية على أحلام لا تزال بعيدة، وتستعدُّ للحظة ولادة عصيبة، ترى البشر من عُلُوِّكَ صغاراً، لكنْ، بآمال عظيمة. بينكَ وبين نفسكَ تعشق الجلبة التي تصنعها الجماهير أينما وُجدتْ. حتَّى أولئك الذين يقطنون الجبال والقرى والأرياف يلهجون باسمكَ، ويغفرون لكَ أخطاءكَ. أَحبُّوكَ كما لن يحبُّوا أحداً بعدكَ، فيما كرهكَ رفاقكَ، كما لم يكرهوا أحداً قبلكَ. وأنتَ بين أولئك وبين هؤلاء تُدرك مَنْ أنتَ، ولماذا أولئك المعدَمون يهتفون باسمكَ.

مرَّة، قلتَ لهم في هجوم عنيف على انتقادهم ميولكَ للسوفيت، إن انحيازكَ إلى كل ما هو روسي، هو انحياز للكرامة والعدالة والحُرِّيَّة. طالما كنتَ تقول: على يمني الاشتراكية العلمية أن يصنعَ من نفسه عدوَّاً لي، عندما لا يقبل الانخراط في التغيير الكبير باتِّجاه الإنسان. لكن ذلك لم يستمرّ إلى الأبد، فلقد اتُّهمتَ لاحقاً بما اتَّهمتَ أنتَ به سواكَ في يوم ما. كنتَ قد أصبحتَ، فيما بعد، تنزع إلى التَّفرُّد بكل شيء. فقرَّروا التضحية بكَ. لم يُمهلوكَ حتَّى تنتهيَ من تفكيركَ في الاستقالة، بعد أن بلغت اليأس، وتأكَّد لكَ فشل التجربة.

تلتقط السيجارة، وتضعها في زاوية من فمها، وبينما تتملَّى في الصور، وتزوي عينها اليسرى بسبب الدخان، تأخذ

ملامح وجهها تعكس خليطاً مضطرباً من المشاعر. وتعاود الكلام عنه، كأنَّما آمنت أخيراً بنأيه عنها، باستحالة أن يعود ليُمسك بقَدَمَيْها، ويتلمَّس أصابعهما بلطف. آلمه أن يرى رفيقاً يركب سيَّارة فارهة، هي، في الواقع، ليست كذلك، لكنْ، فيما يخصُّ تصوُّر الحزب للرفاه ورسم المسافة اللَّازمة منه، يُعدُّ ذلك سعياً إلى العيش المرفَّه على حساب الفقراء. كان مع المساواة في الحرمان، ذلك ما دفعه إلى تأميم حتَّى ما يُعتبر في المعسكر الاشتراكي إلى الآن ملكية خاصَّة.

لم يشأ صلاح أن يقاطعَها حين تطرَّقتْ لتفاصيل، يظنُّ أنه يعرفها بصورة دقيقة. وتركها تواصل الكلام في ما يشبه الهذيان. لكنْ، مزيد من الكلام عن جياب، يجعله يتردَّى في الحَيْرة، فلم يبدُ عليه أنه عرفه جيِّداً، عندما كان رئيساً لدائرته، ولا عرف أيضاً رفاقه، فهل كانت نورا تفشي حقيقتهم التي غابت عنه أو ضيَّعها هو، على وقع الحماسة، أم هي تختلق كل ذلك لدواعٍ انتقامية؟

ولن يلبث أن ينزلق، رغماً عنه، إلى التغييرات التي داهمتْهُ أمس. لم يتصوَّر أنهم سيرقُّونه إلى مرتبة أعلى، إلَّا أن الوظيفة التي سيتولَّاها قدَّر أن لا أهمِّيَّة لها تُذكَر. وشعر بالحاجة إلى الذهاب إلى الحمَّام. وبينما يتبوَّل نظر في المرآة، وتمعَّن في وجهه، وبدا لنفسه أنه نحيف قليلاً، وعرف أن حياته الوظيفية توشك على النهاية. عاد إلى مقعده، ولم يلتفت إلى نورا، ولا هي فعلت. يعثر على نفسه في حَيْرة، ويهمس لنفسه أنه لا يجهل أن صراعهم لا يدوم

طويلاً. يبقى في حدود ضيّقة، ولا يخرج سوى في هيئة قرارات وتغييرات في مواقع المسؤولين الصغار. بيد أنه أمسى، في الفترات الأخيرة، يخشى أن الأمر لن يعود كذلك، إنما سيفيض ويكتسح الجميع.

ويراها ترفع كوباً مملوءاً إلى منتصفه ليموناً بالعسل، وتأخذ رشفة منه، وينعكس الطعم في هيئة تغضُّنات دقيقة حول فمها. والتفتت إليه من دون أن تنظر في وجهه مباشرة، ولوَهْلَة خشي أن تكون هجست بما يفكِّر فيه، لكنها قالت إنها كانت تقاوم سماكة الحياة بالرقص، اليوم أشعر أن روحي أصبحت ثقيلة، وأنني أترنَّح في محيط من اللزوجة. وأخذت ملامح وجهها تختفي، أسفل طبقة خفيفة من اليأس.

البارحة احتفل مع رفاق سودانيّيْن، في منزل أحدهم، بانتفاضة إبريل، وما أسفرت عنه من تغيير للنظام في الخرطوم. وسمعهم يقولون إن أكثرهم تفاؤلاً لم يكن ليفكِّر أن هذا السقوط كان ممكناً. ودار نقاش، بينما يصغون إلى أُغنيَّة لمحمد وردي، حول الأحزاب الشّيوعيّة العربية وتحرُّر الشعوب، وضرورة إبقاء جذوة الثورات مشتعلة. وفي خضمِّ ذلك، دنا عبَّاس من صلاح، وتكلَّم معه عن التدريبات التي يجريها الشّيوعيّون العراقيون، وقال إن كثيرين انضمّوا للمعسكر. وانتظر قليلاً قبل أن يشير إلى أنه سعى لرؤية بعض المتدرِّبين، وأن الحماسة تأخذهم. وسأله صلاح إن كان حسم أمره بالانضمام إليهم، فلم يردّ عبَّاس بسرعة، ثمَّ قال إنه متحمِّس للمسألة، لكنه يُفضِّل

أيضاً التَّريُّث. وطغى النقاش حول ثورة السُّودانيّيْن على حديثهما، ويسمعان مَنْ يؤكِّد مخاوفه من الانقلاب عليها. وهمَّ صلاح لأن يتطرَّق إلى مخاوف، كثُر الحديث عنها، وإن بشيء من التَّكتُّم، في أوساط رفاقه اليمنيّيْن، ثمَّ تراجع. يجد نفسه حذراً بصورة مرضية. وبلا سبب، لم يعد صلاح راغباً في مواصلة الاحتفال، بغتة تكدَّر مزاجه، ونظر إلى عبَّاس، لينهضا معاً، بيد أن الأخير أراد البقاء قليلاً. وعندها خطر له أنه لن يقدر على إخفاء أمر الأمن عن عبَّاس أكثر من ذلك، فقرَّر على الفور أن يُخبره. ورأه وهو يذوي من الهلع. وأراد صلاح أن يبقى لمواساته، لكنْ، تبيَّن له عبث ذلك، فقرَّر أن ينصرف. فتَّش عن الطريق إلى الخروج، وراح يهبط درجاً قصيراً، لكنه لم يدرِ لماذا بدا طويلاً، وكان كلَّما هبط درجة، شعر بنفسه يسقط في ما يشبه الحفرة. مشى قليلاً بين نباتات وتخلّل أغصان شجرة وارفة. ثمَّ وجد نفسه في الخارج، وكان ظلام خفيف يعمُّ المكان، وهواء فاسد بما يشبه رائحة سمك ميت، ينتشر في الأنحاء.

يوشك صلاح، بينما يُنصِت لنورا، متفحِّصاً الصوت، ومتأمِّلاً درجات الفقد في تموُّجاته، أن يصل إلى كيفية أضحى يعتقد أنها تلائم طبيعة المذكّرات، التي يرى أنه أمسى قريباً من البدء في كتابتها. وباح لها برغبته في أن يطَّلع على صور وأشرطة، ليتقصَّى بعض التفاصيل المهمَّة. لكنْ، ماذا يتعيَّن عليه فعله، بالنسبة إلى ما تقترفه من خلط في ما تنسبه لجياب من مواقف، بعضها لم يكن

هو موجود أصلاً في البلاد عند حدوثها، وليس هو مَنْ تبنَّى قرار التأميم، هذا على الأقلِّ ما يشيعه بعض رفاقه، كما أن الجميع يعرف مَنْ هو الرفيق الذي ترقّد في المستشفى، أيَّام المواجهات مع جنرالات الجيش، قبل أن يفرَّ إلى بولندا للعلاج.

ظهر اليوم هبَّ واقفاً عندما دخلت عليه سناء بزيِّ الميدان، ورحَّب بها بحرارة، فقد مرت أيَّام كثيرة، لم يلتقيا خلالها. يحدث ذلك حين تتحوَّل الاجتماعات الطارئة في الدائرة، إلى العمل الوحيد الذي يقومون به، ويشغل جلَّ وقتهم.

واندفع، كَمَنْ نسي أمراً ما كان ينبغي عليه نسيانه، يواسيها في الشهداء جرَّاء الغارة الإسرائيلية على مدينة حمام الشطّ بتونس، التي قتلت العشرات من الفلسطينيّيْن والتونسيّيْن. أومأت هي برأسها، ولم تقل شيئاً. وسمع صلاح نفسه يقول: ربَّما حدث ما حدث حتَّى لا تفارقيننا، ولو لأيَّام قليلة. وكان على وشك أن يبتسم، بقصد إضفاء نوع من المرح. وسرعان ما كست ملامحه الجدِّيَّة، وهو يقول إنه تمنَّى فعلا أن تسافر، وأن تتعرَّف على بلاد مختلفة ووجوه جديدة.

الحياة في عدن تصبح رويداً رويداً قاسية. أضاف كَمَنْ يعتذر لها.

وكأنَّ شيئاً لم يحدث قالت هي إنها آثرت أن تكون زيارتها للدائرة هذه المرَّة ودِّيَّة، وإنها لم تأتِ لطلب شيء أو لمتابعة طلبات سابقة. ونظر هو بابتسامة خفيفة في وجهها،

ثمَّ في شَعْرِها المبعثر، بسبب القبَّعة التي كانت تضغط عليه، وتخلَّصت منها، بمجرَّد دخولها، ولم يشأ أن يُخبرها بما جرى من تغييرات، قد تطال طبيعة المهامِّ المسؤول عنها.

طلب قهوة وليموناً، واستفسر عن كيف يعاملها نضال هذه الأيَّام؟ وسمع نفسه يقول: لكنْ، لا يوجد مَنْ هو أقرب إليه منكِ. ثمَّ أضاف: أنتِ تعرفينه أكثر من أيِّ شخص آخر، وما أحراكِ بمعاملة لطيفة منه. لازمه الظَّنُّ مؤخَّراً أن شيئاً ما بينهما، معقَّد، ولا يمكنه فَهْمه، قاده إلى ذلك جملة ما كانت تقوله عنه، إضافة إلى استشراسه معها بلا سبب، ظاهر لهم. زفرت هي نَفَساً قصيراً، ومسحت الحجرة بنظرة متمهِّلة، كأنَّما لأوَّل مرَّة تطؤها، وهبطت نظراتها إلى السَّجَّادة القديمة المغبرَّة، التي تغطِّي أرضية الحجرة، ولم تجد أيضاً ما تقوله. وتدريجيَّاً تروح تغرق في الذاكرة، وتحاول أن تطفوَ على جثث ما مضى من أحداث، وتفشل. كان الحذر قد بدأ ينتشر منذ المساء. الجميع ينتظرون انتقام الكتائب عقب مقتل بشير الجميل. ثمَّ كانت الجثث في كل مكان. بعضها ربط بحبال. يتراءى لها مسدَّس كاتم الصوت في كل مكان. كانت عائدة من خارج المخيَّم، فأبصرت أُمَّها تحمل أخاها، وتجرُّ أختها خلفها، فتبعتْهم. قالت لها أُمُّها إنها لم تتصوَّر أن مجزرة ستحدث قدَّام عينَيْها. وأضافت أنها بقيت طويلاً لا تدري ما الذي يحدث، ولا ماذا تفعل، حتَّى بعد أن حذَّرتها إحدى جاراتها، ودفعتْها دفعاً لمغادرة المخيَّم. ساعدت أُمَّها في حمل الأخ

المعاق، وسمعت جارة تسأل امرأة أخرى، متى أسعفهم الوقت، ليقتلوا كل هؤلاء؟ وقالت إنها لم تسمع الرصاص في الخارج. الإسرائيليون كانوا قد تحصَّنوا في البنايات المُطلَّة على مداخل المخيَّم، وأخذوا يقنصون الداخل والخارج. وفي لحظة انهال عليهم الرصاص، وفي اللحظة الأخرى كانت جثث جديدة قدَّام عينَيْها، محاطة بهم، لم تكن سوى جثث أُمِّها وأخيها وأختها. رغم صليل الرصاص وأزيز القذائف نهضت من بينهم، كانت ستلحق بهم، لولا أنها طارت فجأة، أخذت تطير، لا تعرف ما الذي يحدث لها، وتسمع أنفاساً تجهد وأصوات خطوات تركض والبنايات، عن يمينها ويسارها، تراها من المنتصف، نوافذ مغلقة أو محطَّمة الزجاج، أبواب مخلَّعة. ولم تعرف كم من الوقت مرَّ، وهي تحدِّق في وجه شابٍّ، له رائحة البارود يبادلها التحديق، وتجهد في تذكُّر أين رأتْهُ من قبل، بينما يقول: كدتِ تموتين معهم. إذا تساقط مَنْ بجوارِكِ، أُنجِي بنفسكِ، وإلَّا ستكونين في عدادهم. تذكَّرتْ فاجعتَها، وبكت بحُرقة، فوضع يده فوق فمها، بغية إسكاتها حتَّى لا تشي بهما، ويأتي مَنْ يقتلهما. كتمتْ بكاءها، بقي جسدها ينتفض، ورأتْ عينَي الشَّابِّ منطفئَتَيْن، لكن صوته له رنين حادّ.

منذ تلك اللحظة، ستبدأ علاقتها بنضال، الذي تذكَّرت أخيراً يده التي امتدَّت بالرغيف الساخن، في ليلة كانت خارجة من بيت صديقتها قبل أن يبدأ طيران العدوِّ بالقصف. لم يعد لها أحد سوى أختها الكبرى وجَدَّتها، لكنهما بعيدتان

عنها الآن. لم تكن تعرف إلى أين تذهب، فأجبرها على مرافقته. ثمَّ عثر لها على بيت مهجور. وكان يأتيها بين حين وآخر بأرغفة وماء للشرب، وحيناً بفاكهة معطوبة أو خضار ذابلة، وكانت لا تعرف كيف تتقبَّل منه كل ذلك. تتذكَّر كيف وضعتْها ظروف بيروت حينئذٍ قدَّام نضال. مرَّتَيْن ينقذها، ولم تدرِ هل كان يتعقَّبها منذ أوَّل مرَّة رأتْهُ فيها، أم أنها مصادفات الحرب؟

رنَّ الهاتف، فالتقط صلاح السَّمَّاعة. وسمعتْهُ سناء يحاول تهدئة المتكلِّم في الطرف الآخر، ويقول له إن لا شيء يدعو إلى القلق، ثمَّ طمأنه أنه سيتحرَّى حقيقة ما حدث. أعاد السَّمَّاعة، وبدا مستغرباً من التَّطوُّر السريع في الموضوع، وبدا أن المسألة آخذة في التعقيد، أكثر ممَّا جال في باله. وانتبه لسناء تقترح بينما تدفع كوب الليمون الفارغ ناحية قدح القهوة الذي برد، ولم يمسّه صلاح، أن يخرجا في سيَّارة من سيَّارات الدائرة لساعة أو ساعَتَيْن. ونظر هو بلا مبالاة في أصابعها، طويلة وبيضاء بأظافر مقلَّمة، وبلا طلاء، تتلمَّس حافَّة طاولة المكتب، ورأى شعيرات صغيرة شهباء تنتشر على ساعدَيْها العاريَيْن، أسفل طيَّات كُمَّي السترة. ثمَّ قال: فكرة ممتازة، لطرد الملل. ونهض، في حين كانت هي قد سبقتْهُ إلى الباب.

أرخت الزجاج إلى يمينها، ودسَّت أصابعها في شَعْرها، وأخذت تتخلَّله فيما كان يتطاير في الهواء، يندفع أكثر كلَّما زاد صلاح في سرعة السَّيَّارة، حمراء من طراز فيات. وانعطفت السَّيَّارة إلى طريق، تعرَّجت بهماحتى بلغا سوق

السمك، وتركاه خلفهما، لكن رائحة السمك بقيت تطاردهما لفترة، ثمَّ أخذا يبحثان عن مكان للسَّيَّارة قريباً من البحر. خرجا وسارا قليلاً حتَّى حاذيا كشكاً صغيراً، يبيع علب مياه غازية ومرطّبات، ابتاعا زجاجَتَيْن، ومضيا ينقلان أقدامهما بين حجارة ملساء مبتلَّة، إلى أن وصلا صخرة كبيرة، فَصَعِدَ هو أوَّلاً، ثمَّ ساعدها، وجلسا متلصقَيْن. حلَّ هو زرارين من سترة السفاري، وظهر نصف صدره عارياً. اكتفت هي بمسك أطراف سترتها بأصابعها، وسحبها إلى أسفل، ليتخلَّل جسمها الهواء، يأتيهما في موجات قوية. ولمح، بغير قصد منه، نهدَيْها يفيضان إلى الأمام، وشمَّ رائحة جسدها.

سألها عن المعسكر، وكيف تُمضي أمورها فيه. وبينما شَعْرها يتطاير حتَّى يكاد يلامس عينَيْه، فيزوغ عنه قليلاً، سمعها تقول إن كل شيء يسير بالرتابة المعهودة. شربتُ من قنِّينة المرطّبات، وأنصت لشَفَتَيْها، تُصدران أصواتاً، إشارة إلى تلذُّذها بطعم المشروب، ثمَّ تطرَّقت لنضال، وذكرت أنه أخذ يستشرس أكثر، كلَّما عرف أن بعض رفاقه الذين يساوونه في سنوات الخدمة، تمَّ ترقيتهم، وإرسالهم إلى عواصم أوروبية في مهمَّات، وأحياناً من دون. وأضافت أنه قابل ذلك بالغرق في الملذَّات، والمطالبة بزيادة حصَّته من كل شيء. وأنه يجأر عند كل سَكْرة باللعنات على عدن وفقرها ومناخها الجحيمي. لكن نبرة صوتها بدأت تدريجياً ترقُّ، وتتحوَّل من التَّذمُّر إلى شيء يشبه التعاطف، محاولة العثور عن تبرير لما آلت إليه

أحواله، فذكرت أنه كان أكثر انطواء على نفسه، بعد أن خرجوا من بيروت. وأنهم كانوا يخشون عليه من السقوط في الاكتئاب واليأس، غير أنه فاجأهم بانفجار كَمِّ الشَّرِّ، الذي لا أحد يعلم أين كان يُخبِّئه. لكنْ، مَنْ منَّا لم يتعرَّض لاختبارات عنيفة ورهيبة؟ تساءلت بصوت خفيض. مَن الذي لم يتعثَّر، فيما يسير بخطوات مسرعة خائفاً خلال ليل أسود بلا إنارة، في جثث أو أشلاء لنساء وأطفال، تمَّ قَنْصهم من بعيد، في غفلة منهم؟ صمتت قليلاً، ثمَّ قالت: أنا أيضاً أشتغل وأكدُّ وأشعر أن في جوَّاي مفاجآت في القدرة على التَّحمُّل، وأن بين ضلوعي روحاً قتالية تتضاءل أمامها أهوال الأرض كلها. كم فكَّرتُ أن لا أكون الأدنى منه.

لبث صلاح يُنصِت لصوتها تُخالطه نبرة أسى. وطاشت نظراته في الأنحاء، فرأى فيلَّا بدت واسعة بأسوارها المترامية، تطلُّ من فوق تلٍّ على بقعة عذراء من الشاطئ، تنأى عن تطفُّل الآخرين. وفجأة وبضغط ممَّا قد يقع له من ارتباك في حياته، نتيجة التغييرات الجديدة، رغب أن تتوقَّف سناء عن الكلام، وأن تتركه وحيداً. ومع ذلك وفيما يروح يحدِّق في المنظر أمامه، خطرت له مرَّة أخرى العلاقة الغريبة التي تشدُّهما معاً، نضال وسناء، وتناهى إلى باله أنها ليست بين ضحية وجلَّاد، إنما بين عاشقَيْن، تشدُّهما أواصر من الصعب أن تتلاشى تحت أيِّ سبب. وبدا له هذا العشق، إذ صحَّ حدسه، غريباً وغامضاً ووحشيَّاً أيضاً، فكيف يأخذ في إذلالها ويقسو عليها، بل

وأن يطلب من شخص غريب أن يُقبِّل قطعة من جسدها، مثلما حدث تلك الليلة، على مَرأى من الجميع؟

ومن دون مقدّمات، أخبرها أن عبَّاس هو الذي اتَّصل به، عندما كانا في المكتب، وأن لديه مشكلة مع الأمن، تتعلَّق بالوفود الأجنبية التي كان يرافقها، وهم لا يريدون أن يتفهَّموا ذلك. وقال إنه حاول أن يُوسِّط شخصاً نافذاً، لكنه لم يستطع فعل شيء. وتوقَّع أن تقول شيئاً، وأن تبادلَه القلق، بيد أنها راحت تراقب سرب طيور، تخبط بأجنحتها، في طيران رائق مع ارتفاع تدريجيٍّ، ثمَّ كأنَّما جمدت فوق ذرى التلال الجرداء، البعيدة عنهما. وركَّزت نظراتها لثوانٍ غير مصدِّقة أنها لم تختفِ. لكن الطيور تأخذ في التلاشي رويداً، ثمَّ لن تعود تراها. ورآها صلاح ترمي علبة المشروب الغازي بعيداً، وراقب معها موجات صغيرة راحت تؤرجح العبوة الفارغة، تجرفها بعيداً حتَّى نأت عن ناظرَيْهما.

وهما يمشيان صوب السَّيَّارة، ناشدتْهُ أن ينضمَّ إليهم في شاطئ قولد مور، يوم الجمعة المقبل، حيث سيسبحون ويتناولون طعام الغداء. وقالت له وهي تتظاهر بالمرح، كي تدفعه إلى المجيء، إن نضال لن يكون موجوداً. وهزَّ رأسه بينما يدير محرِّك السَّيَّارة علامة الموافقة، غير ناسٍ أنها لم تُعلِّق حتَّى بكلمة عن مشكلة عبَّاس مع الأمن، وكان قد أدرك أن مرحها ذلك ليس سببه أن نضال لن يكون موجوداً، إذ في هذه اللحظة فقط تأكَّد له أنها مُغرَمة به، وربَّما، تتلذَّذ بقَهْره لها.

19

كيف سيتراءى لي بعد كل هذه الأعوام على اختفائه؟ ما الذي ستكون عليه هيئته؟ أخمِّن أن صوته لم يعد كما قبل جَهْوَرِيَّاً، ربَّما سيعتريه الوَهْن. وتحدِّق في تطريز، له هيئة مثلَّثات صغيرة حمراء، على التَّنُّورة الضَّيِّقة إلى ركبَتَيْها، ثمَّ تنفلش مثل المظلَّة فوق ساقَيْها، مُخبِّئة قَدَمَيْن ما عادت تعتبرهما جزءاً من جسدها، عدوَّة لها على الأرجح أصبحت. انشغلتْ بحَكِّ الخيوط في أحد المثلَّثات بظفر إصبعها، كأنَّما تزيل شيئاً علق فيها، وعاودت الكلام. سأتخيَّل كتفَيْه العريضَيْن، وقد تهدَّلا قليلاً. ذلك الجموح فيه سيفقده، وسيتبدَّل خمولاً.

صوتها يبلغه عميقاً، وتارة غير واضح، وهي تُمنِّي نفسها بعودة جياب في القريب العاجل. كأنَّما الصوت يأتيه من قبو، أحد تلك الأماكن التي حكت، نقلاً عن جياب، أنهم يختارونها لمحاكمة أحدهم، بعيداً عن مقارِّ الحزب، وفي مَنأى عن محكمة الشعب العليا. ويُذاع الخبر من الراديو في المنزل، حيث يقطعه صوت ضجَّة صغيرة، يصدر من المطبخ، أو رشَّاش الماء في الحمَّام، وربَّما أصوات المارَّة أسفل الشبابيك المفتوحة. في المقهى، خلال ضوضاء الزبائن وحركة النُّدُل. في دكاكين الحلاقة، في محالِّ القماش، في سوق السمك. في مكاتب لجان الدفاع عن الثورة. في أمن الدولة، حيث الموظَّفون يتكاثرون من دون عمل. سيعرف الجميع مصير المحكوم عليه، قبل حتَّى

نطق الحكم وتنفيذه، الذي يكون فوريَّاً، وربَّما يترك إلى بضع سنوات لاحقة، بلا علْم من أحد أن الحكم لم يُنفَّذ، فيما يبقى المكان الذي يُخفون فيه المحكوم، مجهولاً.

ولا مرَّة رأت عليه آثار فزع، تتذكَّر الآن، جرَّاء قساوة الحكم على رفيق له. لا تتوقَّع أن يجثو جياب على إحدى ركبَتَيْه، ويطلب الغفران من أيٍّ كان. محال أن ترى تأثُّراً في عينَيْه، لأنه فَقَدَ شخصاً، شاركه حمل البندقية، وصاغ ضمن آخرين مبادئ الحزب. جملة واحدة ما انفكَّ يُكرِّرها، بينما كان يُحدِّق في بعض صوره المعلَّقة، التي انتقى شخصيَّاً بعضها بعناية شديدة: لا تخاذل مع الخَوَنَة، عملاء الإمبريالية. إذنْ، كيف سيكون مصير شخصية بهذا العنف العقائدي؟ ما العقاب الذي سيُقرِّرون أنه يستحقُّه، إذا لم يكونوا قد قرَّروه سلفاً قبل حتَّى أن ينجحوا في دفعه إلى العودة من المنفى؟ وتمضي قائلة إنهم ربَّما قد بدؤوا بهذا العقاب، حين أخذوا بأساليب مختلفة في دفع الجماهير لأن تكرهه، فتحوَّل ذلك التقديس من جانب الحشود التي كانت تجتمع على خطاباته إلى كراهية؟ هكذا لعلَّها كانت البداية، قبل أن يأخذ طريقه إلى نهاية غامضة.

أدنت اللحظة التي سيُخلون فيها سبيله أم بعد؟ ما الذي يحول بيننا، هو وأنا، وبين أن نستأنف حياتنا ثانية، كما نهوى؟

تساءلت بصوت له نبرة رفيعة. ونعق الغراب فجأة لمرَّة واحدة، ثمَّ ما لبث أن ملأ النعيق جوَّ الحجرة. وتحاول هي

تجاهله وإهمال الهواجس التي يُثيرها فيها، فلا تستطيع. حوَّلت رأسها، وحدَّقت فيه، فيما هي تهوي على وجهها بالمروحة، طرداً للحَرِّ. في الأثناء يستسلم صلاح، مرغَماً، لهواجس جديدة، تستولي عليه. الرئيس الجديد الذي حملتْهُ التغييرات للدائرة لا يريده أن يقترب منه، طلب لقاءه، فتعذَّر بالانغماس في مشاغله الكثيرة. لم يُجرِّب صلاح النَّبْذَ من قبل، ولم يختبر إحساس المُبعَد. سيُذعن لهم بالتأكيد، لكنْ، هل سيكتفون بهذا العقاب أم عليه انتظار أشياء أخرى؟ ويغوص عميقاً في داخل نفسه.

رفع رأسه، ومرَّة أخرى يرى تلك الظلال تُعكِّر وجهها، فيما تمرُّ بنظراتها على اللوحة نفسها لشاجال. لم ينفكّ ذلك المساء يُبهظ ذاكرتها، يُعاوِدها بمنظرهم، أولئك الأشخاص، يجهدون في تخطِّي أكوام الثلج، تغطِّي الطريق إلى بيتهم، بأنفاسهم وهي تتحوَّل أبخرة سميكة، تتمزَّق تدريجيَّاً قدَّام وجوههم. برائحة حساء كثيفة تلفُّ المنزل الصغير. بخروجه عليهم مرتدياً كنزة خمرية اللون، بياقة عريضة، تحتها قميص كحلي بمربَّعات بيضاء صغيرة. في ذلك المساء في موسكو صبَّ الشراب، وقدَّم ثلاث كؤوس لهم. اثنان التقطا كأسَيْن، وشرعا في الشرب، بينما اعتذر الثالث، فقدَّمت له طبقاً من حساء البورش، المكوَّن من مرق لحم العجل والملفوف المخلَّل. وكان قد سرح قليلاًوهم يسوقون الحجَّة تلو الأخرى في سياق شرحهم للحاجة إليهم في البلاد، وأنه، بالتالي، لا مفرَّ من عودتهم جميعاً. كان يفكِّر أنه لم يكن اعتاد العيش في روسيا كبلاد دائمة له، إلَّا

أنه، في الوقت نفسه، كان قد خلُص إلى استحالة العودة، وأن لا جدوى من خوض التجربة مرَّة ثانية. لكنهم نجحوا في إقناعه، لم يدرِ كيف حدث ذلك، وما صدَّق أنه عاد.

شَخَصَتْ ببصرها إلى اللوحة، كأنَّما تلومها، لأنها تُذكِّرها في كل لحظة، بما جرى في ذلك اليوم الذي اشترتْها فيه، وأنه لولا إذعانه لطلبهم، لربَّما لم يحدث ما حدث له ولها لاحقاً. ثمَّ عادت لتنظر صوب صلاح، وتقول: في الواقع، لم نعد نحن فقط، آخرون عادوا أيضاً من صوفيا ومن بون وبكين ووارسو وبراغ، كانوا قد تشتَّتوا في المنافي، بقرارات إبعاد مجحفة. عاد الجميع، لكن الحال يتفاقم.

لم تقلْ لصلاح إن الرجل الذي فتن الروس بحماسه الثَّوريّ، كان يتذكَّر في تلك اللحظة من زمن سيبدو بعيداً، وهو ينظر ناحية زوَّاره الثلاثة دون أن يخصَّ أحدهم بتركيزه، ثمَّ يحوِّل نظراته ويحدِّق بتصميم في تمثال لماركس وآخر لبوشكين، يتجاوران الجلوس على الحافَّة العريضة للمدفأة، كيف أرغمه رفاقه على مفارقة البلاد، من دون أن يقولوا كلمة واحدة. فقط ناولوه ورقة صغيرة، لم يعثر فيها سوى على سطر واحد: أين تريد أن تكون وجهة السفر؟ ففهم يومها أن عليه أن يغادر. وأدرك جيِّداً أن الخيارات محدودة أمامه. كان ذلك في نوفمبر من ذلك 1980، فلم يفكِّر يومئذٍ كثيراً، ولم يكتب شيئاً في الورقة، قال فقط: سألحق بالثلج قبل أن يذوب. يعرفون، كانوا على يقين من ذلك، أنه لن يختار غيرها، موسكو. تذكر جياب حينها كل ذلك، وتوقَّف عند تفصيل صغير، وهو أنه لم

يداخله الشَّكُّ في أن عرض رفاقه كان صادقاً، ولا خداع فيه. أيقن أنهم جادُّون في ذلك إلى الحَدِّ الذي لو رفض، فسيفعلون ما أجبروه على أن يفعله بالآخرين.في لمح البصر، تراءى له حينها، الرفيق الذي فاوض اللورد شاكلتون وجهاً لوجه، بعد سنوات من كفاح عنيد، وانتزع منه استقلال بلاده، ليموتَ بعد أشهر قليلة يائساً ووحيداً في حبس انفراديٍّ. ثمَّ رفيقاً آخر، لم تُحبّ الجماهير أحداً بقدره، أُعدم في لحظة شابَها حماسٌ عقائديٌّ، منقطعُ النظير.

يُنصِت صلاح، ويُحدِّث نفسه إنها تتكلَّم الآن عن الرفيق سهيل، رئيس الدائرة الخاصَّة، فهو مَنْ كان في موسكو مَنفيَّاً باختياره، وليس جياب. يُحدِّق فيها، ولا يدري هل يُصحِّح لها أخطاءها، أم يشفق عليها، إذ يظنُّ أن حالتها تسوء، بسبب آلام قَدَمَيْها التي انتشرت في جسدها كله؟ إذا لم تكن تختلق هذه الحكايات، فهي أمست تحكي عن شخصيات عديدة، كما لو أنها شخصية واحدة، دونما اعتبار لاختلاف شخصية عن أخرى، ولمقدار نفوذها. لكنْ؛ في حالته ككاتب لمذكّراتها، أيّ طريق يتعين عليه، هو الذي لم يسبقْ له أن جرَّب كتابة حتَّى صفحة واحدة كمذكّرات أو يوميات، أن يسلكه وسط تشابك هذه الشَّخصيَّات وتداخلاتها؟

ينظر إليها ويراها تتشمَّم الآن رائحة العطور، تنتشر حولهما بطريقة بدت لصلاح كَمَنْ يتفحَّصها عطراً عطراً، تُنقِّي رائحة من أخرى، للتَّأكُّد أن رائحة بعينها لم تُقحم

نفسها بعد في هذا الخليط. أصبح في مقدور صلاح الادِّعاء بتخمين السِّرِّ وراء انتشار الروائح في منزلها، يفكِّر في ذلك بينما يرى يَدَيْها مبسوطَتَيْن إحداهما فوق الأخرى، ظَهْرها مشدوداً، وصدرها في اندفاعة خفيفة للأمام، فيما وجهها يميل باتِّجاه صورة لها، مع زميلَيْن في الفرقة يعتلون مسرحاً، ويظهر أنهم للتَّوِّ انتهوا من رقصة.

اليوم أجده مُحقَّاً في كل ما كان يُردِّده عن نفسه.

يقتحم صوتها المنطقة المعتمة في تفكيره، ويعيده إليها كلَّما سرح قليلاً، متفكِّراً في أحوالها. تنظر إلى الصور، كما لو أنها تحاول التَّشبُّث بقشَّة، فلا تغرق في صمت مطبق، تجهد، بكل ما تستطيع من حيل، في مقاومته. وتعود رائحة العطر، لتجذبَ صلاح إلى نقطة بعيدة عن كل ذلك. طغيان الرائحة يحتلُّ تفكيره في نحو مُلحٍّ، كأنَّما فجأة سيقوده إلى أسرار أخرى. فما بدا له ميل أُنثوي للروائح الجذَّابة، سيحلو له أن يعتقده الآن تمويهاً بقصد طَرْد الانتباه، وليس شدّه إليها. بهذا الخليط القوي من الروائح، يخلص إلى أنها تعمد إلى التشويش عليه هو، وأيَّاً ممَّنْ سيتصادف وجودهم في منزلها، فلا يتنبَّه لرائحة أخرى، لم تكن قد بدأت تفوح في الأرجاء. يتصوَّر أن نورا كانت تتحيَّن ذلك. تترقَّبه، وتحاول الاستعداد له بمقادير من الحيل، لن تلبث جميعها أن تؤول إلى الفشل، فتُسفر الرائحة التي تخشاها، وترى فيها تهديداً لهويتها، التي بَنَتْها هي، وساعدها هو، ذلك الرجل الذي أُخفي عن الأنظار. ويتخيَّلها تقول لنفسها حتَّى

قبل أن يحدث ما تتحسَّب له، منذ زمن ليس بعيد: "يا لها من رائحة فظيعة، تأخذ في ابتلاعي".

كان قد جاء اليوم، وقد عزم على إخبارها، بما سمعه من أحد الرفاق صدفة، أنهم قد يصادرون المنزل الذي تقطن فيه. وما إن تفوَّه بذلك حتَّى رآها تهيج، مثل حيوان شرس يجري ترويعه، وتمنَّى لو أنه لم يقدر على قول ذلك.

"جبناء، جبناء". كانت تصرخ.

أخذ هو يُهدِّئ من غضبها، قائلاً إن ذلك ليس أكيداً، إنما مجرَّد إشاعات. بيد أن ذلك كان بلا فائدة. وشاء أن لا يتركها في حالتها هذه، غير أنه وعلى وقع التغييرات التي جرت، شعر بعدم رغبة في أن يمكث وقتاً أطول.

بينما يأكلان خبزاً وفاصوليا، ويحتسيان شاياً برائحة الهال، في مقهى صغير يقع في مواجهة سينما مستر حمُّود سابقاً، لم يدرِ صلاح ماذا يقول لعبَّاس في مشكلته مع الأمن، كان اعتبرها في لحظة من لحظات حسن النوايا، التي اعتاد أن يواجه بها مشاكله، مجرَّد لبس لا أكثر، لكن المشكلة تطوَّرت وأصبحت غير مفهومة. بيد أن عبَّاس بادر وقال إنه طلب من ممثِّل الحزب الشّيوعيّ العراقي معرفة أصل الموضوع، وأن الأخير عاد إليه بعد مراجعة الدائرة المَعنيَّة، مؤكِّداً أنه واقع في ما يشبه الورطة الحقيقية. وأضاف أنه لا يستبعد وجود تقرير كيدي ضدَّه، وقال له إنهم سيبذلون جهوداً لإيجاد حلٍّ، بيد أنه عبر عن عدم تفاؤل بالنتيجة.

منذ اللحظة التي فجعها فيها صلاح بأن الأمن يفتِّش عنه، أضحت هواجس عبَّاس أكثر ضراوة. تخيَّل نفسه مؤخَّراً يعبر شارعاً غريباً في الليل. تنطفئ الأنوار، فيلج أزقَّة بإضاءة شحيحة. يبدأ خوفه يكبر، ويروح يُنصِت لدقَّات قلبه تتسارع، لأنفاسه تضيق، لخطواته تتعثَّر، وبدت قَدَماه مقيَّدَتَيْن. وبينما يتوقَّع الضربة تأتيه من الخلف، في النحو الذي صوَّرتها له طويلاً كوابيسه الرهيبة في أوقات خلت، يتفاجأ بها تنزل عليه في الوجه مباشرة، سيتهاوى إثرها، وستبقى رائحة المباغتة عالقة في أنفه، أكثر وحشية من ضربة الموت نفسها.

ورغب صلاح في تغيير الموضوع، إذ بدا له أشبه بكابوس رهيب يعيشه الاثنان معاً، فسأل عن التدريبات والمعسكر، فقال له عبَّاس إنه انخرط في متابعة أخبار التدريبات من بعض الرفاق، وذكر أنه ليس من ساعات محدَّدة للتدريب، فهم يتدرَّبون في النهار، وأحياناً في الليل، كأنَّما الوقت يطاردهم. وأخبره أن عدداً منهم بدأ يستعيد، تدريجيَّاً، خبرته في التصويب على الأهداف. وقال عبَّاس بنبرة لا تخلو من حماسة: التصويب وفَّر لهؤلاء متعة مؤقَّتة، أن ينتقموا ممَّنْ يريدون، ولو في صورة وجه، لواحد من تلك الوجوه التي نكَّلت بهم، يتخيَّلونه بديلاً عن الهدف الذي يقف غير بعيد أمامهم، وخلفه تلال وأرض مقفرة.

صلاح الذي يُنصِت لعبَّاس، ويتلمَّس شهوته للانتقام، ولو من خلال رفاق آخرين، سيحاول جذبه إلى ما يقلقه، فأخبره أن ليس لديه فكرة، عمَّا ستكون عليه أحواله غداً،

أو ما إن كان في مستطاعه الموافقة أم لا على وظيفته الجديدة التي لا معنى لها. وحكى عن طائفة من الأفكار المعقَّدة أخذت تطوّقه مؤخَّراً. وقال إن استئناف حياته كما كانت أمر صعب. وتنبَّها لصوت الراديو يذيع خبراً عن وفد سيسافر إلى موسكو، لتهنئة الرفيق ميخائيل غورباتشوف باختياره الأمين العامّ للَّجنة المركزية.

ينهض صلاح وهو يقول إنه يريد السير قليلاً. وما إن خطا خطوَتَيْن حتَّى لحق به عبَّاس. تركا الشارع الرئيسي، وفضَّلا تخلُّل الأزقَّة. وسارا طويلاً في الليل قبل أن يتكلَّم عبَّاس، ويذكر أن الرسائل لم تعد تصل من بغداد، فعرض عليه صلاح أن يقوم أحد من رفاقهم هناك بالاطمئنان على أهله، فرفض عبَّاس خشية عليهم. حتَّى ندى، حبيبته، آخر رسالة وصلتْهُ منها كانت قبل حوالي ثلاثة أشهر، يتذكَّر عبارات وجملاً منها، "لا يوجد سوى العيون، عيون تُحدِّق فينا صباح مساء، عيون تُحوِّلنا إلى متَّهمين من دون تهمة فعلية أو مخلوقات تثير الشفقة. أصحو وأستيقظ على تلك العيون، تثقبني نظراتها، تُحوِّلني إلى غربال، أشعر أنني أمشي عارية تحت نظراتهم." لكنه ومثل عادته معها يجد في كلامها خيالاً جامحاً، لوحة من تلك التي تجيد رسمها. ومع ذلك سرح في ما لا بدَّ أنها تعانيه الآن، هي وأُمّه، وعاودتْهُ الكوابيس. خطر له أن يعمل مثل بعضهم، يفتِّش عن أصدقاء يقيمون في الكويت، يذهبون إلى العراق، ثمَّ يعودون، تُرسل الرسائل إليهم، ثمَّ يقوم هؤلاء بتوصيلها مباشرة أو خلال وسطاء آخرين، إمعاناً في التمويه. لكن

الرسائل تصله من أصدقائه الذين أقاموا في الأردن، ثمَّ رحلوا مع الفلسطينيّيْن إلى بيروت، وبقوا هناك حتَّى هذه اللحظة. رسائلهم محمَّلة أيضاً بالمخاوف.

وعاد صلاح ليتكلَّم عن رئيس الدائرة، وأنه غير قادر على التفكير لتفادي نتائج أكثر سوءاً. في حين يجهل عبَّاس كيف يتعيَّن عليه مواساة صاحبه، فكلاهما يواجه مصيراً غامضاً، واكتفى فقط بأن ربَّت على كتفه، بينما يمضيان متحاذيَيْن جهة الساحل. يكذِّب عبَّاس على نفسه، يخادعها عندما يقول لها إنه جاء هنا، ليعيش حلماً يتحقَّق، في بلاد تخرج من النَّظريَّة وكُتُب العقائديّيْن الماركسيّيْن. يغشُّ نفسه عندما يحاول تجاهل ما يحدث هنا، بين حين وآخر، من صراعات. يقول لنفسه لا بدَّ من ضحايا، البلاد العظيمة لا تنهض من دون تضحيات، دماء قليلة ضرورية، ليقف البلد على قَدَمَيْن. وسيعود ليفكِّر في ورطته مع الأمن، ومَن الذي دبَّرها له، وأنه على الأرجح لم يعد شخصاً مرغوباً فيه. وفي واحدة من اللحظات التي لم يعد يستطيع الكذب فيها على نفسه، سيفكِّر ببغداد، وأنه فرّ فرار الجبان، تاركاً حبيبة هناك وأُمَّاً طاعنة في السِّنِّ. فرَّ بجِلْده في لحظة رعب، لا يقدر أن يتخيَّل أنها ستحدث له ثانية.

والتفت وحدَّق في صلاح، خلال الليل، وشعر بهبوب وشيك لعاصفة، وسمع نفسه يبوح له أنه ما فكَّر أن يغادر عدن، لكنْ، حتَّى إن خطَّط للرحيل، فإن جواز سفره لا يُسعفه. ورفض صلاح أن يُصغي إلى كلامه عن الرحيل، وهزَّ رأسه بالنفي، مطالباً إيَّاه بالتَّريُّث. وسأله عبَّاس: مَنْ

يضمن أن حياتي ليست في مَرمَى الخطر، فجأة أصبحتُ موضع استفهام أمني، ثمَّ إن كل شيء في هذه المدينة يُنذر بكارثة؟ وحوَّل صلاح بصره إلى ناحية أخرى، عاجزاً عن قول شيء، ليس متأكِّداً منه.

أن يتحوَّل موضوعاً لاستفهام أمني، هو ما لم يتصوَّر عبَّاس إطلاقاً. هو الذي أَحبَّ هذه المدينة حتَّى قبل أن يراها. منذ اللحظة التي عرف أنه في ورطة مع الأمن، وهو يبدو لنفسه كَمَنْ يتقدَّم في مجهول، وأن لا جدوى من أيِّ شيء يقوم به. وفَقَدَ تدريجيَّاً القدرة على المضي بعيداً في الأحلام. بلا عواطف صار يتعامل مع كل ما يواجهه. ويُرعبه أن يتحوَّل إلى مؤذٍ، ليس لنفسه، إنما للآخرين. كم راقب نضال طويلاً، كم أخذ يشرح للبقية كيف يمكن أن يتطوَّر القهر، ويصبح شرَّاً طليقاً. انعطفا إلى شارع ضيِّق ومظلم، سلكاه وسارا مسرعَيْن لتخطِّي الظلمة، حتَّى حاذيا سوق الخضار، حيث يمكن رؤية الناس في النهار وهم يقفون في طابور طويل لشراء الطماطم والبطاط والبسباس والبصل الأخضر، بشلنات قليلة. تركا السوق خلفهما، وبينما يراقبان دورية راجلة من عسكريَّيْن اثنَيْن، يحمل كل منهما عصا ويتجوَّلان، توقَّف بجوارهما باص تابع لمؤسَّسة النقل البرِّيِّ، وأنزل ركَّاباً متأخِّرين.

توغَّلا في طُرُقات جانبية مغبرَّة، يُصغيان فقط لضوضاء تنبثق عن المنازل المفتوحة أبوابها ونوافذها، أو من الدكاكين قليلة الزبائن. وراحا من جديد يتخلَّلان الأزقَّة الصغيرة، حتَّى تلقَّفهما شارع طويل، تُنيره نجوم السماء.

هبَّت رياح خفيفة محمَّلة بروائح ملوحة وأطعمة فاسدة ونفايات تنتشر في الزوايا، عندما انعطفا إلى شارع جانبيٍّ بضوء شحيح، يفيض من نوافذ البيوت. سارا طويلاً، ثمَّ تركاه خلفهما، وتخلَّلا طريقاً ضيِّقاً على ضفَّتَيْه منازل، كان يقطنها عمَّال المرفأ قبل الاستقلال، وواصلا السير مخترقَيْن أزقَّة أخرى مظلمة، وتخطَّيا المركز الثَّقافيَّ السُّوفياتيَّ، ورأيا إعلاناً عن مناسبة ثقافية سيتحدَّث فيها أستاذ رقص البالية السُّوفياتيّ روبرت غربوجسيان، الذي يذكر الإعلان أنه جاء لدراسة الرقص الشَّعبيِّ وتسجيل الموسيقى اليمنية. وتخلَّلا حارات قديمة، لا تزال بيوت بعضها، تحتفظ بطابعها الهندي، وتعرَّفا وسط الظلام على أشخاص، دفعتْهُم الرطوبة الخانقة إلى النوم شبه عراة خارج البيوت. ولجا زقاقاً ضيِّقاً، وأخذا يتلمَّسان طريقهما فيه ببطء، حتَّى أفضى بهما إلى ميدان خالٍ، عثرا في ركن منه على مقهى صغير، فجلسا وطلبا شاياً، ولم يشرباه. إلى أعلى على يسارهما غربان، تجثم في سكون، فوق شجرة أحرقتْها حرارة صيف، يكاد لا ينتهي. يمرُّ بائع ليمون قدَّامهما، يجرُّ عربته بمشقَّة، يمضي قليلاً إلى اليمين متفادياً كلاباً نائمة، ثمَّ يتوقَّف عند بائعين متجوِّلين مثله. يرونهم وهم يدخلون في ما يبدو نقاشاً مهمَّاً، حركة أجسادهم تشي به وهي تتطوَّح يميناً ويساراً. ثمَّ أَنصتَا لأُغنيَّة لبنانية كلماتها لشاعر فلسطيني، تُبثُّ من إذاعة عدن، عن المقاومة والوطن والجندي الذي في جعبته وردة. ولم تتلاشَ الهواجس القاتمة التي تملؤهما. وقبل أن تنتهيَ

الأُغنيَّة، نهضا وراحا يسلكان درباً طويلاً، ثمَّ تفارقا في نهايته.

20

تتكلَّم نورا، وترمق صورتها في شريط يدور في جهاز الفيديو، تشاهده بلا صوت. في الشريط، كان الشال المزركش المعقود إلى مؤخّرة رأسها، يميل ببطء رائق، كما لو ريح تؤرجه. وانتزع صلاح نفسه من هواجسه حيال ما يجري في دائرته هذه الأيَّام، وأيضاً حيال هذه المرأة. تلفَّت حوله، فرأى حقيبتَي السفر في مكانهما عند مدخل الممرِّ، لم يطرأ عليهما أيُّ تغيير. وخطر له أن يسألها متى ستتمكَّن من السفر.

حتَّى قبل أن ينقضُّوا على قَدَمي في تلك الليلة،

كان كل شيء قد بدأ يتغيَّر، ينحدر رويداً!

يُنصِت لها، ويراها تُحرِّك جسدها، ثمَّ قَدَمَيْها، كأنَّما تريد أن تنهضَ، بات صلاح يشعر بهذه الرغبة، لكنها لا تنهض في كثير من الأحيان. تبقى جالسة فيما يروح يراقب الحركات المتشنِّجة تندُّ عن ساقَيْها، عن قَدَمَيْها المعطوبَتَيْن بالكامل، كأنَّما تفشلان في كبح التوق إلى المشي ثانية بلا آلام مُبرِّحة.

تعود بظَهْرها إلى الأريكة، وتتخيَّل الظلام يهبط فوق التلال الصَّخريَّة المتوحِّشة، التي تحيط عدن. وكأنما لم تقوَ

على الاستمرار في الجلوس حيث هي، نهضت بمشقَّة بالغة، مقاومة عطب قَدَمَيْها. كأنَّما خاطر قديم يدفعها إلى ذلك دفعاً، باتِّجاه ناحية من البيت، يضيئها نور أصفر واهن. ثمَّ كأنَّما يتبيَّن لها عدم صواب قرارها بالنهوض، تعود لتجلس باذلة جهداً كبيراً لبلوغ مكان جلوسها المعتاد. ويسقط السأم على إحساسها بجسدها، تشعره يغمرها باللزوجة.

هل ستسافرين؟ لم يستطع إلَّا أن يسألها.

وحدَّقت فيه مباشرة لبُرْهَة، ثمَّ أشاحت عنه، وسمعها تُغمغم بكلام، فهم منه أن السفر في مثل هذه الظروف، كان سيكون إحدى هدايا الله لها، لكنْ، طالما وهو مُختفٍ، وهم يزدادون تعنُّتاً في عدم السماح لها، فإنها لا تدري ماذا تفعل. تبدو له في إصرارها على عدم حكي حكايتها دفعة واحدة، إنما تواصل إسماعها له في ما يشبه الشظايا، دون أن تنسى أن تقدِّم ما ينبغي عليها تأخيره، وتأخير ما يجدر بها وضعه في المقدّمة، مثل شخص ينهمك في ممارسة لعبة ذهنية، قوامها تركيب قِطَع تظهر متنافرة في البدء، وأن لا سبيل معها للوصول إلى غاية، إلَّا أنه مع توالي اللعب تتكشَّف تدريجيَّاً ملامحها، لتُعبِّر عن وجه، مثلاً، أو مشهد طبيعيٍّ، وربَّما صورة مريعة.

ظهر أمس الجمعة جلس على حافَّة الشاطىء. لم يكد يلتفت حتَّى رأى نضال، وشعر بالخَوَاء يمتصُّه. وهو يُحدِّق في نضال الذي طالما تصوَّره بلا مزايا، يتكشَّف له اليوم فقط

أن مزاياه تفوق الحصر. تحوَّل إلى شخص محبَط، حتَّى بعد أن رأى سناء، وكانت ترتدي البكِّيني، بدت عجيزتها مكتنزة، وبسمنة خفيفة في منطقة السُّرَّة.

تفصيل شخصي جدَّاً تسبَّب في إحباطه، أكثر من حنقه على سناء، التي ربَّما خذلتْهُ من حيث لا تدري، وبدَّد اطمئنانه. لحظة أشهر نضال عريه في وجهه، وتبدَّى ذلك في ما يشبه ضوءاً ساطعاً تفجِّر في غرفة مظلمة، ورأى بعينَيْن شبه مغمضَتَيْن، تفادياً للسطوع المهلك، البطن المشدود، الصدر الفسيح، خالياً من الشَّعْر، وسلسال الذهب يتدلَّى فوقه، الذراعَيْن المفتولَيْن، صعب عليه تصوُّر أن كل ذلك الجبروت وتلك الغطرسة تتفجَّر من هذا الجسد الفتيّ. كأنَّما في آخر شبابه وبداية الرجولة. قد لا يكون يشعر بالحسد، كان سيُخالجه ذلك ربَّما، لو أن هذا المشهد المليء بعنف الجسد وطغيانه ظهر له في ما مضى، إذ إن جسده، هو الآخر، طرد منذ زمن الكرش الناتئ كبالون والسيقان الرفيعة.

لكنْ، حتَّى مع هذه الحقيقة ما كان لجسد مثل جسد نضال، أن يستحوذ على آخر فارهٍ، ويفيض بالشهوة كجسد سناء الذي تحاول دوماً إخفاءه وكبح جموحه، والذي تراءى له أنه لم يخلق سوى لجسد نضال. كانت تبدو في ذلك الجسد الفخيم في سنٍّ أكبر من نضال، إلَّا أنه بذلك الجسد الطاغي، بدا أكثر قدرة من أيِّ جسد بطغيان مشابه، على احتوائها بالكامل.

تقدَّم إليها وجهد في أن لا تراه وهو ينظر في جسدها، شبه العاري، وتبادلا كلاماً سريعاً. وقبل أن يحاول الاستيضاح منها عن حضور نضال، الذي أكَّدت له أنه لن يكون موجوداً، داهمهما هو، "أهلين" قالها بفتور، وربَّما بقليل من العدوانية. ثمَّ طوَّق سناء بذراعه من الخلف، ودفعها إلى البحر، وكأنه يخطفها منه غير عابئ بالرفاق القريبين منهم. لكنْ، حدث أن رآهما، على رغم الجفاء، وربَّما العداء الذي تُكنُّه له، في وضعيات، لا يمكن أن تقول سوى أنهما مُتوادِدَان ومتشابكا المصائر.

في الشاطئ، الذي لم يكن متاحاً في ما مضى، سوى للإنجليز، كانت الأجساد، أجساد بعينها أيضاً، تستلقي في شبه عري، مقذوفة في ما يشبه مشهداً عبثياً، يعادي ما حوله. تحسَّست أصابع نضال، بينما هما في الماء، بشرة سناء، مرَّت على ذراعها، ثمَّ صَعِدَتْ إلى رأسها، وتخلَّلت الشَّعْر الكثيف له رائحة زيت جوز الهند، كما يمكن لأيِّ عاشق متيَّم أن يفعل مع حُبِّه الوحيد. بدا نضال كَمَنْ يحاول، ويجهد في المحاولة، العثور على صورته الأولى، على ذلك الشخص الذي غيَّرتْهُ الحروب والحصارات والنفي من بلاد إلى أخرى، وربَّما فكَّر أنه لن يكون طبيعيَّاً، لو لم يصبح الشخص الذي هو عليه اليوم. لا يزال يحلم بنفسه، يركض طويلاً تحت السماء التي تغطِّيها الطائرات، يسمع صوت المضادَّات الأرضية، التي لا يذكر أنها أسقطت طائرة. ويموت ويحيا مرَّات في اليوم.

ينقل صلاح بصره بين وجه نورا كما يراه كل يوم، وبين صورتها في زمن مضى، زمن لو عثر على طريق سالك للعودة ثانية، فلن يقع على الأشخاص أنفسهم الذين عاشوه حينها، بأكثر ممَّا يستطيعونه من حماسة، بأكبر من طاقتهم على الأحلام. ترقص الآن من دون شال، في الشريط الصامت، شَعْرها يغطِّي جبهتها وعينَيْها. رفعت وجهها إلى صورة لجياب وحده، يرفع فيها ذراعه، يُلوِّح مُحيِّياً أحداً ما، خارج الصورة، جماهير، أو رفاق. قطَّبت جبينها، وتفوَّهت بصوت خفيض، تشوبه العصبية: يُخيَّل لي، أنني لم أكن أنا، سوى بعد أن عرفتُهُ. كأنني لم ألفت انتباه أحد قبله. لوتْ عنقها، ونظرتْ في صورة أخرى له مع أمير الكويت، ضمن آخرين من الجنوب والشمال.

ويأخذ صوتها شيئاً فشيئاً في الاحتداد، والصراخ أحياناً، حتَّى تتلاشى تماماً تلك العذوبة التي تُميِّز صوتها. وخال صلاح نفسه يشمُّ رائحة غريبة، رغم روائح العطر الكثيفة. وشعر بحاجة مُلحَّة لأن يُدقِّق في الرائحة، ثمَّ أخذ يهزُّ رأسه، وكان كَمَنْ انتظر حدوث شيء بعينه، مؤكِّداً شكوكه. إنها رائحة قَدَمَيْها اللَّتَيْن تأخذان في التَّعفُّن، قال لنفسه بكثير من الإشفاق، متخيِّلاً شقاءها حين تدرك أنها فشلت فشلاً ذريعاً في صرف الانتباه عنها، وبالأخصِّ انتباهها هي. وتساءل بينه وبين نفسه، إن كانت هي قد استنشقتْها أم لا؟

بصعوبة انتزع نفسه من ثقل الرائحة، وراح يصغي لها، تُكلِّمه عن رغبتها في ما مضى أن يكون لديها معهد

للأكروبات ومدرِّبات روسيات. شعر بضرورة التواطؤ معها، أن لا وجود لرائحة سوى رائحة العطر تتخلَّلهما، يعومان فيها. ويراها تتحسَّس ثيابها، ترخي جانباً من البلوزة، أو تشدُّ طَرَفَي التَّنُّورة إلى أسفل.

في الشاطئ رأى سناء صامتة، رغم ما كان يفعله بها نضال. كانت تشكو قسوته، إنما ليس أمام أيِّ أحد، وكَمَنْ يتفهَّم هذا السلوك، وخبرتْهُ كثيراً من آخرين وعلى آخرين. هو ليس نذلاً، اندفعت توضح لصلاح، كانت لمحتْهُ يراقبهما، ثمَّ رأت كيف كان مرتبكاً قدَّامها. دفعتْهُ إلى طاولة المشروبات، تناولتْ زجاجة بيرة باردة، وبادرتْ بفَتْحها، وناولتْها إيَّاه. واستمرَّت تقول: على الأقلِّ، لم يكن كذلك. كان مغامراً في الحرب في بيروت وحالماً. لم تكن روحه شيئاً يحمل همَّه. كان الكثير مع المقاومة، لكنْ، ليس بقدره. واقتربت أكثر منه، حتَّى شمَّ ملوحة البحر في جسمها، وأخبرتْهُ أن نضال تقصَّى عن مشكلة عبَّاس، وأنه أخبرها أن لا مفرَّ له من مغادرة عدن، إذا رغب العيش في سلام.

ورغماً عنه انزلقتْ نظرة منه إلى سرَّتها، غائرة قليلاً في لحمها الأبيض، وشَعَرَ، على غير عادته، بإثارة تضرب في عروقه، هل لأنها توضَّحت له على غير ما ظنَّها لأعوام، فدائية منقطعة لقضيتها، ثمَّ باتت، في لحظة، مثل أيِّ أُنثى، لها رغبات، وتُسرُّ برؤية الرغبة فيها، تنعكس في عيون الآخرين أم لأنه تنبَّه فجأة لخُلُوِّ حياته من المرأة؟ وكان يجهل تماماً ماذا يقول لسناء، وقد ظنَّها غير مبالية

بورطة عبَّاس حين أخبرها قبل أيَّام، وبدا مندهشاً أن تلجأ إلى نضال للمساعدة. وما لم يستوعبْهُ أنه، على غطرسته، طاوعها، ولم يرفض أن يتدخَّل. لحظتها تبدَّى له المشهد الأممي للأجساد، كأنَّما هي تفاصيل متنافرة، متطرِّفة في وحشيتها، في احتفال كرنفالي، وداخله شعور لزج أنه في مكان لا ينتمي إليه.

ولم تعتره الغرابة لمعرفة أن نضال جزء من المشهد، أن كل ما يدور هنا يُلائِمه، يُلائِم واحدهما الآخر. على العكس منه هو الذي ظهر خارج عناصر هذه اللوحة التي تجمع بشراً، الخبراء أنفسهم، الثُّوَّار، الفدائيِّيْن، المناضلين قادة فصائل وممثِّلي أحزاب، من أصقاع عديدة. وسمع نفسه يصارحها إن عبَّاس حتَّى لو أراد ترك عدن، فلم يعد لديه جواز يصلح للسفر، وإنه تحوَّل إلى شخص متوجِّس بصورة مبالغ فيها، ممَّا آلت إليه أحواله هنا. وأخبرها أنه بذل أكثر ممَّا يستطيعه، لأن يكون لعبَّاس جواز سفر، لكن محاولاته باءت بالإخفاق. تحجَّجت سناء بأنها ستذهب لتتأكَّد من جاهزية طعام الغداء وتعود. وبحركة فاترة حوَّل صلاح بصره ناحية نضال، رجل كل اللحظات والمواقف على اختلافها، وتفرَّس فيه وهو ينتهي من السباحة، ويرتقي درجات إلى مصطبة مستطيلة، تعلو سطح البحر قليلاً. ولم يتناول مشروباً، إنما انحنى على حقيبة صغيرة، وبدَّل ملابسه، وأخرج أدوات الحلاقة، وراح يُدخِّن سيجاراً، ويحلق بمساعدة مرآة كانت معه. فاحت رائحة المعجون الفاخرة، ثمَّ عطر ما بعد الحلاقة، بدَّدت رائحتُهُ

الملوحةَ الثقيلة، التي تعيث في الأجساد العارية الضجرة من الحَرِّ قبل أن تهرب إلى هنا. حدَّق فيه صلاح، وسالت خيالاته. ونما يقين لديه شيئاً فشيئاً أن مثل نضال فوق العمل الفدائي نفسه، فوق القضية بعدالتها، فوق سناء أيضاً، ولم يكد ينتهي من خيالاته، حتَّى رأى نضال يخطو ناحيتها، ويجبرها على قبلة طويلة، مُطوِّقاً ردفَيْها الناتئَيْن بيَدَيْه، في ما هي تحاول بكل ما أُوتيت من قوَّة تخليص نفسها منه، وكان الخجل والجزع يغشيان وجهها. لكنها أرادت تلك القبلة، أرادتْها بقوَّة، كما رغبت في يَدَيْه تُطوِّقان كل جزء من جسدها، غير أنه هو السبب في أنها تنسى وتروح تتجاهل هذه الرغبة. تتوق إلى تلك الرائحة التي جعلتْها تترنَّح في الشارع الضَّيِّق، بجوار بناية هدمتْها قذائف الطيران الإسرائيلي.

بقي صلاح يراقب الأجساد تتلوَّى في الزرقة الدافئة. وتذكَّر أنه لم يُجرِّب العوم مرَّة، رفقة آخرين في هذا المكان، رغم أنه يسبح جيِّداً. وفتح عينَيْه على وسعهما، كأنَّما لتشملا أكبر قدر من تلك الأجساد العارية، ثمَّ أغمضهما قبل أن ينصرف، ولم يفتْهُ اختطاف نظرة على سناء، وهي تعود ثانية إلى البحر، بينما تحاول أن تسبح مستلقية على ظَهْرها، وبدا ذراعاها واهنَيْن وهما يجدِّفان ببطء حولها.

في طريق العودة من منزل نورا اعتراه قلق، القلق نفسه الذي يعتريه ما إن يكون في الدائرة، غير مُصدِّق ما يُلقي بنفسه فيه على مدار اليوم. لم يكن مؤمناً بصورة عميقة

بكل ما كان يراه، رغم حرصه أن يكون كذلك، وأن يُبدِّد ما يساوره من نقصان بهذا الخصوص. في الليل وهو يتقلَّب في سرير النوم، ظنَّ أنه لن يستيقظ من غفوته، أنه سيموت لا محالة لفرط المشاعر التي تهبط على روحه بقتامتها. لم يستطع أن يغفو، فرفع جذعه، وأسنده على حافَّة السرير، وبقي ساهماً يحاول أن يتصالح مع ما يجري، فلا يستطيع.

21

ودنت منه نورا من دون أن تُحرِّك قَدَمَيْها، مطَّت جسمها فيما هي جالسة، ومدَّتْ يدها، وأمسكتْ بمعصمه. لأوَّل مرَّة تفعل ذلك، حتَّى إنه ارتاع، ولم يدر كيف يتصرَّف. وجهد في تفادي رائحة العفونة، تأخذ في الانتشار رويداً، وشعر بسخونة اليد التي طالما تصوَّرها رقيقة وناعمة. ليس لديه أدنى فكرة عمَّا عقدت النِّيَّة على فعله في هذه اللحظة، وحاول بلطف أن يتخلَّص منها، لكنْ، كانت تُمسكه بقوَّة. وقالت، كأنَّما لم تقلْ شيئاً طوال ما مضى من لقاءات، ولم تهزّه هزَّاً عنيفاً: يا صلاح، عندما كان رفاقكَ يحاربون الاستعمار كانت لديهم مُثُل نبيلة وقدَّام أعينهم مثال أعلى. بعد الاستقلال ظنُّوا أن المُثُل لم تعد تلزمهم، وأنهم أصبحوا المثال الأعلى.

لم يُصدِّق أنها نطقت اسمه، سمعها تفعل ذلك لأوَّل مرَّة منذ توالت زياراته لها. ومع ذلك خامره شعور لزج أنها لفظتْهُ

ملطّخاً بحقدها على الرفاق جميعهم. وخطر له أنه كان ليُحبَّ سماع اسمه يندفع من بين شَفَتَيْها، لولا تلك الكلمات التي تلت نطقها له، وأفسدت كل شيء.

كانت أنفاسها تتدافع، كَمَنْ تجهد في قول ما تريده بأقصى ما تستطيع من سرعة. وسمعها تواصل وكأنما هي قد نفذت إلى عقله، وكشفت ما يُقلقه: كانوا مثل العميان، باستثناء أنهم يرون واحدهم الآخر، ثمَّ لم يعد واحدهم يرى إلَّا نفسه وقد ضاق برفيقه. أضاعوا على هذه البلاد فرصة أن تكون... ولم تستطع أن تُكمل، وأفلتت معصمه.

وقدِّر أن يرى الانهاك يتغلغل في جسدها كله، الذي كان يهتزُّ اهتزازات خفيفة. كانت منفعلة وقد بدا التَّنفُّس عملية شاقَّة بالنسبة إليها، في هذه البُرْهَة.

سيتجاهل للحظة ما قالتْهُ، وجعل يتأمَّل، كما لو أنه يفعل ذلك للمرَّة الأولى، في الوجه الجميل لنورا، في شَعْرها الكثيف المموَّج، وفي شَفَتَيْها الرَّطبَتَيْن، اللَّتَيْن تلفظان الكلمات أحياناً مثل حِمَم صغيرة.ثمَّ استغرقه التفكير في ما يجري في الدائرة. جال في باله أن الجناح المهيمن عرف كيف يستولي على أسرار الدائرة، وأن يزيح تدريجيَّاً الرجل الأوَّل بتهمة التضحية بالقيادة الجماعية، ثمَّ التَّخلُّص من بقية الموظَّفين الكبار، ليس بفَصْلهم هذه المرَّة، وإنما ترقيتهم إلى مناصب عليا، بيد أنها فارغة من أيَّة أهمِّيَّة. وهو يفكِّر في كل ذلك، راوده لأوَّل مرَّة خاطر غريب، أن مَنْ هو مثله سيموت بلا أسرار، ولن يتذكَّره أحد. وأحسَّ

بنفسه يتضاءل، بل يتشظّى ويتحوَّل إلى عَدَم. كم كان بعيداً عن تخيُّل مثل هذه الخاتمة لحياته، الذهاب إلى الموت متخفِّفاً من أيِّ سرٍّ، مع أنه أضحى منذ مدَّة ممَّنْ يُطلق عليهم حملة الأسرار.

كان قد ظنَّ أن النظرات التي رمقه بها المسؤول الجديد، في أوَّل اجتماع، ولم يرتحْ لها حينها، ثمَّ تطوَّرت إلى انتزاع ملفِّ المنظَّمات الثَّوريَّة منه، وإلغاء عضويته في لجنة تنسيق الأحزاب وحركات التَّحرُّر الوطني، هو أقسى ما عاشه في حياته كلها. لكنْ، يخامره الآن أن عقاباً مثل هذا، أن يُودِّع الدنيا، ولا يُخلِّف أسراراً وراءه، أبعد ممَّا يمكن أن يستحقَّه، فكيف له أن يذهب في النسيان، ويغوص في إهمال بلا تخوم، على عكس الخاتمة التّراجيديّة التي تخيَّلها لنفسه. لم يكن يُضمر أيَّ تطلُّع عدا هذه الخاتمة، وطالما خالجه التفكير أنه تطلُّع طبيعي بالنظر إلى النهايات التي تُجلِّل أصحابها بالعار، رغماً عنهم، إذ يتمُّ اختيارها لهم.

هل من الملائم أن ما قلتُهُ يطابق نظرتكِ لجياب بعد حياة مديدة معه، أم يهبُنا فرصة أن نرى جميع الرفاق يشملهم هذا الحكم أيضاً؟

ودَّ لو يسألها غير أنه لم يشعر أن مزاجه يعينه، على أن يختلف معها أو يتَّفق، لكن رائحة قَدَمَيْها المعطوبَتَيْن جعلت تُرعبه، ولا يقدر أن يتجاهلها. وحاول تغيير الموضوع، وأخبرها أنه انتهى من كتابة صفحات عديدة في المذكّرات،

وأنه سيكون من اللّازم أن تنظر إليها. وسألها إن كان يستطيع أن يجلبها معه في المرَّة المقبلة. صمت قليلاً، ثمَّ أضاف متلكِّئاً أنه يخشى هذه المذكّرات. خلال ما كان يتكلَّم، لم يظهر عليها أنه يُخبرها بأمر مهمٍّ، لم تنمّ ملامحها عن حماسة. ولم تسمح لنفسها حتَّى أن تعطيه موعداً، لتستلمَ منه الجزء المنتهي، لتقول رأيها. أحبطه موقفها، فلم يستطع أن يتفوَّه بكلمة. وبقي يتشمَّم رائحة العفونة، تستشري رويداً في المنزل.

لم يظهر احتفالهم برأس السنة كما في الأعوام الماضية، إلَّا أنه كان في وسع كل منهم أن يبوح بأُمنيَّته للعام الجديد 1986. في الواقع لم تخرج أُمنيَّاتهم عن مألوف الأُمنيَّات: السلام والرفاه، الصمود للثورة، الحياة للحزب، والعمر المديد.

يستنشق صلاح روائح لا يمكن وصفها سوى بالفاخرة، في هذه الفيلَّا، تركها وراءهم قادة الأحزاب الشّيوعيّة والفصائل الفلسطينية وغيرهم، إلَّا أنه لا يقدر أن يأخذ نَفَساً عميقاً، ليمتصَّ الرائحة، ويُمتِّع بها حواسَّه. وبينما تغمر نظراته أرجاء المكان، أفلت منه خاطر: مَنْ يخدع مَنْ؟ يخدعوننا أن لدينا شيئا في غاية الأهمِّيَّة يمكن لهم أن يخشوا عليه، أكثر منَّا، أم نحن مَنْ يخدعهم، أو ربَّما كلنا مخدوعين بما يجري؟ وحوَّل بصره إلى عبَّاس وسناء وبقطاش، ثمَّ خطر له أن يصارحهم بهواجسه عمَّا يوشك أن يحدث بين فينة وأخرى، لكنه لم يشأ أن يُفسد بهجة الاحتفال. وسمع عبَّاس يقول إنه عرف أن بعض هؤلاء

القادة، لا مفرَّ له من العودة إلى هنا خلال الأيَّام المقبلة. وهزَّ هو رأسه مؤكِّداً مقولة عبَّاس، غير أنه حاول أن يتجاهل ما يمكن لهؤلاء أن يفشلوا فيه، وربَّما قد يُفاجئون الجميع بنجاحهم.

طغيان القلق في جوِّ الاحتفال دفع بقطاش، الذي كان مسافراً كعادته خارج البلاد، ليقول إن شعوباً بدائية تُقدِّم قرابين، مثل نحر الديكة لشهر يناير من كل سنة، لأجل أن يتمتَّعوا بالسلام، ويُبعدوا عن أنفسهم الحسد والأذى.

سننحر ثوراً، لنتمتَّع بالسلام، وليكن أسود وسميناً. قالت سناء.

من أين لكِ؟ أنتِ لا تملكين حتَّى دجاجة. سألها عبَّاس هازئاً.

ربَّما أسرقه، أجابت. وضحكوا جميعاً.

بعد حين فتحتْ سناء شنطة يدها، وأخرجت شيئاً، ومدَّتْهُ إلى عبَّاس: جواز سفر يمني يفتح لكَ أبواب العالَم. قالت بنبرة خالية من المرح، بل مسَّها حزن خفيف، كما لو أن عبَّاس سيُودِّعهم بعد قليل. أمسك عبَّاس بالجواز، وفرَّ أوراقه، وحدَّق في صورته وبياناته، كلها صحيحة، ثمَّ نظر في وجه سناء. لم تقلْ له ما لا يستطيع أن يصبر أكثر لمعرفته، كانت مرتبكة كَمَنْ كان يخونهم طوال الفترة الماضية، واكتفت بالالتفات إلى صلاح الذي بدا في غاية الاندهاش وهو يقول لعبَّاس: أنا أعطيتُها إحدى صوركَ وبياناتكَ، وكنتُ في شكٍّ تامٍّ أن يستطيع نضال فعلها.

نضال! فاه عبَّاس. نعم، نضال، وضَّحت سناء، فور أن أخبرني صلاح بالمشكلة لم أجد سواه ليتدخَّل. وسأل بقطاش سناء: هل تصالحتُما أم أنه تحوَّل إلى شخص يحبُّ مساعدة الآخرين، أم ماذا؟ وكان في وسعها أن تجيب لو أنها امتلكت إجابة واحدة، تجعلهم يتفهَّمون الأمر، فبقيت صامتة. لم تشغل صلاح هذه المسألة كثيراً، سبق له أن كشف سرَّ علاقة الغرام المعقّدة بينهما، وقد تخطَّى في الوقت نفسه الدهشة الأولى ممَّا بوسع نضال أن يفعله.

وسمعوا بقطاش يقول إنه بينما كان القطار يهدر داخلاً ضواحي صوفيا، وكان في ما يشبه رحلة طويلة تمرُّ بمُدُن شيوعية، مع شباب وشابَّات أرسلوا لتمثيل فروع اتِّحاد الشبيبة العالمي، شعر لأوَّل مرَّة بأنها مُدُن تتآكل من الداخل، انطفأت فيها جذوة الثورات، وأنها لن تعرف التَّجدُّد ثانية. ولم يدرِ صلاح لِمَ حاول أن يُبدي توجُّسه من نبرة التشاؤم، لكنْ، كان لسانه ثقيلاً، فلم يزد أن قال كلاماً مبهَماً غير واضح. وعاد بقطاش ليتكلَّم عن خشيته من مصير مشابهٍ لعدن. وهنا ضرب عبَّاس بيده على مسند المقعد الذي يقعد عليه، وقال إن عليهم الإيمان بمستقبل هذه المدينة، التي رغم فقرها، وهبت الجميع ما لا يمكن لمدينة أخرى أن تهبَهُ. في الواقع، وفيما عبَّاس يقول ذلك كان إيمانه بعدن ووعودها كعاصمة للشّيوعيِّيْن قد بدأ يتداعى، وفي طريقه لأن يتحوَّل ذكرى خلَّابة ربَّما تعينه، كما أعانتْهُ ذكرياته في براغ، لاجتياز مشاقِّ المرحلة المقبلة، ووعورتها.

وبعد قليل أخبرهم أنه ألغى عودته نهائياً إلى العراق، ليس بسبب المخاوف أن يكون ما يتردَّد عن هشاشة باتت تعتري النظام في بغداد مجرَّد استدراج لهم، إنما لشعور باللَّاجدوى أخذ ينمو ويتغذَّى على جملة ما يحدث من صراعات هنا. وقال إنه تغيَّب عمداً في الأيَّام الأخيرة عن اللقاء بالمتدرِّبين. آخر لقاء جمعه بهم عرف أن عدداً منهم رفض استلام سلاح، ولم يتدرَّب على رمي الأهداف. وذكر أن المتدرِّبين شيئاً فشيئاً بدؤوا يشعرون بالإحباط، أصبحوا يدركون أنهم خُذِلوا، وأن القيادة غير دقيقة في تقدير الموقف هناك. وكانت الأخبار تأتي، ويتمُّ تداولها، ومنها أن عدداً ممَّنْ ذهبوا لقي حتفه.

وعاد عبَّاس يُقلِّب في صفحات جوازه اليمني، ويتساءل بينه وبين نفسه، هل إن رحلة جديدة ستبدأ؟ ومتى يكون له خيار أن يمكث في مدينة ما، ولا يغادرها أبداً؟ بدا مكروباً، يستولي عليه شعور بالعصبية، كما لو تروح عدن تضيق عليه. فكَّر لو كان يستطيع تغيير اسمه أيضاً. كان ربَّما يمكنه أن يبدأ حياة جديدة تماماً، حياة مختلفة باسم كذلك مختلف.

بدت الموسيقى، وهي ممَّا لم يتعوَّدوا الاستماع إليها، طربية أكثر من اللزوم، فبقيت مفصولة عنهم، ولم تصلح حتَّى أن تكون خلفية، تُلائم التباس هذه اللحظة وضبابيتها. يجيل صلاح بصره في أنحاء الفيلَّا، يرى آثار الوفود في كل زاوية. يرحل وفد، ويأتي آخر، في ظرف زمني قصير للغاية. يجهدون، وفقاً لتعليقاتهم للصحافة الدّوليّة، في إنقاذ

التجربة. يُنقذونها بأكثر الطّرُق أرستقراطية. قال بقطاش، وراح يشرح أنهم كَمَنْ يحاول إنقاذ قطَّة من حريق بإمساك طرف ذيلها بإصبعَيْن، قد تحترق بالكامل بدءاً من وجهها وانتهاء بجسدها، بينما يبقون ممسِكين بالطرف الناعم للذيل. وأضاف أن هؤلاء الذي يأتون إلى عدن مثل الفاتحين، يُدخِّنون السيجار الغليظ وسجائر المارلبورو، ويحتسون الويسكي، وتُغطِّي عريهم ملابس فاخرة بماركات إمبريالية، لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً لعدن، فيكتفُّوا بالتقاط الصور مع المسؤولين في مقيل قات، أو على هامش اجتماع فاشل. وهجس بقطاش من وراء رحيل الوفود الشّيوعيّة، وتقليص الفصائل الثَّوريَّة الأممية لوجودها في عدن، وسفر بعض الأعضاء في المكتب السِّياسيِّ إلى ألمانيا الشَّرقيَّة والصين، بانفجار وشيك. ومع ذلك لن أغادر عدن، سأبقى هنا. ختم بقطاش كلامه بتصميم.

وقالت سناء وهي تُنهي على دفعَتَيْن كوب ليمون، وأخذت تملؤه ثانية من دورق عثرت عليه في ثلَّاجة المطبخ، إن الفتاة التي قامت مؤخَّراً بعملية فدائية داخل أراضي العدوِّ الإسرائيلي، تشبه عروساً، ذهبت لملاقاة حبيبها. أخذت رشفة، وسرحت بعينَيْها، بدت لهم مأخوذة بهاته الفتيات. وتكلَّمت، على نحو مُبهَم، عن صورهنَّ، وكيف تتأبَّد سريعاً في الذاكرة، وقبل ذلك كيف تغوي أخريات، بالنظرات التي فيها، والتي مهما حاولت التحديق إلى الأمام، تبقى ساهمة، مع إصرار، نضج منذ زمن، على

التضحية. ومرَّت لحظة من الصمت، لم يسمع خلاله سوى ارتطام الكؤوس بالزجاجات، وأيدٍ تهوي بوسائد صغيرة وقِطَع من كرتون، طَرداً للرطوبة التي لم تنجح المروحة في تبديدها.

ثمَّ سمعوها تتكلَّم عن نضال وبقية رفاقه، وتقول إنها كفَّت عن الإيمان بما يمكن أن يفعله هؤلاء. بدت لهم، رغم صلابتها الظاهرة، كائناً مغلوباً على أمره. وراح جسدها الفتي كأنَّما يذوي أمامهم، ثمَّ أضافت في نوع من الموقف السَّوداويّ، أنها غدت تفكِّر في تخليص نفسها من هذا الشقاء. ولم يخطر لهم أيُّ نوع من الخلاص، أمكن له أن يكون موضوعاً لتفكيرها. وانتشر ضوء كسول، قادم من الخارج، وهبَّت معه رائحة ملوحة. فيما كان صلاح يشبه شخصاً تعاطى جرعة مركَّبة من مخدِّر قوي، يسبح في خيالات وهواجس بلا ملامح، تأتيه كلماتها في هيئة هُلامية، إذا تبيَّن معنى كلمة لن يقدر على فَكِّ مضامين كلمات أخرى. وسمع نفسه يقول: أنا أيضاً أفكِّر في الهرب. ولم يستطع أن يضيف شيئاً، تحوَّل لسانه إلى قطعة من خشب. لا يتصوَّر الجوَّ الخانق الملبَّد بالرطوبة، الذي يرى الجميع يغوصون فيه، جزءاً من جوٍّ أكبر، يوشك أن يجتاح الكل. يتفاقم مزاجه بصورة مريرة، فيسرح بعيداً، مبهماً حقيقة خيالاته حول ما يجري. وشمل الفيلَّا بنظرة متمهِّلة، كأنَّما يُودِّعها، وهو يتنشَّق رائحة السيجار التي خلَّفتها الوفود الشّيوعيّة وراءها.

22

لم يتسنَّ لها خلال الأيَّام التي مرَّت رؤية وجهها في المرآة، فهالها ما قد يكون عليه، حين رأت فزعاً، عكستْهُ ملامح صلاح، بمجرَّد ما إن فتحت له الباب، تاركة إيَّاه يعبر إلى الداخل، لتروح خلفه تترنَّح، فلا يرى كم أن مشيها أمسى أكثر غرابة.

واقفة تتحسَّس ظَهْر مقعدها، رأت مرآتها الصغيرة يدفن سطحَها الغبارُ، بين الأشياء فوق الطاولة قدَّام المقعد. وتذكَّرت أنها خطفت أكثر من نظرة إلى وجهها، في غضون الفترة التي جرت فيها دماء كثيرة، وبدا لها، خلال الغبار، في هيئة نكدة ومزرية بصورة مريعة. إلَّا أن العناية به في تلك الأوقات، التي مرَّت مثل دهر طويل، لم تخالجْها، منصرفة كانت بالكامل إلى التَّصنُّت على ما يحدث، وقد بدأت فعلاً تحسب على أصابع يَدَيْها، مَنْ سيمكن لها أن تراه ثانية من الرفاق، الذين أمسكوا بالسلطة أخيراً، في حال ما إذا رغبت، ومَنْ سيموت جزء من ذاكرتها برحيله، قتلاً برصاص رفاقه.

لم يكد يجلس حتَّى نهض، ثمَّ عاد ليقعد، وبقي مثل الممسوس. حين نقر الباب بإصبعه، وفي أثناء انتظاره أن تفتح له، أخذ يفكِّر في الطريقة، التي سيسلكها لنقل الخبر إليها، متوقِّعاً أنها لم تعرف بعد، ومتخيِّلاً، في الوقت نفسه، صوراً لكيف ستتهاوى عند سماعها له. ستشدُّ شَعْرها ربَّما، وستخمش وجهها بأظافرها، أو ستقع على الأرض،

وتنوح بحُرقة. تلفَّت حوله، فرأى حقيبتَي السفر قد تحرَّكتا قليلاً، وما عادتا تقفان على عجلاتهما، منسدحتَيْن، تبعد إحداهما الآن عن الأخرى مسافة مترَيْن، كأنَّما حاولت استعمالهما، ثمَّ تراجعت. وأبصر الأشياء حولهما يعلوها الغبار.

يعوم البيت في فوضى وظلام شحيح. كما لو أن هناك مَن اقتحمه، وخرب عنوة تلك الأناقة، التي ميَّزتْهُ يوماً. يرفع بصره إليها، ويتنبه إلى أنها فقدت نضارتها، التجاعيد زادت أسفل عينَيْها، بدت تنتمي إلى زمن قديم وبالٍ. وليس سواها، رائحة العفونة، تُشهر نفسها أمامه بصفاقة. فهل لم تتبقَّ لديها قطرة عطر، لترشَّها في فضاء المنزل؟ أو لربَّما تعبت من التمويه، سئمت تشتيت الانتباه، بالعطور والحكي. قدماها ملفوفتان في أربطة، رغم الظلام الخفيف قدر أن يُبصر أنها ما عادت بيضاء، تنتشر فيها بقع داكنة وأوساخ، يُدوِّم فوقها ذباب. عصبية ويائسة، وبلا حول يراها، محطَّمة بصورة فظيعة.

كتمتْهُ الرائحة، لم يكد ينساها حتَّى هاجمتْهُ كأخبث ما تكون، وجال في باله أنها لم تترفَّق بهذه المرأة، ولا بما كانت أو لا تزال تعنيه، فكشَّرت عن نفسها دفعة واحدة. وفرَّت نظراته إلى النافذة، كانت مغلقة. وخطا باتِّجاه أن يفتح إحدى ضلفَتَيْها، لكنه أحجم، شاعراً أنه كان يوشك على اقتراف حماقة. كانت ستعرف أنه فتحها فراراً من رائحة قَدَمَيْها، وحينها سيصعب عليه توقُّع ردَّة فعلها، فقرَّر أن يبقى في العفونة. ويروح يشملها بنظرة متمهِّلة،

ويفكِّر في الأيَّام القليلة الماضية، التي راعه خلالها حجم الرغبة الفظيعة في الفتك، التي كان يُضمرها كل طرف للآخر، وتجسَّد في كل تلك الأنفس التي اختلط لحمها بتراب الشوارع، وأكلت منها الكلاب والغربان أيضاً.

كانت خطرت له في خضمِّ ما كان يجري، إلَّا أنه لم يفكِّر في زيارتها، فضلاً عن عدم استطاعته الخروج من منزله، سوى بعد حوالي أسبوعَيْن، إذ مرض فجأة، أُصيب بما يشبه الحُمَّى التي أفقدتْهُ الوعي، ربَّما كان سيطول به الحال مع المرض، لولا أنه آل على نفسه، وقاوم. ثمَّ في يوم خرج رفقة آخرين، من أصحاب وجيران، يتفقَّدون الشوارع القريبة، ثمَّ ما لبثوا أن عادوا. كانت المواجهات مستمرَّة، وإن بوتيرة خفيفة، في ظلِّ انقطاعٍ للماء والكهرباء. لم يقدر أحد، كما تقول إذاعة البي بي سي، أن يُحصي الضحايا، وكانوا قد أخذوا بعضهم، كما سمع، إلى أماكن مجهولة. قليلون مَن استطاع ذووهم تدبير دفن لائق بهم. إلَّا أن روائحهم بقيت ثقيلة، تأخذ شكلاً سميكاً، وكانت لها القدرة على الحركة، فاقتحمت كل الأمكنة.

جال في باله أنه كان يمكن في سهولة أن يكون في عداد القتلى، لولا أنه كفَّ منذ زمن عن الذهاب إلى الدائرة، بصورة يومية، بطلب غير مباشر من الرئيس الجديد، بعد أن جرَّدوه من مهامِّه، ومن مكتبه أيضاً. أرادوا أن يعاقبوه، فكَّر، فجنَّبوه، من حيث لا يدرون، إزهاق روحه بتلك الوحشية. وعنَّ له الآن أن الوحشية، لن تكون بسبب طريقة القتل، إنما كون كل ذلك تمَّ بصورة جماعية، من

دون تفريق بين رفيق وآخر، وهو ما كان سيرفضه لنفسه، في كل الأحوال، هو الذي يفتِّش عن خاتمة متفرِّدة.

عزم على الخروج اليوم، والتمادي إلى منزلها. قبل ذلك عرَّج على الدائرة، ليرى كيف انعكس كل ذلك على بقية الرفاق هناك. في مكتب الرئيس الجديد، الذي فيما يبدو كان ينتظره، داخله الانقباض. قبل ولوجه مكتبه، لم يرَ أحداً من الزملاء القدامى، وكانت المكاتب شبه خالية، صمت مطبق يغشاها. نظر في صور مختلفة للأمين العامِّ الجديد للحزب، في منحوتة بدائية لمسؤول روسي مُهمٍّ، لم يستطع تذكُّر اسمه في الحال، لعرض عسكري في الساحات. كل شيء هنا بدا له يستجيب للقانون الغامض، المكتوب بالدم، والذي أضحى يحكم تطوُّر الأمور. وكان عليه هو أيضاً أن يتفهَّم ذلك، بل أن لا يطالب بالاستثناء. ظلَّ واقفاً وقتاً، ليس طويلاً، لكنْ، كان كافياً ليشعر بالضغينة، وأنه ما كان له أن يأتي مهما كلَّفه الأمر. كان عليه أن يلزم المنزل، فلم يعد لديه سواه. إنها أخطاء الأفراد، أقنع نفسه.سيأتي آخرون، وسيُصحِّحون أخطاء سواهم، وستمضي العجلة. ليس حماسيَّاً، ولم يستطع أن يكون ثوريَّاً خالصاً. لا بدَّ من الاعتراف بالخطأ، وتوقّعه في أيِّ وقت. بيد أنه يشكُّ في مجيء لحظة أخرى، فما اقترف من أخطاء لا يمكن تصحيحها، سوى بانهيار كل شيء. في نهاية الأمر، ترك المسؤول سكرتيرته، التي لم تكن سوى نوال، تُسلِّمه ورقة. وهو يمسك بالورقة، ويشعر ببرودة مميتة، تتسلَّل إلى سائر أعضائه، سمع الرجل ينطق "برهن على نقاء عقيدتكَ".

قبل ذلك، لاحظ أن رؤيته لنوال،التي كانت ترتدي تنُّورة سوداء إلى ما أسفل الركبة وبلوزة خضراء فاتحة، وتلفُّ شَعْرها بمنديل داكن، تعقد طَرَفَيْه تحت ذقنها، لم تثرْ فيه تلك الهواجس حول الخاتمة التي طالما تطلَّع إليها، وقد بدت له امرأة عادية بجمال عادي، والأكثر مدعاة للتفكير أنه استطاع أن يراها، وقد تحرَّرت من ربطه لها بمصير زوجها، ضحية حادثة تفجير الطائرة.

في المكتب، الذي لم يعد مكتبه، وكان مفتوحاً، ولا أحد فيه، بينما يجلس مرَّ بنظراته سريعاً على سطرَيْن لا أكثر. ارتفعت نظراته، لتشمل الحجرة، التي التقى فيها شخصيات من أصقاع مختلفة، وعاش فيها زخماً ثوريَّاً ما عاد قادراً في هذه اللحظة، حتَّى على استعادته كذكرى. زمَّ شَفَتَيْه، وطوى الورقة، وحشرها في جيبه. في ما مضى كان على استعداد لفعل أيِّ شيء، مدفوعاً لتلبية نداء الواجب المقدَّس، ولإكمال النقصان فيه. لكنْ، اليوم وقد خذله الواجب المقدَّس، ونأى عنه الكمال، كيف سيُبرهن لرئيسه الجديد على نقائه؟ أن يطلب منه تقييم رفاقه، معناه الوشاية بهم.

يرنو صلاح إلى نورا، ويشعر بتداعي الصورة التي كوَّنها عنها، وتظهر فيها مترفِّعة وغامضة، تثير خشيته. وأدرك أنها عرفت بأمر الرائحة، رائحة قَدَمَيْها المتعفِّنَتَيْن، غير أنها، كما تظهر، تُقاوِم إحساسها بالنهاية، بخاتمة لحياتها مثل هذه، معها لن يعود أحد يقترب منها، حتَّى ولا هو نفسه. ورمقتْهُ هي بنظرة فاقدة لأيِّ مغزى، ورآها هو كَمَنْ

ينهض من دمار عميم، ويتعرَّف الكوارث من روائحها، التي تبدو بعضها، بالنسبة إليها، أخفّ وطأة من بعضها الآخر.

قبل أن يحدث ما أصبح العالَم كله يعرفه ويسخر منه، سمعتُ طَرْقاً عنيفاً على الباب، لكنني لم أجرؤ على أن أنهض وأفتحه، تسمَّرت قَدَمَاي، وثقلت روحي، كَمَنْ يتوقَّع كارثة وشيكة. ثمَّ تناهى إليَّ صوت أحدهم وهو يطلب بلهجة آمرة، إخلاء البيت، مضيفاً أن كل سُكَّان الحَيّ غادروه سيراً على الأقدام. ثمَّ لم أعد أسمع شيئاً، وبقيتُ، ولم أغادر.

سمع صوتها، خافتاً وعميقاً في آنٍ، كأنَّه يأتيه من خارج الكون كله.

محاطة تجلس بحقائب جِلْدِيَّة صغيرة بدرجات متفاوتة، وأشياء تتناثر فوق المقاعد والأرائك حولها. تقعد وسط ما يشبه حطام معركة. كَمَنْ يستعدُّ للرحيل، إنما بعد فوات الأوان، أو قرَّر البقاء، لكنْ، أيضاً في الوقت غير الملائم. عودة رفاق تعرفهم إلى الإمساك بالقرار، لم تخفِّف من روعها. تأمَّلها قليلاً، وتيقَّن في هذه اللحظة، بصورة جلية، أنها قد دفعتْهُ تدريجيَّاً للتَّخلِّي عن النظر إلى حياته بالكيفية نفسها، التي مارسها طوال أعوام مضت، وأن يكفَّ عن التفكير في الكمال، بخصوص عقيدته الحزبية، الذي جعلتْهُ يراه بصفته أكذوبة. غير أنه يواجه صعوبة في تصديق أنها فعلت ذلك بلا قصد منها، بالنظر إلى أنها ما كانت

بريئة، وهي تحكي كل ما حكتْهُ، على الأقلِّ من وجهة نظره. يتأكَّد له أنه أحبَّ الإنصات إليها، وأنه بينما يفعل ذلك في كل زيارة لها، كان الكثير من قناعاته يتداعى، ويتبدَّد ما لازمه طويلاً من شعور بالنقص. كانت تأخذه بكلامها وحكاياتها، كما لو كانا يتجوَّلان سيراً على الأقدام، إلى أماكن وحارات وميادين وساحات، وكانا يلِجَان دواخل شخصيات، ويفضَّان صناديق أسرار مغلقة على نفسها.

وهي تحكي له أسرارها، وتبوح بشظايا من أزمنة، عاشتْها وحيدة، وبرفقة الآخرين، كان رويداً يتعرَّف على نفسه، ويتلمَّس خطواته فوق أرض الواقع، بعد أن عاش طويلاً في كنف الشعارات وبين الوعود التي لم تتحقَّق، وسيجد اليوم أن الأرض تحته مليئة بالصخور المدبَّبة وحطام الزجاج وحزم الأشواك، وليس كما تصوَّر أو صُوِّرت له، جنَّة على المطلق.

قال لها: لكِ الآن أصدقاء في كل مكان، ويمكنكِ...

غير أنها أدارت وجهها بعيداً، ولم تدعْهُ يُكمل، فيما راحت قَدَمَاهَا تنتفضان، وتحاول هي بلا جدوى تهدئتهما، وأخذت الرائحة تتفشَّى، كريهة، غامرة كل شيء. وأخذ يترقَّب تلك اللحظة الفريدة، التي يكفُّ فيها أيُّ شخص عن المكابرة، عن الظهور بمظهر الذي خبر من التجارب، ممَّا يجعله قادراً على الصمود في وجه أعتى الصعاب، وينخرط في عويل مرير. ولم يكن أمامه مفرّ، فباغتها بخبر مقتل جياب، وصدقت توقُّعاته في أنها لم تعلم بالأمر حتَّى هذه

اللحظة، إلّا أن أيّاً من الصور التي تخيَّلها لم يتحوَّل واقعاً. خيَّبت ظنَّه، فلم تنكب في البكاء، لم تصرخ وتشدّ شَعْرها أو تقطع في ثيابها، حُرقة على خسارته. كأنَّما كانت تدرك سلفاً أن جياب سينتهي إلى ذلك المصير، وسيتلاشى من حياتها بالسرعة نفسها التي دخلها بها.

لكنْ، كيف واتتْهم الجرأة على أن يردُّوه، أخذت تهمس، مَنْ يمكن له أن يفعل ذلك؟ هل رآه رأي العين، وأطلق عليه؟ يقيناً فعل ذلك وهو مغمض العينَيْن، سيكون كَمَنْ يواجه شعاعاً من ضوء كاسح، ربَّما تمثَّل له مجرَّد هيئة بشرية، مجرَّدة من الملامح والتفاصيل التي عرفتْهُ من خلالها الجماهير، التي أحبَّتهُ مرَّات، وكرهتْهُ مرَّات، ربَّما كان مهدوداً تماماً، فتخلَّص من أُبَّهته من طغيان حضوره، فسهل التَّخلُّص منه.

سيدفع صلاح كل ما يملك، وسيقبل بخاتمة عادية لحياته، في مقابل أن لا يقال، عندما يتمُّ ذلك، أنه قُتل بينما كان هارباً، بعد تبادل الطلقات مع الحرس. ليس دنو النهاية ما يقلقه، فكَّر، إنما كيف ستكون؟ أيّاً من النهايات التي حلم أن تنتهي حياته بها، لم يعد في وسعه نيلها. وقدر أن يقول لها، من دون أن ينظر ناحيتها، إن جياب سقط حين كان يفرُّ هارباً، بعد تبادل إطلاق النار مع حرَّاسه. وشعر فجأة بحواسِّه كلها قد تشوَّشت بفعل الظلمة، وبسبب العفن الذي تسلَّل حتَّى إلى روحه.

هارباً؟ قالت مستنكرة.

هكذا سمعتُ في الدائرة اليوم. ردَّ عليها.

يا لدناءتهم وهم يُلفِّقون الروايات. يسمعها تزدريهم من عتمتها السحيقة. جميعهم قتلوه، أضافت وهي ترمقه بنظرة ملؤها الشَّرّ، ثمَّ خاطبتْهُ: دمه يُلطِّخكم جميعاً. أرخى رأسه، ناشراً على وجهه ندماً وإقراراً بالتهمة. ولم يجد غير أن يُحوِّل بصره إلى ناحية أخرى، وبطَّل يصغي. تعود إليه هواجسه، وتحمله بعيداً، فيبدو المنظر قدَّامه شاحباً. كثيراً ما ينتابه يقين أن نيل الرفاق من بعضهم البعض بوحشية، هو المبدأ الوحيد الذي لا يسعهم تغييره، تُغذِّيه ثارات قبائل وضغائن مناطقية أكثر من أيِّ اختلاف إيديولوجي، بيد أن ما يشغله هو كيف يفعلون ما يفعلونه، ووفق ذلك تضمَّن بعض الضحايا نهايات لائقة، حتَّى مع مقدار العنف المرافق لها، فيما يكون حظّ آخرين خاتمة رخيصة.

أقصى ما يحاول فعله الآن أن يستردَّ نفسه. ويوجد الآن ما يسحبه من قدَّامها، من منزلها، ويُلقي به بعيداً، مثل أيِّ شخص أدَّى دوره، ثمَّ كان عليه أن يختفي أو يُخفى. وبعد قليل حين يخرج من باب هذا المنزل، مشاعر ثقيلة ستلفُّه، بات يدرك ذلك، وبمجرَّد ما تنحدر قَدَمَاه على الطريق الملتوي، الذي يفضي أحد الأزقَّة فيه إلى البحر مباشرة، سيكون كَمَنْ يغادر حياته التي ألفها لسنوات، من دون أن يداخله يقين أنه كان يدرك كل خباياها، ويستقبل حياة جديدة، لا يعرف عنها شيئاً أيضاً، وستقصر بدورها عن مَدِّه بوعود سارَّة. وعندها لن يعلم إن كان سيبقى في عدن، أم يندفع عائداً إلى ريفه العيد.

لم ننحر نحن الديكة أَضحيَّة لشهر يناير، فيهبنا سنة سعيدة، ويُجنِّبنا الحسد والأذى طوال العام، إنما آلاف الرفاق ذهبوا قرابين لكَ، يا يناير، وافترست جثامينهم الكلاب والغربان التي اعتادت التَّغذِّي على الزواحف، كيف سيكون طعم الرفاق في أفواه الغربان وبين مخالبها، مقارنة مع تلك الزواحف الصغيرة؟ مثل الفاكهة؟ ربَّما.

غمغمت نورا بصوت مكروب، وأغمضت عينَيْها، ورأى وجهها يتغضَّن، ويتحوَّل بشعاً ومخيفاً. وتذكَّر ماحكاه بقطاش، ليلة احتفالهم برأس السنة، عن الشعوب التي تنحر القرابين لمقدم السنة الجديدة، طلباً للسعادة. تبيَّن له أنها أيضاً تعلم عن هذه العادة البدائية.

وهو في طريقه إلى هنا عرف مصادفة، أن سناء وعبَّاس وبقطاش وآخرين رحلوا على متن سفينة روسية. ويشعر الآن أن حياته من دونهم تذوي وتؤول إلى فراغ.

ثمَّ سينظر صلاح إلى نورا وسيراها تنهض بمشقَّة بالغة، وجعلت تعرج في وسط ظلمة خفيفة، بينما جسمها يترنَّح،حتَّى اقتربت من النافذة، وفتحتْها بصعوبة، كأنَّما هي مغلقة منذ أعوام، وهبَّت رائحة جديدة، لكنْ، لها الطعم العفِن والكريه نفسه لرائحة قَدَمَيْها، وجعلت تحدِّق في الفراغ، وهي تُصغي إلى ضجيج مُبهَم، يتسلَّل إليها خفيفاً، ثمَّ إذا أصبحت لا تحتمله غيَّرت مكانها، وأطرقت طويلاً، كأنَّما شرعت في حديث مع نفسها، مع جياب، مع صور لهما، مع كل الأزمنة التي عاشتْها، عاشاها معاً. وستتراءى

لها حياتها مشطورة إلى نصفَيْن، لا سبيل إلى أن يلتئما، تتقاسمهما بُرْهَتَان، عاشتْهما عدن، قبل الاستقلال وبعده، وتخاصم واحدتهما الأخرى.

خليط أفكار وصور وعواطف، يتوالى من أزمنة عديدة، يموّج تعابير وجهها، ويُبدِّل مزاجها.وعند لحظة اشتدَّت فيها الظلمة، وكما لو شعرت بغتة بالأضواء الساطعة للمسارح في مُدُن أممية بعيدة تتفجَّر في وجهها، يرافقها تصفيق لجمهور عريض، ما فتئ يحلم باشتراكية في وسع الأرض والسماء، أخذ يدوّي في مسامعها، فيغمرها الانتشاء، عندها تخيَّلت قَدَمَيْها تستيقظان من سباتهما، تنفضان عنها الرائحة اللزجة، تتحرَّران من الأربطة المبقَّعة بسوائل كثيفة عديمة اللون. وتصوَّرتهما تقومان، أخيراً، بحركة راقصة، واسعة قليلاً مع نصف استدارة، تُبقيها في الهواء لثوانٍ، قبل أن تهبط وتروح تواصل الأداء، كأنَّما غير آبهة بكل ما يحيطها من حطام.